أنيك كوجان

الطرائد

جرائم القذافي الجنسية

الدار المتوسطية للنشر
MEDITERRANEAN PUBLISHER

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب : الـــطـرائـــد ـ جرائم القذافي الجنسية ـ

الكاتب : أنيك كوجان

مدير النشر : عماد العزّالي

تصميم الكتاب والغلاف : نجلاء العياري

الترقيم الدولي للكتاب : 978_9938_864_02_1

الطبعة الأولى: 2013 م - 1434 هـ



شارع قرطاج 2073 برج الوزير أريانة 5

الهاتف : 880 698 70 216

الفاكس : 633 698 70 216

الموقع الإلكتروني: www.mediterraneanpub.com

البريد الإلكتروني : medi.publishers@gnet.tn

الفايسبوك : فضاء القارئ

التقديم

على غير المعتاد كان بالضرورة أن تكون للنسخة العربية من هذا الكتاب تقديما بذاته. تشرح الخلفية الأصعب للعمل. وتبرر توظيف بعض المفردات «المريعة» ؛ التي تنفر منها اللغة. ويرفضها القلب والعقل. لكنها للأسف تفرض نفسها على النص كمصيبة لابد منها ؛ لان إزالتها أواستبدالها بمفردات اخف ؛ يؤسس لخطيئة بحق الضحايا، بالقياس إلى ما يمثله ذلك من تسامح مع المجرم.

فنحن هنا أمام نموذج استثنائي من البحوث الميدانية؛ الذي جهدت خلاله الكاتبة الفرنسية الكبيرة انيك كوجان لرفع الستار عن ابشع الجرائم الجنسية التي ارتكبها طاغية عبر القرون. استغرق منها عدة اشهر من التنقيب في ليبيا ما بعد الحرب : حول الجرائم الجنسية للمقبور القذافي. اليد في اليد مع ثائرة ليبية. في تحدي كبير لكافة الصعوبات التي كانت تقف أمام الخوض في موضوع يحمل في طياته أكثر من تهديد.

التقديم

حيث تنقل الكاتبة في هذا الكتاب، شهادات على درجة من الاهمية لعدد من الضحايا، اختارت أن تضع إحداها كوثيقة أساسية، ترفدها بقية الشهادات، تجنبا لاي تكرار قد يؤدي الى الخروج بالموضوع عن هدفه. حيث أن الغوص أكثر في تفاصيل «فجور» الطاغية ؛ والذي يرسم لسيناريو غير مسبق في تاريخ البشريــة ؛ ورغم اهمية ذلك لرصد الحقائق من اجل التاريخ، كان سيجعل الكتاب اقرب إلى كتب الروايات الوردية.

وفق ذلك، يجدر أن نشدد هنا، ان ما يرد بالمتن من مفردات «قاسية» ؛ إنما يعود إلى خيار موضوعي، وفكري بذاته، لأنهـا هكذا وردت على لســان الطاغية، وان أي محاولة للقفز على دنــاءة تعــابيره القميئة ؛ تتدخل سلبا على مجريــات البحث، وعلى موضوعــه. حيث أن ذلك يؤسس بالأحرى إلى هدية ليست من حق الطغاة. فان نجعل على فم معمر القذافي كلمات اقل براءة وسوقية لا يخدم البحث ؛ بل هو يشوه رسالته.

لذلك ؛ وفي الــوقت الذي نعتــذر فيه للقــاريء على قسوة سياق الكتاب في عمومه، نــؤكد في الختام أن خيار التزام «الحرفية» لم يكن بالضرورة سهلا، كما أن شهادات الضحايا لم تكن سهلة.

صفحــات من «حياة متجبر مهووس بالجنس» نعرضها دون مواربــة ؛ رغم ارتعاد فرائض الحروف ؛ لنتقدم للعالم كشفا بجرائم الطغاة، وليعرفوا ان التاريخ يترصدهم، وان كل من يحاول أن يتمادى سيكون التاريخ له بالمرصاد...

وحتــى لا يتكــرر ذلك أبـــدا !

المقدمة

في البداية، كانت ثريا.

ثريا: بعينيها الغسقيتين وشفتيها المتجهمتين وضحكتها الطويلة الرنانة. ثريا التي تنتقل، بحرفة كبيرة، من الضحك إلى الدموع، من البِشر إلى الكآبة، من الرقّة الحميمية، إلى عنف تمثال جامد. ثريا وسرّها وألَمُها وثورتُها. ثريا والقصة العجيبة لفتاة صغيرة وسعيدة، ألقيت بين مخالب الغول.

إنها هي التي حفّزت على إنجاز هذا الكتاب...

التقيت بها في أحد أيام الفرح، والهرج والمرج، التي تلت اعتقال الديكتاتور معمر القذافي، ومصرعه في أكتوبر 2011. كنت في طرابلس مرسلة من قبل جريدة اللوموند(الفرنسية). للتحقيق حول دور المرأة الليبية في الثورة. كانت المرحلة ضاجة، وكان موضوع المرأة في الثورة يستهويني.

لم أكن متخصصة في شؤون ليبيا. بل إنها المرة الأولى التي أشد فيها الرحال إليها. كنت مفتونة بالشجاعة

المذهلة التي أبداها الثوار للإطاحة بالطاغية الجاثم على رقابهم اثنتين وأربعين عاما. ولكني كنت مشغولة، بشكل أعمق، بشأن الغياب التام للمرأة في الأفلام، والصور والتقارير المنشورة في الأشهر الأخيرة. ففي الوقت الذي كشفت فيه انتفاضات الربيع العربي الأخرى، ونسائم الأمل التي هبت على هذه المنطقة من العالم، عن قوة المرأة التونسية ؛ التي كانت حاضرة بشكل واضح في النقاشات العامة، وعن عنفوان جموع النساء المصريات المتظاهرات، والمتحديات لكل المخاطر بساحة التحرير بالقاهرة. نجد إن المرأة الليبية قد غابت عن المشهد، الأمر الذي كان يطرح بالنسبة لي أكثر من سؤال : أين كانت النساء الليبيات؟ ماذا كانت تفعلن أثناء الثورة ؟ هل كنّ تأملن حدوثها، هل فجّرنها، هل ساندنها ؟ ولماذا اختفين الآن؟ أو على نحو أوضح، لماذا يتم إخفاؤهن، في هذا البلد الذي ما انفك مجهولا بالنسبة للعالم، وقد أستحوذ «زعيمه المهرّج» على كامل المشهد، والذي جعل حارّساته «الأمازونيات» الشهيرات؛ واجهة لثورته الخاصة ؟

أسرّ لي بعض الزملاء الذكور الذين تابعوا حراك الثورة من بنغازي إلى سرت، أنهم لم يتمكنوا من مقابلة أي امرأة، إلا بعض ظلال أشباح ملتحفة بعبايات سوداء، حيث رفض الثوار الليبيون بشكل قاطع، ربطهم بأمهاتهم أو زوجاتهم أو أخواتهم، وقالوا لي في شيء من المزح : «قد تكونين أكثر حظا منا» مقتنعين بأن التاريخ في هذا البلد، لم يُكتب على كل حال، على أيدي النساء، هم لم يجانبوا الصواب في النقطة الأولى، أن تكون الصحافية امرأة، في هذا البلد

المحافظ، يمثل أفضل فرصة لامتلاك مفتاح الوصول إلى المجتمع كله، وليس لمجتمع الذكور فقط. ولكنهم جانبوا الصواب في النقطة الأخيرة : فقد كان يكفيني بضعة أيام، وعدد من المقابلات لأفهم أن دور النساء في الثورة الليبية، لم يكن مهما فقط، بل كان حاسما. فقد كنّ بمثلن «السلاح السري للثورة» كما أكد لي أحد زعماء الثوار. فهن من قام بتشجيع المقاتلين، وإطعامهم، وإخفائهم، وتيسير تنقّلهم، وعلاجهم، وتموينهم، وتزويدهم بالمعلومات، وقُمن بجمع المال لشراء السلاح، والـتجسس على قوات القذافي لصالح «النيتو» وبتحويل وجهة أطنان من الأدوية، بما في ذلك من المستشفى الذي تديره ابنة معمر القذافي بالتبني (نعم تلك التي أشاع ــ كذبا ــ موتها إثر القصف الأمريكي لمقر إقامته سنة 1986). لقد تحمّلت النساء مخاطر خرافية ؛ حيث كان يتهددهن في كل لحظة خطر الاعتقال والتعذيب والاغتصاب. حيث وظفت كتائب القذافي الاغتصاب : والذي يُعتبر في ليبيا جريمة الجرائم بشكل واسع كسلاح «رهيب» من أسلحة الحرب. لقد خاضت المرأة الليبية الثورة بكل قواها، ونهضت بعنفوان غضبها لتطيح بالطاغية. وكانت عملاقة وخرافية الإرادة، كن «أبطال» الثورة. قالت لي إحداهن : «في الحقيقة، كان للنساء ثأر خاص مع القذافي، كان يجب أن تسويه».

ثأر خاص بالمرأة... لم أفهم بسرعة ما يمكن أن تعنيه هذه الكلمات. أليس للشعب الليبي الذي عانى أربعة عقود كاملة من الاستبداد والديكتاتورية ثأرا مشتركا مع القذافي؟ أليس القذافي هو من صادر الحقوق والحريات الفردية،

وقمع المعارضين وأذاقهم القهر والهوان. أليس القذافي هو من دمّر المنظومة الصحية والتربوية، وتسبب في الوضعية الكارثية للبنية التحتية الليبية، أليس القذافي هو من تسبب في الانهيار التام للثقافة. أليس هو من احتكر عائدات النفط لنفسه وأذاق شعبه الفقر والحرمان. أليس هو من قام بعزل ليبيا عن بقية العالم... فلماذا هذا الثأر الخاص بالنساء؟ ألم يدّع، صاحب الكتاب الأخضر، أنه حقق المساواة بين المرأة والرجل ؟ ألم يقدّم نفسه المدافع عن حقوق المرأة ؟ ألم يقم بتحديد السن القانونية للزواج بالنسبة للفتاة بسن العشرين، ومنع تعدد الزوجات والانتهاكات الذكورية في المجتمع ؟ ألم يمنح المطلّقات حقوقا لا تتمتع بها المرأة في بقية البلدان الإسلامية ؟ ألم يقم بتأسيس أكاديمية عسكرية خاصة بالنساء ؟

«هراء، نفاق، وتهريج ! كل واحدة منا كانت ضحية محتملة للقذافي». هكذا أجابتني إحدى الحقوقيات الليبيات، وعلى حين غرة التقيت بثريا. لقد وضعها القدر في طريقي صبيحة يوم 29 أكتوبر : بينما كنت بصدد وضع اللمسات الأخيرة على التحقيق الصحفي الذي أتيت من أجله إلى ليبيا، وكنت أنوي العودة لباريس في الغد، عن طريق تونس، وذلك بعد أن تحصلت على أجوبة مفصلة، ودقيقة فيما يتعلق بسؤالي عن طبيعة مشاركة المرأة الليبية في الثورة.

ولكن وللأسف أسئلة كثيرة بقيت معلقة ! أهمّها : قضية الاغتصاب الجماعي، وهتك الأعراض التي نفّذها مرتزقة القذافي، وهو الموضوع الذي كان من «التابوهات» الكبرى.

والذي لا تفضل الأســر الليبية. ولا ناشطات المجتمع المدني، أو المنظمات النسائية أن تتطرق له.

لهذا السبب وقفت الكثير من الصعوبات أمام عمل محكمة الجنايــات الــدولية، لصعوبة اللقاء بالضحــايا والتحقيق معهم حول تلك الجرائم. أما الآلام التي كانت تعصف بالمرأة الليبية قبل الثورة ؛ فلم تكن تظهر إلا في سياق أحاديث السر، تصحبها تنهيدة طويلة ونظرة زائغة. وكثيرا ما نسمعهن يرددن : «ما الفائدة من إثارة موضوع هذه الممارسات المهينة، والجرائم التي لا تغتفر؟» حتى أنني لم أتمكن من الحصول على أي شهادة أنقلها بشكل مباشر من إحدى الضحايا، ولا أي قصة من شأنها إدانة القذافي.

في هذه الأثناء، ظهرت ثريا. كانت ترتدي وشاحا أسود اللون، يغطي شعرها الكثيف والمصفف بعناية. وكانت تضع نظارة شمسية سوداء تخفي أغلب وجهها. شفتاها العريضتان التي تذكّر بـ«أنجلينا جولي» تعكس الكثير من الجدية ؛ لكنها عندما تبتسم، سرعــان ما يضيء برق من طفولة عذبة وجهها الجميل : الدافق بالحياة. نزعت نظارتها وسألتني : «كم هو عمــري حسب رأيك؟» ؛ وانتظرت إجابتي في شيء من التوتر، ثم استرسلت : «لدي إحساس بأنني أبدو في الأربعين من عمري !». تقول هذا وكأن سن الأربعين تأتي في قمة هرم العمر. ثريا كانت في الثانية والعشرين من عمرها.

كان ذلك في يوم مشرق أغلق أهدابه بود على طرابلس الصاخبة. وكان معمر القذافي قد مات منذ أكثر من أسبوع؛ وأعلن المجلس الوطني الانتقالي بشكل رسمي تحرير كامل البلاد ؛ جمعت الساحة الخضراء ؛ التي أصبحت تسمى ساحة الشهداء، مرة أخرى مساء الأمس جمهرة من سكان طرابلس وهم في فرح ظاهر، مكبرين وهاتفين لليبيا في سنفونية من الأناشيد الثورية. تحت وابل طلقات الكلاشنكوفات. اشترى سكان كل حي جملاً ونحروه أمام المساجد لتوزيع لحمه على اللاجئين الذين دمرت الحرب مدنهم. كان الناس يقولون أنهم صاروا «مُوَحّدين» و«متضامنين» وأنهم «سعداء كما لم يعرفوا السعادة من قبل». ولكنهم أيضا مترنحون، وقد فقدوا البوصلة. ويستحيل عليهم العودة إلى أعمالهم. وإلى حياتهم اليومية. ليبيا بدون قذافي ؟... يستحيل تخيل ذلك.

السيارات العسكرية المبرقعة كانت تجوب شوارع المدينة، مملؤة بالثوار الجالسين على مقدمتها. وعلى الأسقف، أو على الأبواب، وهم يلوحون بالأعلام. ويزمّرون بأبواق السيارات. كان كل منهم يحضن سلاحه، كحبيبة يرافقها إلى حفلة، ويفتخر بها. أصوات الثوار تعلو بالتكبير. راسمين شعارات النصر، بمناديل حمراء وخضراء وسوداء، رمز علم الاستقلال. ولا يهمّ إن لم يكن جميعهم من محاربي الساعة الصفر، أو كانوا من الشجعان حتى. فمنذ سقوط مدينة سرت آخر معاقل القذافي. وقتله بتلك الطريقة العاصفة، أعلن الجميع أنه من الثوار.

كانت ثريا تتأمل من بعيد، كانت منزعجة. هل هي أجواء الاحتفالات الصاخبة التي تجعل ذلك الضيق الذي تشعر به منذ موت القذافي أكثر مرارة ؟ أم هو تمجيد «الشهداء» و «أبطال» الثورة ما يحيلها إلى حقيقتها المؤلمة كضحية مستترة، غير مرغوب فيها، مخزية ؟ هل استوعبت ثريا فجأة مدى الكارثة التي حلّت بحياتها ؟ لم تكن تملك الكلمات، ولا قدرة لها على التفسير. هي فقط تشعر بالحرقة لإحساسها بالظلم المطبق. هو الحرج من عدم إمكانية الإفصاح عن ألمها والتصريح بثورتها. الرعب من أن يذهب ألمها، وهو ألم صامت وبالتالي غير قابل للحكي، هباء منثورا. ذلك غير معقول، وهو ليس أخلاقيا.

كانت ثريا تعضّ على وشاحها، وهي تُحكِمُ بتوتر تغطية النصف الأسفل من وجهها به. تدحرجت بعض الدموع من مقلتيها : فسارعت بمسحها، وقالت : «معمر القذافي دمّر حياتي». كان عليها أن تتكلّم ؛ فثمة الكثير من الذكريات الثقيلة التي تتزاحم في مخيلتها، الكثير من «الدنَسّ» الذي حول حياتها إلى كوابيس، كما تشرح : «وحتى إن قصصت حكايتي، فلا أحد سيفهم من أين أتيت، ولا ما عانيت. لا أحد على الإطلاق يمكن أن يتصور». كانت تهزّ رأسها بيأس.

وأضافت : «عندما شاهدتُ جثة القذافي معروضة للعموم، شعرتُ لبرهة بسعادة غامرة. لكن إحساسا جارفا بالمرارة سرعان ما اجتاحني. فقد وددت لو بقي على قيد الحياة، كان يجب أن يُعتَقَل، ويحاكم أمام محكمة دولية. كنت أريد أن أحاسبه».

أرادت ذلك لأنها ضحية : وهي واحدة من بين أولئك الضحايا الذين لا يريد المجتمع الليبي الحديث عنهم، الضحايا الذين تطال لعنة إهانتهم وتدنيسهم مجمل العائلة. والأمة برمتها. ذلك النوع من الضحايا المزعج أمرها. والمثيرة للقلق. على النحو الذي يفضل معه الجميع تحويلهم إلى مذنبين.

ترفض ثريا ابنة الاثنين والعشرين ربيعا ذلك بقوة. فهي تحلم بالعدالة : وتريد أن تدلي بشهادتها. فإن ما فعلوه بها. وبالأخريات. ليس شيئا بسيطا. أو قابلا لأن يتغاضى عنه. لذلك هي ستروي قصتها : قصة فتاة دخلت للتو عامها الخامس عشر عاما. عندما لمحها معمر القذافي في زيارة لمدرستها. واختطفها في اليوم التالي. لتتحول - مع غيرها - إلى «جارية» رهن شهواته. حيث بقت مُحتَجَزَة لسنوات عدّة في معسكر باب العزيزية. المكان الذي ستتعرض فيه للضرب. والاغتصاب. وإلى شتى أشكال شذوذ طاغية مهووس بالجنس. لقد سرق منها عذريتها وشبابها. وحرمها من أي مستقبل محترم في المجتمع الليبي. كانت تعي ذلك بمرارة. وبعد أن بكتها واحتجّت لغيابها. أصبحت عائلة ثريا تعدها منحرفة. ولم تعد قابلة للإصلاح. فهي تدخّن. وهي عصيّة عن كل إطار. ولا تعرف في أي اتجاه تمضي.

قصتها جعلتني في ذهول تام. وقد عدت إلى فرنسا وأنا مصدومة. وكتبت قصة ثريا على صفحات جريدة «اللوموند» دون الكشف عن وجهها أو هويتها. كان ذلك من الخطورة بمكان. يكفي ما تعرضت له من معاناة. لكن القصة نُقِلتْ وتُرجِمتْ في جميع أنحاء العالم. كانت المرة

الأولى التي تقرر فيها امرأة ليبية تقديم شهادة حيّة من باب العزيزية، ذاك المكان المليء بالألغاز. بعض المواقع الموالية للقذافي قامت بتكذيب القصة، محتجين على تشويه صورة زعيمهم الذي قدّم الكثير - بزعمهم - من أجل «تحرير» المرأة. أما البعض الآخر، ورغم علمهم بسلوك القذافي، فهم مع ذلك يجدون صعوبة في تصديق هذه القصص المريعة.

لم يراودني الشك لحظة واحدة في ما حدثتني به ثريا. فقد بلغتني العديد من القصص المشابهة تؤكد وجود «ثريات» أخَر. علمت أن مئات النساء تعرضن للاختطاف لساعة أو لليلة أو لأسبوع أو لسنة كاملة، وأجبرت بالقوة أو بالابتزاز على الاستسلام لنزوات القذافي ووحشيته الجنسية. كما علمتُ أن القذافي قد سخر شبكات من الدبلوماسيين والعسكريين والحراس الشخصيين، والموظفين الإداريين أو موظفي البروتوكول، وذلك من أجل مهمة رئيسية هي توفير فتيات - أو فتيان - لسيدهم، لتلبية حاجياته اليومية. كم من الآباء والأزواج كانوا يحرصون على إبقاء بناتهم وزوجاتهم، داخل جدران المنازل حتى لا تقع عليهن عين القائد ونزاوته. واكتشفت إن الطاغية، الذي ولد في عائلة بدوية فقيرة جدا، كان مسكونا بالجنس، وبفكرة امتلاك نساء وبنات الأثرياء والأقوياء، من وزرائه وجنرالاته، أو القادة والحكام. وكيف كان على استعداد دائم لدفع الثمن المطلوب، أي ثمن بدون أي حدود.

لكن للأسف ليبيا الجديدة ليست مستعدة بعد للكلام. فالموضوع لا يزال من المحرمات ! فبالرغم من أن لا أحد يتأنى عن تجريم القذافي، والمطالبة بتسليط الضوء على

اثنتين وأربعين سنة من القهر والاستبداد والحكم المطلق، حيث يتم التطرق يوميا لتلك العذابات التي تعرض لها المساجين السياسيون، وقمع المعارضين وتعذيب المتمردين وسجنهم. وإن لا يمل من الحديث عن استبداد القذافي وفساده، عن ازدواجيته وجنونه، عن مناوراته وانحرافه...، وهم يطالبون بالتعويض للضحايا جميعهم. لكن لا أحد يريد أن يسمع عن مئات الفتيات اللاتي سُــبين واغتُصِبْن، واللاتي لم يكن أمامهن من خيار غير الصمت أو الرحيل، والأسهل من ذلك كله موتهن : بل إن بعض الذكور في عائلاتهن مستعد للقيام بالمهمة.

عدت إلى ليبيا للقاء ثريا. وجمعت قصصا أخرى، وحاولت تفكيك الشبكات المتواطئة التي مهّدت للطاغية. كان التحقيق يتم تحت ضغوط قوية. فالضحايا والشهود يعيشون إلى اليوم رعب التطرّق للموضوع. فبعضهم تعرض للتهديد والتخويف من قبيل : «لمصلحتك ومصلحة ليبيا. ومن الأفضل التخلي عن متابعة البحث في هذا الموضوع !». هكذا كانت نصيحة العديد ممن اتصلت بهم، قبل أن يقطعوا المكالمة بشكل مفاجئ. وفي زنزانته بسجن مصراتة : حيث يقضي يومه في تلاوة القرآن، التقيت شابا ملتحيا شارك في عملية الاتجار بالفتيات، قال لي بغيض : «لقد مات القذافي وانتهى أمره. لماذا تنبشين عن أسراره الفاضحة؟». وفي السياق نفسه يقول وزير الدفاع الليبي السيد أسامة الجويلي : «هذا الموضوع مدعاة للعار والمهانة لكل الليبين. عندما أفكر في هذه الجرائم التي اقترفت في حق العديد من الشباب بما في

ذلك الجنود. أشعر بالاشمئزاز ! أؤكد لكم أنه من الأفضل طي الصفحة. لقد طال هذا الدنس كل الليبيين، ولا أحد يرغب في إثارة الموضوع».

أهكذا الأمر ؟ جرائم نندد بها، وأخرى نتستر عليها. ونعتبرها أسرارا صغيرة وقذرة ؟ هناك ضحية جميلة ونبيلة وأخرى مخجلة ؟ ضحية تستحق المكافئة والتكريم والتعويض، وأخرى يكون من الأفضل الإسراع «بطي صفحاتها ؟ كلا. هذا غير مقبول. قصة ثريا ليست فريدة من نوعها. الجرائم المرتكبة ضد المرأة — وما يحوم حولها من مغالطات وتمييز في جميع أنحاء العالم — لا يمكن معالجتها بهذا الاستخفاف».

تعتبر شهادة ثريا على مستوى كبير من الشجاعة ويجب قراءتها كوثيقة كتبتُ سطورها تحت إملائها. فهي كانت متحدثة جيدة، وتملك ذاكرة ممتازة. وهي لا تحتمل فكرة مؤامرة الصمت. بدون شك لن يكون في الإمكان تقديم الطاغية- وقد لاقى حتفه- أمام المحكمة الجنائية لتنصفها. ربما لن تقبل ليبيا أبدا الاعتراف بمعاناة «ضحايا» معمر القذافي، والنظام القائم على صورته. لكن شهادة ثريا ستكشف للجميع أنه لما كان القذافي يختال في أروقة الأمم المتحدة على إيقاعات أنه سيد العالم، وبينما كانت الأمم الأخرى تفرش له السجاد الأحمر، وتستقبله وترحب به، وبينما كانت حارساته «الأمازونيات» : محل إعجاب وانبهار، أو تفكه، كانت العديد من الفتيات تقبع في قبو إقامته الشاسعة بباب العزيزية. فتيات لم يكنّ عند قدومهن قد تجاوزن بعد سن الطفولة.

الفصل الأول

قصة ثريا

1

طفولــة

ولدتُ في مدينة المــرج، إحــدى مدن الــجبل الأخضر الصغيرة، والتي تقع على مسافة من الحدود المصرية. كان ذلك يوم 17 فبراير 1989. نعم 17 فبراير ! هذا اليوم الذي بات من المستحيل على الليبيين أن ينسوه : يوم انطلقت شرارة الثورة التي أطاحت بحكم القذافي. بإمكاننا القول إنه يوم قُدّر له أن يكون عيدا وطنيا، وهي فكرة تروق لي كثيرا !

ثلاثة إخوة ذكور حلــوا قبلي بالبيت، ووُلد بعدي أخوان وأخت صغيرة، ولكنني كنت البنت الأولى، وكان والدي سعيدا جدا بــولادتي. لطالما أراد أن تكون له بنت، وكان يريد أن يسميها «ثُريا». لقد كان يحلم بهذا الاسم لابنته حتى قبل زواجه، وكثيرا ما حدّثني عن شعوره لحظة حملني بين يديه لأول مرة، وما فتئ يــردد لــي : «لقد كنت جميلة!، جميلة جــدا!». كانت سعادته بولادتي تفوق

الوصف. إلى درجة أن الحفل الذي أقامه بمناسبة «أسبوع» الولادة. كان بحجم حفل زفاف ؛ وليمة ضخمة، مدعوين بلا عد. فرقة موسيقية...

كان يريد كل شيء لابنته، نفس حظوظ إخوتي الذكور ونفس الحقوق التي يتمتعون بها. وهو لا زال حتى الساعة يعبر عن حلمه القديم في أن أصبح طبيبة. وبالفعل حرص والدي على تعليمي، ودفعني لدراسة العلوم الطبيعية بالثانوية. ولو سَلكتُ حياتي طريقها العادية، لكنت درست الطب. العلم عند الله ؟ أما أن يحدثوني عن مساواتي في الحقوق مع إخوتي الذكور فذاك الذي يصعب على تصديقه!. ولا توجد امرأة ليبية واحدة يمكنها تصديق ذلك الوهم. يكفي أن أستعرض تجربة والدتي. تلك المرأة العصرية، التي اضطرت في آخر المطاف للتخلي عن كل أحلامها.

كانت أمي تملك الكثير من الأحلام. تبخرت جميعها. ولدت أمي، عن والدين تونسيين، في المغرب، حيث تقطن جدتها أم والدتها، والتي ارتبطت بها أمي وأحبتها كثيرا. وكانت تتمتع بكثير من الحرية والاستقلالية، حتى أنها تمكنت من السفر لباريس، التي كانت تعشقها كثيرا، للتدرب على مهنة الحلاقة. هناك في باريس تعرفت على والدي خلال مأدبة إفطار في إحدى ليالي رمضان. كان والدي يشتغل بالسفارة الليبية، وكان بدوره يعشق باريس حيث أجواء الحرية، والثقافة مقارنة بمناخ الكبت في ليبيا. وكان من الممكن لوالدي أن يتعلم اللغة الفرنسية في المعاهد المختصة في باريس، خاصة وإن السفارة كانت تشجع موظفيها على

ذلك. لكنه كان لا مباليا، وفضل التنزه والتسكع في شوارع باريس، والاستمتاع بفضاءات الحرية والجمال، لكنه اليوم يتحسر على ذلك، فربما لو تعلم أبي الفرنسية لتغيرت حياتنا. لقد اتخذ والدي قراره بسرعة بشأن زواجه من أمي واحتفلا بذلك في مدينة فاس بالمغرب، عند جدة والدتي، وبسرعة، فخورا بها، قرر اصطحابها إلى ليبيا.

إن وصول أمي إلى ليبيا، إلى مدينة المرج مباشرة من باريس، قد سبب لها صدمة ثقافية، فقد بدأ لها الأمر وكأن الزمن عاد لسنوات عديدة للوراء، ففي الوقت الذي كانت فيه والدتي جد عصرية، تتابع آخر صيحات الموضة الفرنسية، وتهتم بتسريحة شعرها وحسن زينتها، وجدت نفسها مجبرة على ارتداء «اللحاف» الأبيض التقليدي، وعلى المكوث في البيت، فأخذت تشعر، وقد صار مستحيلا أن تخرج للشارع بحرية كما كانت تفعل من قبل، وكأنها أسد وُضع في قفص، وأحست بأن والدي قد خدعها، وأنها قد وقعت في فخ، فلم تكن تلك مطلقا الحياة التي صورها لها، ولم يكن ذلك الاتفاق بشأن تنقل الأسرة بين ليبيا وفرنسا، والسفر تباعا بين الضفتين، وأنه يمكن لها فتح صالون حلاقة وتطوير مشروع خاص بها بين البلدين... إلا أنها على العكس وجدت نفسها في محيط بدوي لا يقبل بأي حراك للمرأة خارج البيت، فأصيبت بالفعل بداء الاكتئاب، الأمر الذي جعل والدي يبذل قصارى جهده لنقل العائلة إلى بنغازي، ثاني أكبر مدن ليبيا، والتي تميزت على نحو ما باعتبارها المدينة المتمرّدة على السلطة المركزية في طرابلس، ورغم أن والدي لم يكن يستطيع

اصطحابها معه في رحلاته المتكررة إلى باريس للعمل
يبقى عزاؤها الوحيد مع ذلك، أنه أسكنها مدينة كبيرة
حيث صار بإمكانها الخروج دون لحاف، ومزاولة مهنتها
بعد أن فتحت «صالون للحلاقة» في حجرة الاستقبال
بمنزل العائلة. هل كل ذلك خفف عنها، لا أدري ؟

لقد واصلت أمي اجترار الحزن، والتحسر على أيام باريس
وما فتئت تروي لنا، ونحن صغار،ذكرياتها في «الشانزليزيه»
واحتساء الشاي مع أصدقائها في شرفات المقاهي، وعن
الحرية التي تتمتع بها الفرنسيات، والضمان الاجتماعي
الذي يغطي مصاريف علاج أو حاجة أي عامل، وعن
الحقوق النقابية وجرأة الصحافة. باريس، باريس، باريس...
كم كان الموضوع مقلقا ومملا بالنسبة لنا. لكن ذلك كان
يضاعف كل مرة إحساس والدي بالذنب.

لقد كان بمقدوره الاستقرار بها في باريس، خاصة وأنه
حاول الدخول مع صديق له في مشروع صغير هناك
مطعم بالدائرة الخامسة عشرة، كان من المفترض أن
تقوم أمي بالإشراف على إدارته، لكن لسوء الحظ، اختلف
بسرعة مع شريكه وفشل المشروع، وكاد أبي أن يشتري
شقة في منطقة «لاديفانس»، كان ثمنها في ذلك الوقت
خمسة وعشرين ألف دولار لا غير ؛ لكنه تراجع في لحظة
الدفع، وهو الأمر الذي لا زال نادما عليه.

هكذا تعود ذكرياتي الأولى عن أيام الدراسة إلى بنغازي
ورغم أن الكثير منها مُضبب الآن، إلا أنني لازلت أذكر كم
كانت مرحة وجميلة. أسم مدرستي كان «أشبال الثورة

وكان لدي أربع صديقات، لا نفترق أبدا. كنتُ مهرّجة المجموعة، مختصة في تقليد الأساتذة حال خروجهم من قاعة الدرس، أو التهكّم من مدير المدرسة. فقد كنت أملك موهبة تقليد الآخرين ؛ سواء في هيئتهم أو تعبيراتهم. وكنا نضحك معا إلى حد البكاء. أما في الدروس فأذكر أنني كنت أحصل على صفر في الرياضيات، لكنني كنت الأفضل في اللغة العربية.

لم يكن راتب والدي كبيرا. فكان من الضروري أن تعمل أمي كذلك، بل إن عملها سرعان ما سيتحول إلى الرافد الحقيقي لحاجات الأسرة. فصارت تعمل ليلا نهارا. وكلها أمل في أنّ يحدث شيئا ما يأخذنا بعيدا عن ليبيا. كنت أشعر أنها مختلفة عن بقية الأمهات. وكثيرا ما كنت أعامل في المدرسة باحتقار لأنني «ابنة التونسية» وكم كان ذلك يجرح مشاعري، ولأنه عُرف عن التونسيات التحرر والعصرية. صدّقوني، لم يكنْ ذلك في بنغازي شيء إيجابي، وبغباء، كان ذلك يثير حفيظتي، بل كنت أحيانا أشعر بالنقمة على والدي لعدم ارتباطه بواحدة من البلد. وكنت أقول في نفسي ؛ ما كانت حاجته ليتزوج من أجنبية ؟ هل فكّر على الأقل في أبنائه ؟ يا إلهي كم كنت غبية!

*

في الحادية عشرة من عمري أخبرنا أبي أننا سننتقل للعيش في سرت، مدينة ساحلية بين بنغازي وطرابلس إذ كان يريد الاقتراب من مسقط رأسه ؛ ومن والده — رجل تقليدي جدا متزوج من أربعة نساء — ومن إخوته وأبناء

عمومته. هكذا كان الأمر في ليبيا. جميع العائلات تحاول أن تبقى مجتمعة حول حصن قبلي ؛ يفترض أنه يؤسس لقوة ودعم غير مشروط. في بنغازي لم نكن نملك جذورا، ولا علاقات اجتماعية. كنا في الواقع كالأيتام. أو هكذا برّر لنا أبي الأمر. بالنسبة لي كان الخبر كارثيا ؛ كيف يمكن أن أترك مدرستي ؟ أن أترك رفيقاتي ؟ إنها مأساة !. حتى أنني وقعت طريحة الفراش من هول الصدمة. لقد مرضتُ بالفعل. ولازمت الفراش لأكثر من أسبوعين. عاجزة عن الوقوف والذهاب إلى المدرسة الجديدة.

غير أنني في النهاية تحاملت على نفسي. وجرجرت أقدامي إلى هناك. لم يتطلب الأمر كثيرا من الوقت لأفهم أنني لن أكون سعيدة في تلك المدرسة. أول الأسباب، أنها مسقط رأس القذافي. وأنا لم أتطرق للحديث عن هذا الشخص بعدُ، لأنه لم يكن محور اهتمام أو موضوع حديث داخل عائلتنا. فأمي لم تكن تخفي كرهها له. وكانت تسارع إلى تغيير القناة حالما تظهر صورته على شاشة التلفزيون. كانت تلقبه بـ«الأشعث». وكانت تحرك رأسها أسى وهي تقول : «بصراحة هل يمكن لرجل مثله أن يكون رئيسا؟»

أما أبي فكان يخافه على ما أعتقد. فقد كان يتحفظ عن الخوض في موضوع القذافي. كنا جميعا على وعي بأنه كلما تجنبنا الحديث عن معمر القذافي كان ذلك أفضل من الناحية الأمنية. وأن أي كلام عنه خارج إطار العائلة يمكن أن يتم نقله مما قد يسبب الكثير من المشاكل. كما لم نكن نعلق في البيت أي صورة له على الجدران. ولم يخض

أي منا أي نشاط ثوري....لنقل إننا بصورة تلقائية فضلنا التزام الحذر.

على إنه في المدرسة كانت الصورة مختلفة. فالإعجاب والتمجيد سيد المشهد. وصور القائد في كل مكان. وكنا نردد النشيد الوطني كلّ صباح أمام صورة عملاقة توشح العلم الأخضر. وكنا نهتف : «يا قائد ثورتنا على دربك طوالي...وبلابلابلا...» ; وفي الفصل أو أثناء الاستراحة. لبس ثمة من حديث بين التلاميذ غير : «ولد عمي معمر...» أو «خالي معمّر.....». أما الأساتذة فيتكلمون عنه كنصف إله. بل إله كامل. عن طيبته. ورعايته لأبنائه. وكيف أنه يملك زمام كل الأمور بين يديه. وكان علينا أن نسميه جميعنا «بابا معمر». كانت مكانته تناطح القمم.

وفي الوقت الذي كنا قد تكبدنا فيه عناء الانتقال إلى سرت حتى نقترب من العائلة ونندمج في المجتمع. تبين لنا أن ذلك كان مستحيلا. فأهل سرت. المتوَّجون بعلاقة القربى أو الجوار مع القذافي. كانوا يتصرفون باعتبارهم أسياد الكون. وأشراف أهل البلاط. في مقابل الرعاع والفلاحين سكان المدن الأخرى. فكانوا يقولون لنا هل أنتم من زليتن؟ هذا أمر مثير للسخرية !. أنتم قادمون من بنغازي ؟ هذا أمر سخيف !. أنتم من تونس ؟ هذا مخجل!. في هذا المناخ. ومهما حاولت أمي تحسين صورتها. يبقى كل ما تفعله «عيبا». فعندما قامت بفتح صالون للحلاقة والتجميل في وسط المدينة : على مسافة من سكن العائلة. وتحول إلى نقط جذب لأنيقات سرت وجميلاتها. زاد ازدراء أهل سرت لها.

في واقع الأمر تتمتع أمي بموهبة استثنائية في مجال الكوافير والمكياج. والجميع في سرت كان يقر بأنها الأكثر كفاءة وقدرة في المدينة على إبداع أجمل التسريحات وأروع المكياج. والأكيد أن الجميع يحسدونها على ذلك. غير إن مدينة سرت تعاني من ثقل التقاليد وقيود التزمت. فخروج المرأة إلى الشارع سافرة الرأس يمكن أن يعرضها للإهانة والشتم. وحتى إن خرجت متحجبة فهي محل شك وارتياب. لماذا هي خارج البيت ؟ هل هي بصدد البحث عن مغامرة ؟ أم أن لها علاقة ؟. والسكان في هذا السياق يتجسسون بعضهم على بعض، ويراقب الجيران تحركات بعضهم البعض. كما تغار العائلات بعضهم من البعض. وهم يتسترون على بناتهم. لكنهم لا يترددون في اغتياب الأخريات. ويمكن القول أن مصنع الإشاعات في سرت يشتغل على قدم وساق دون توقف.

أما في المدرسة، فكنت أتعرض لعقاب مضاعف. فلا يكفي أنني «ابنة التونسية» أنا أيضا «ابنة الحلاقة». فكانوا يجلسونني في الفصل بمفردي : في مقعد منزوي. ولم أتمكن من اتخاذ صديقة من بنات البلد، وحتى فترة طويلة، حين تعرّفتُ - لحسن حظي - على فتاة والدها ليبي وأمها فلسطينية. ثم على أخرى من أصل مغربي. وبعد ذلك على ليبية أمها مصرية. أما بنات سرت. فقد استحال الأمر. وحتى عندما كذبت يوما وقلت إن والدتي مغربية، ظنًا مني أن ذلك أهون من القول إنها تونسية، فوجئت بأن وقع ذلك كان أكثر سوءا. لهذا تمحورت حياتي بشكل رئيس حول صالون الحلاقة. وأصبح كوافير ماما كل مملكتي.

كنت أسارع بالانصراف من المدرسة حال انتهاء الدرس، وأركض إلى الصالون. هناك كنت أحيا من جديد، وتغمرني مشاعر عذبة بالسعادة. أولا لأنني كنت أساعد والدتي؛ وكان هذا يمنحني شعورا دافقا بالرضى.... وثانيا لأن مهنة الحلاقة كانت تعجبني وتملئني بالغبطة.

كانت والدتي لا تتوقف عن الحركة في أرجاء الصالون، تنتقل من زبونة إلى أخرى، رغم وجود أربع عاملات بالمحل. كنا نقوم بتصفيف الشعر، ومعالجة البشرة وتجميل الوجه. ويمكن أن أؤكد لكم أن نساء سرت،رغم أنهن لا يخرجن إلا محجبات، لهن شروط ومطالب لا تصدّق.

كان اختصاصي إزالة شعر الوجه والحاجبين بواسطة خيط حريري لا غير. نعم : مجرد خيط ناعم أقوم بشده حول أصابعي وأحركه بسرعة ليلتقط الشعر.وهذه الطريقة أفضل بكثير من استخدام الملقط أو الشمع. كذلك أقوم بتحضير الوجه بكريم الأساس الذي يسبق المكياج، هذا الذي تتولاه أمي، قبل أن تصبح ورائي : «ثــريا ! إليك باللمسة الأخيرة». عندها أســارع بــوضع أحمر الشفاه، وإلقاء نظرة أخيرة، وإضـــافة بعض العطر.

تحول صالون الوالدة بسرعة كبيرة إلى أهم مراكز جذب أنيقات المدينة، وبالتالي لقريبات القذافي. وعندما تنعقد القمم الدولية الكبرى في سرت، تأتي النساء المشاركات في مختلف الوفود إلى الصالون لتصفيف شعرهن وللتجميل، من بينهن زوجات رؤساء الدول، سواء من افريقيا أو أوربا أو أمريكيا. لقد كان الأمر مسليا. أذكر مرة إن زوجة زعيم

في واقع الأمر تتمتع أمي بموهبة استثنائية في مجال الكوافير والمكياج. والجميع في سرت كان يقر بأنها الأكثر كفاءة وقدرة في المدينة على إبداع أجمل التسريحات وأروع المكياج. والأكيد أن الجميع يحسدونها على ذلك. غير إن مدينة سرت تعاني من ثقل التقاليد وقيود التزمت. فخروج المرأة إلى الشارع سافرة الرأس يمكن أن يعرضها للإهانة والشتم. وحتى إن خرجت متحجبة فهي محل شك وارتياب. لماذا هي خارج البيت ؟ هل هي بصدد البحث عن مغامرة ؟ أم أن لها علاقة ؟. والسكان في هذا السياق يتجسسون بعضهم على بعض. ويراقب الجيران تحركات بعضهم البعض. كما تغار العائلات بعضهم من البعض. وهم يتسترون على بناتهم. لكنهم لا يترددون في اغتياب الأخريات. ويمكن القول أن مصنع الإشاعات في سرت يشتغل على قدم وساق دون توقف.

أما في المدرسة، فكنت أتعرض لعقاب مضاعف. فلا يكفي أنني «ابنة التونسية» أنا أيضا «ابنة الحلاقة». فكانوا يجلسونني في الفصل بمفردي ؛ في مقعد منزوي. ولم أتمكن من اتخاذ صديقة من بنات البلد. وحتى فترة طويلة، حين تعرّفتُ - لحسن حظي - على فتاة والدها ليبي وأمها فلسطينية، ثم على أخرى من أصل مغربي. وبعد ذلك على ليبية أمها مصرية. أما بنات سرت، فقد استحال الأمر. وحتى عندما كذبت يوما وقلت إن والدتي مغربية، ظنًا مني أن ذلك أهون من القول إنها تونسية، فوجئت بأن وقع ذلك كان أكثر سوءا. لهذا تمحورت حياتي بشكل رئيس حول صالون الحلاقة. وأصبح كوافير ماما كل مملكتي.

كنت أسارع بالانصراف من المدرسة حال انتهاء الدرس، وأركض إلى الصالون، هناك كنت أحيا من جديد، وتغمرني مشاعر عذبة بالسعادة. أولا لأنني كنت أساعد والدتي؛ وكان هذا يمنحني شعورا دافقا بالرضى.... وثانيا لأن مهنة الحلاقة كانت تعجبني وتملئني بالغبطة.

كانت والدتي لا تتوقف عن الحركة في أرجاء الصالون، تنتقل من زبونة إلى أخرى، رغم وجود أربع عاملات بالمحل، كنا نقوم بتصفيف الشعر، ومعالجة البشرة وتجميل الوجه، ويمكن أن أؤكد لكم أن نساء سرت،رغم أنهن لا يخرجن إلا محجبات، لهن شروط ومطالب لا تصدّق.

كان اختصاصي إزالة شعر الوجه والحاجبين بواسطة خيط حريري لا غير، نعم ؛ مجرد خيط ناعم أقوم بشده حول أصابعي وأحركه بسرعة ليلتقط الشعر.وهذه الطريقة أفضل بكثير من استخدام الملقط أو الشمع. كذلك أقوم بتحضير الوجه بكريم الأساس الذي يسبق المكياج. هذا الذي تتولاه أمي، قبل أن تصيح ورائي : «ثـريا ! إليك باللمسة الأخيرة». عندها أسـارع بـوضع أحمر الشفاه، وإلقاء نظرة أخيرة، وإضـافة بعض العطر.

تحول صالون الوالدة بسرعة كبيرة إلى أهم مراكز جذب أنيقات المدينة، وبالتالي لقريبات القذافي. وعندما تنعقد القمم الدولية الكبرى في سرت، تأتي النساء المشاركات في مختلف الوفود إلى الصالون لتصفيف شعرهن وللتجميل، من بينهن زوجات رؤساء الدول، سواء من افريقيا أو أوربا أو أمريكيا. لقد كان الأمر مسليا. أذكر مرة إن زوجة زعيم

نيكاراغوا طلبت أن نرسم لها عينان متسعتان، تناسب التسريحة التي رفعت فيها شعرها على هيئة كتلة ضخمة. في أحد الأيام جاءت جودية : مسؤولة المراسم لدى زوجة القذافي، واصطحبت أمي بالسيارة لتصفيف شعر سيدتها وتجميلها. وهو الأمر الذي يعني إن خبر تميز والدني قد وصل لكل مكان! قضت أمي هناك ساعات طويلة في تسريح ومكياج سيدة ليبيا الأولى : صفية فركاش. غير أنهم في نهاية العمل، لم يدفعوا لها إلا مبلغا بسيطا. كان أقل بكثير من السعر العادي للعمل نفسه في الصالون. وقد أثار ذلك غضب أمي كثيرا، وشعرت بصورة خاصة بالإهانة. ولما عادت جودية لاصطحابها مرة أخرى، رفضت أمي ببساطة الذهاب، وتعللت بأنها مثقلة بالعمل. وفي العديد من المرات كانت تختفي، وتترك لي مهمة تفسير غيابها وعدم وجودها بالقاعة. لقد كانت والدني شجاعة، واختارت أن لا تنحني أبدا.

ما يمكن أن أؤكده في هذا الصدد إن نساء عشيرة القذافي في أغلبهن متعجرفات. فعلى سبيل المثال كنت حين أقترب من إحداهن لأسألها إن كانت ترغب في تسريحة أو صباغة، تجيبني بازدراء : «ومن تكوني لتتكلمي معي». وفي صبيحة أحد الأيام، دخلت إحدى نساء العشيرة للصالون، وكانت على درجة من الأناقة والجمال، حتى أنني لم أتمالك نفسي لأعبر لها عن إعجابي، وقلت لها بعفوية : «ما شاء الله، كم أنت جميلة !» غير أن ردها كان صفعة قوية أطارت نصف وجهي. في البداية صعقني الذهول، ثم أسرعت لأمي أشتكي لها ما حدث. لكنها اكتفت بأن همست في أذني:

طالبة مني أن أتجاوز الأمر : «أصمتي. الزبون دائما على صواب». وبعد ثلاثة أشهر من هذه الحادثة، أصبت من جديد بالرعب : وأنا أرى السيدة عينها تدخل الصالون وتتقدم نحوي. والمؤسف أنها جاءت لتعتذر لي هذه المرة، وأخبرتني بإن ابنتها التي كانت في سني، قد انتقلت لرحمة الله أثر مرض عضال. فكان الموقف أكثر إيلاما من الصفعة.

في حادثة أخرى، قامت عروس من آل القذافي بحجز الصالون ليوم زفافها، ودفعت «بمقدم» على الحساب وفق ما يتم في العادة. غير أن تأجيل أو إلغاء الزواج جعلها تلغي الموعد مع أمي، ثم مرت بالصالون لاسترجاع ما دفعت. غير أن الوالدة رفضت إرجاع المبلغ، فكما هو متعارف عليه في مثل هذه الحالات، إلغاء الموعد يكلف الزبونة خسارة المقدم بكل بساطة. غير أن هذا الأمر أخرج الفتاة عن أطوارها، وتحولت بقدرة قادر إلى وحش هائج، وأخذت تصرخ، وتكسر ما يعترض طريقها. ثم استنجدت برجال عشيرتها الذين تدفقوا نحو الصالون من كل صوب؛ وأخذوا في تحطيم كل ما تقع عليه أيديهم وتكسيره. وقد أسرع أحد أخوتي لمساعدتنا، لكنهم أمسكوا به وأشبعوه ضربا وتنكيلا، قبل أن يستدعوا له الشرطة ويأخذونه للسجن. وقد اجتهدت عشيرة القذافي بكل ما بوسعهم لإبقائه بالسجن أطول مدة ممكنة. وقد استدعى الأمر مفاوضات مضنية بين القبائل للوصول إلى اتفاق صلح مشفوع بالاعتذار. وهكذا لم يخرج أخي من السجن إلا بعد ستة أشهر، محلوق الرأس، وآثار التعذيب تملأ جسده.

ورغم الاتفاق المبرم بين شيوخ القبائل، أصرت عشيرة القذافي، التي كانت تسيّر جميع مؤسسات سرت، ومن بينها البلدية، على إبقاء الصالون مغلقا لمدة شهر آخر. حينها شعرت بثورة عارمة تجتاح كياني.

وفي الوقت الذي لم تكن تربطني بأخي الأكبر، ناصر أكثر من علاقة خوف وتسلط، كانت تجمعني بعزيز، الذي يكبرني بسنة واحدة، علاقة ود وتكامل. كنا كالتوأم لا نتفارق، خاصة وأننا كنا ندرس في المدرسة نفسها. وكنت أشعر أنه يحميني ويغار علي. وكنت مرسول الغرام بينه وبين حبيباته. من ناحيتي أنا لم أفكر في الحب نهائيا، ولم أمر بهذا الشعور للأسف على الإطلاق. تاريخي العاطفي كان صفحة ناصعة البياض. وربما كنت أمنع عن نفسي الحب بصورة تلقائية، خاصة أن والدتي كانت شديدة وصارمة: لا أدري ؟ ولكن لم يكن عندي حبيب، ولا دقة قلب، ولا أي حلم. أعتقد أنني سأندم طوال حياتي على عدم مروري بتجربة حب المراهقات. كنت أعرف أنني يوما ما سأتزوج، فهو قدر جميع النساء، وسأتجمّل وأضع الزينة لزوجي. ليس أكثر من هذا. لكنني لم أكن أعرف أي شيء: لا بخصوص جسدي، ولا بخصوص الجنس. لا تتصوروا حجم الذعر الذي أصابني عندما جاءتني الدورة الشهرية أول مرة ! حيث أسرعت لإخبار والدتي، لكنها لم تقدم لي أي تفسير. وكان الحديث في هذا من «التابوهات» الكبيرة. حتى أننا كنا نحمر خجلا أثناء مرور الدعايات عن الحفاظات النسائية في التلفزيون. وكان الأمر كارثيا في حضور ذكور العائلة....وأذكر أن والدتي وخالاتي كن

يقلن لي أمام تساؤلاتي الحائرة: «عندما تبلغين سن الثامنة عشر، سوف نخبرك عن العديد من الأشياء». عن أية أشياء يتحدثن ؟ وكانت الإجابة دائما : «عن شؤون الحياة». ولكن، لم يسمح لهن القدر بذلك. فقد سبقهن معمر القذافي وسحقني.

*

في إحدى أيام أبريل عام 2004، وكنت قد دخلت للتو الخامسة عشر من عمري، جمعنا مدير المدرسة في الساحة ليقول لنا : «إن القائد سيشرفنا بالزيارة غدا. وإن ذاك مفخرة للمدرسة كلها. وأنا أعوّل عليكم لتكونوا في الموعد، منضبطين، وفي أبهى حلة. عليكم أن تقدموا صورة لمدرسة رائعة، كما يريدها ويستحقها!». يا للخبر! يا للقصة!. لا يمكن لكم أن تتصوروا كم كان مثيرا فكرة أن نرى القذافي بلحمه ودمه أمامنا... هذا الرمز الذي ما فتئت صورته تداعب مخيلتي منذ أن وعيت.. فقد كانت صوره في كل مكان، على جدران المدينة، على جدران المكاتب، على جدران البلديات وعلى جدران المتاجر وعلى الأقمصة وعلى القلادات وعلى الكراريس وحتى على الأوراق النقدية. كانت نظراته تطل علينا أينما كنا. وعلى الرغم من تعليقات والدتي اللاذعة بشأن شخصيته، كنت أكن له مشاعر عميقة من الإعجاب والرهبة. لم أكن أتصور كيف هي حياته ؛ إذ لم أكن أضعه ضمن البشر. لقد كان متعاليا في نظري عن هذا الوجود الأرضي، في سماء عصية، حيث يسود النقاء.

في صباح اليوم التالي، أسرعت إلى المدرسة وقد حرصت على ارتداء بذلة نظيفة ومكوية ــ سروال وسترة سوداء، مع وشاح أبيض ــ كنت في شوق وانتظار كبيرين لمعرفة برنامج هذا اليوم. ولكن وبمجرد بداية الحصة الأولى، جاء أحد الأساتذة وطلب مني مرافقته. قال لي بأنه قد تم اختياري لتقديم باقة الورود والهدايا للقائد أنا! فتاة «صالون الحلاقة»! التلميذة المتبوذة!؟؟. يالها من مفاجأة!. في البداية تيبست تحت وقع الخبر، ثم نهضت باعتزاز، وأنا على وعي تام بأن الخبر قد ترك عددا غير قليل من بنات الفصل؛ يحترقن من الغيرة. داخل القاعة التي قادني إليها الأستاذ، وجدت مجموعة من التلميذات تم اختيارهن كذلك للترحيب بالقائد. وطلبوا منا تغيير ملابسنا بسرعة وارتداء اللباس التقليدي الليبي. كانت الملابس موجودة على شماعة في ركن القاعة. «رداء أحمر، وصدرية، سروال، ووشاح تقليدي، وعصبة صغيرة تضبط بعناية فوق الرأس».

كم كان الأمر مذهلا ! وقد انخرطنا في تغيير ملابسنا بسرعة كبيرة ؛ ونحن نقهقه في حبور يفوق الوصف. بينما اجتهدت المدرسات في مساعدتنا في ضبط أغطية الرأس، ووضع المشابك، وتسريح الشعر. وكنت أتساءل : «أخبروني كيف أحييه، من فضلكم ! ماذا علي أن أفعل؟ هل أنحني؟ هل أقبل يده ؟ هل يجب أن أقرأ شيئا؟» كانت دقات قلبي تتسارع. بينما كان الجميع يجتهد لجعلنا في منتهى الروعة. اليوم؛ عندما أعيد التفكير في ذلك المشهد، كانوا في الواقع يعدوننا كالخراف التي تساق للذبح.

كانت ساحة المدرسة مكتظة.أساتذة وتلاميذ وإداريون. الجميع في حالة انتظار وتوتر، بينما اصطفت مجموعة الفتيات المختارات لاستقبال القائد أمام البوابة الرئيسية. كنا نتبادل النظرات فيما بيننا، وحالنا يقول : «يا للحظ؛ بالتأكيد ستبقى هذه أجمل ذكرى في حياتنا». كنت أرتعش كورقة وأنا ممسكة بباقة الورود، وكنت أكاد أسقط، وقد صرت أشعر برِجْلاي لا تقوى على حملي. عندها حدجني أحد الأساتذة بنظرة حادة، وهو يعنفني : «ثريا، اعتدلي!».

فجأة وصل، تسبقه فلاشات آلات التصوير، وتحيط به أعداد كبيرة من الرجال، ومن الحراس والحارسات. كان يرتدي بذلة بيضاء، تزركش صدرها بالنياشين ؛ أعلام وشارات. وكان يتوشح شال بني اللون، ويرتدي قبعة من نفس اللون؛ تدلت منها خصلات شعر داكنة السواد. لقد مرّ المشهد كله بسرعة فائقة في الواقع، ولكن أذكر أنني قدمت له الباقة، ثم أخذت يده بين يدي؛ وانحنيت لتقبيلها. وأنا أفعل شعرت بضغط غريب على كفي، وأخذ يرمقني بنظرات باردة، ويتفحصني من أعلى رأسي حتى أخمص قدميّ. ثم ربت على كتفي، قبل أن يرفع يده إلى رأسي ويمسح على شعري.

كانت تلك نهاية حياتي. لأنني فهمت بعد ذلك أن حركة مسح اليد على الشعر: ما هي إلا إشارة خاصة لحارساته، وتعني : «هذه أريدها!». لكنني في تلك الآونة، كنت أحلق فوق السحاب من السعادة. وما إن انتهت الزيارة التي لم تدم طويلا، حتى طرت مسرعة نحو الصالون لأروي

الحدث لأمي. «بابا معمر ابتسم لي. أقسم لك يا أمي!. ومسح على شعري!». في الحقيقة، أتذكر أن أمي لم تعر الأمر أي اهتمام، لكن قلبي كان محتفلا. وكنت أريد أن يشعر العالم بذلك. غير أنها ردت في برود ؛ وهي تواصل نزع البكرات عن شعر أحدى الزبونات ؛ «لا تعطي الامر أكثر مما يستحق».

ـ ولكن يا ماما هذا رئيس ليبيا ! المسألة لها قيمة رغم كل شيء !

ـ حقا ؟ أتسميه رئيسا ؟ هذا الذي أغرق بلاده في ظلمات القرون الوسطى، والذي يقود شعبه نحو الهاوية !؟ ...

ردة فعل أمي أزعجتني، ففضلت العودة إلى البيت لأستمتع بفرحتي بمفردي. كان والدي في طرابلس، وفيما أعتقد أن الخبر قد أدهش على نحو ما إخوتي. لكنني أذكر أن عزيزا وحده الذي كاد الخبر يفقده صوابه.

في صباح اليوم التالي، لاحظت عند وصولي للمدرسة تغييرا جذريا في سلوك المعلمين تجاهي. في العادة هم في منتهى القسوة معي، تصل معاملتهم لي حد الازدراء، لكنهم اليوم فجأة صاروا ودودين تقريبا معي، أو لنقل إنهم مهتمون بأمري. وعندما خاطبني أحدهم بـ«صغيرتي ثريا» ؛ رفعت حاجبي تعجبا. وعندما قال لي آخر: «إذن ستستأنفين الدراسة؟»، وكأن مجيء للمدرسة كان حسب خياري؛ قلت في نفسي إن شيئا ما غير عادي يحصل. ولكن في النهاية، أكدت لنفسي، أنه اليوم التالي لحفلنا الكبير، ولم أسمح لأي قلق يعتري خاطري. هكذا مع نهاية اليوم

الدراسي، على تمام الساعة الواحدة. اتجهت مسرعة نحو المنزل لتغيير ملابسي. وعلى الساعة الواحدة والنصف كنت في صالون الحلاقة لمساعدة أمي.

طرقت حارسات القذافي الباب في حدود الثالثة. وتقدمت للداخل فائزة، تبعتها سالمة وأخيرا مبروكة. كانت سالمة ترتدي الزي العسكري للحراس الشخصيين للعقيد، وتحمل مسدسا على حزامها. وكانت الأخرتان في ملابس مدنية. نظرن حولهن ــ كان يوما مزدحما بالزبائن وسألن إحدى العاملات:

-«أين هي أم ثريا؟»، واتجهن مباشرة نحو أمي ليقلن لها :

- «نحن من اللجان الثورية، وكنا مع معمر صباح الأمس، أثناء زيارته للمدرسة. وقد لفتت ثريا انتباهه. لقد كانت مذهلة في الملابس التقليدية. وقامت بدورها على أفضل وجه. لذلك نحن نريدها أن تقدم مرة أخرى باقة ورود لبابا معمر. وعليها أن تأتي معنا على الفور».

ردت أمي :

-«ولكن الوقت غير مناسب!» ثم أضافت :

-«انظرن كم هي القاعة مكتظة. أنا بحاجة لإبنتي». فأجبن :

- الأمر لن يتجاوز ساعة من الزمن.

- مجرد تقديم الورود ؟

- نحتاجها أيضا لمكياج قريبات القائد.

- في هذه الحالة الأمر مختلف، أنا أذهب معكن!

- لا لا ! نريد ثريا لتقديم باقة الزهور.

كنت أستمع للحوار، بحماس واستثارة : صحيح أن القا
كانت ممتلئة في ذلك اليوم، لكنني كنت أشعر بالحرج
ممانعتها. لأنه عندما يتعلق الأمر بالقائد فلا يمكن أن نق
لا .! في نهاية المطاف رضخت أمي ـــ لم يكن لها الخيار
الواقع ـــ وخرجتُ مع النساء الثلاث. كانت سيارة رباع
الدفع تقف أمام المتجر، والتي أدار السائق محركها
قبل أن نستقر داخل السيارة. جلست مبروكة في الم
الأمامي، بينما وجدت نفسي محشورة في المقعد الخ
بين سالمة وفائزة. انطلقت السيارة محدثة ضجة كب
لتتبعها سيارتي حراسة لم ألحظهما إلا في تلك اللحظ

كان يجب أن أقول «وداعا» لطفولتي.

2

سجينة

استمرت السيارات مسرعة لفترة خلتها دهرا. ورغم أنني لم أكن أعرف كم ساعة مضت، إلا أن الزمن بدأ لي لا نهاية له. كنا قد غادرنا مدينة سرت وانطلقنا في اتجاه الصحراء. وكنت أنظر أمامي، لا أجرأ على طرح أي سؤال. وحتى وصلنا منطقة السدادة، حيث أخذت السيارات في الولوج إلى ما يشبه المخيم. كان هناك مجموعة من الخيام، وعدد غير قليل من سيارات الدفع الرباعي، وكارفان ضخم، أو بالأحرى بيت فخم جدا متنقل على عجلات. اتجهت مبروكة نحو هذه القاطرة، وهي تشير لي أن أتبعها وتهيأ لي أنني لمحت في إحدى السيارات الخارجة من المخيم لحظة دخولنا إليه، إحدى التلميذات التي تم اختيارها البارحة لاستقبال العقيد مثلي. فبعث ذلك في نفسي شيئا من الطمأنينة. ولكن عند دخولي المقطورة، اجتاحتني رهبة لا توصف. كما لو أن كياني كان يرفض الوضع، وإن حدسي يخبرني بأن أمرا جللا يتم التحضير له على قدم وساق.

كان معمر القذافي بالداخل، مستلقيا على كرسي تدليك أحمر اللون، ممسكا بجهاز التحكم عن بعد بيده. يتصرف وكأنه إمبراطور. اقتربت منه لتقبيل يده التي مدّها تجاهي بفتور وتجاهل. وسأل مبروكة بصوت مبحوح : «أين سالمة وفائزة؟» فردت مبروكة : «قادمتان على الفور». الوضع برمته جعلني في غاية الاندهاش. ألم يأتوا بي لأنه كان من الضروري أن «تكون أنا» من يقدم له لا أدري ماذا...؟ ولكن ها هو لا يأبه حتى لوجودي، وهو لم يلتفت لي حتى مجرد الالتفات. وكأنني لم أكن موجودة. وبقيت هكذا دقائق طويلة لا أعرف ماذا أفعل. وفي نهاية المطاف وقف وسألني :

- «عائلتك من أين؟».

- من زليتن، أجبته.

بقي وجهه كالحجر بدون تعابير. لكنه وجه أمرا لمبروكة «حضروها». ثم خرج من الغرفة. أشارت مبروكة إلى مقعد في إحدى الزوايا بالقاعة لأجلس عليه. عندها دخلت المرأتان الأخريان، وهما تتصرفان على سجيتهما وكأنهما في بيتهما. ابتسمت لي فائزة. واقتربت مني وأخذت بذقني بحميمية وألفة. وهي تقول : «لا تقلقي، يا ثريتي الصغيرة!». وعادت أدراجها مقهقهة. بينما استمرت مبروكة ممسكة بالهاتف كانت تعطي أوامرها وتوصياتها بخصوص قدوم شخص ما. ربما فتاة مثلي؛ سمعتها تقول ، «هاتوا بها إلى هنا» أنهت المكالمة والتفتت نحــوي مخاطبة : «تــعالي! سوف نأخذ مقاساتك لنحضر لك ملابس مناسبة». وسألتني

«ما هو رقم حمالة الصدر التي تناسبك؟» كنت في حالة ذهول، وأجبتها مرتبكة : «أنا...لا أعلم، والدتي هي من تشتري ملابسي». فبدا عليها الانزعاج، ونادت فتحية، وهي امرأة أخرى ضمن المجموعة التي تدور حول القذافي، ذات شخصية مثيرة. حيث كان صوتها وجسدها أشبه بالرجال، بيد أنها كانت تتمتع بنهدين ضخمين يضاهيان نهود أكثر النساء فتنة. والتي ما إن دخلت المكان حتى رمقتني بنظرة فاحصة، ثم ضربت على يدي وغمزتني، وهي تقول : «إذن هذه هي الجديدة؟ من أين أنت؟». ثم قامت بتمرير شريط المقاسات حول خصري وصدري. في حراك كنت أستشعر معه بنهديها يضربان دقني. وعندما انتهت سجلت مع مبروكة مقاساتي وخرجن من القاطرة.

بقيت بمفردي، لا أجرو على أن أنادي أحدا، أو أن أقوم بأي حركة. وحل الظلام دون أن أفهم شيئا. ماذا ستظن أمي ؟ هل أخبروها بالتأخير ؟ ماذا سيحدث هنا ؟ وكيف سأعود إلى البيت ؟ بعد وقت طويل ظهرت مبروكة، فشعرت بالارتياح لرؤيتها. وأخذتني من يدي دون أي كلمة، وقادتني إلى زاوية فيها مختبر طبي : حيث قامت ممرضة بسحب عينة من دمي. ثم أخذتني فتحية إلى الحمام، وهي تقول لي : «انزعي ملابسك ! شعرك كثيف يجب إزالة كل هذا!» وضعت الكريم المزيل للشعر على اليدين والساقين، ثم قامت بتمرير آلة الحلاقة. وهي تشرح لي في لغة صدمتني : «سوف نترك شعر العانة». كنت مصدومة ومحرجة. وبما أنني كنت أبحث عن تفسير لكل هذا. قلت في نفسي : أكيد هذا الشيء من أجـل التأكـد من صحة

الذين يقتربون من القائد وسلامتهم. وما إن انتهت سالمة
من ذلك حتى قامت بلفي في رداء الـــحمام. وعادت بي
إلى الـــقاعة. جلست مبروكة وسالمة ؛ التي كانت تتمشق
سلاحها دائما. إلى جانبي. وقالت لي ؛ «ستساعدك على
ارتداء ملابس لائقة. ونقوم بتجميلك، ثم بإمكانك الدخول
لرؤية بابا معمر».

ـ كل هذا من أجل تحية بابا معمر ؟ لكن متى سأعود
إلى أهلي ؟

ـ ليس الآن ! عليك أولا تقديم التحية لسيدك.

وبالفعل ألبسوني ثيابا داخلية مثيرة ؛ لم يسبق لي أن
رأيت شيئا من هذا القبيل. وفستانا أبيضا ناعما، مفتوحا
على الجانبين ومكشوف الصدر والظهر. بينما سرحوا لي
شعري ليبقى مسدولا يتدلى إلى الردفين. وقامت فتحية
بتزيني، ثم عطّرتني. قبل أن تضيف أحمر شفاه لمّاع على
شفتي. وهو ما لا يمكن أن تسمح والدتي لي به أبدا. عندها
ألقت مبروكة نظرة متفحصة على كل هذا الذي فعلوه
بي. ثم أخذتني من يدي وقادتني نحو رواق طويل. قبل أن
نتوقف أمام باب مغلق. والذي فتحته دون طرق. ودفعت
بي إلى الداخل.

كان القذافي ممددا على السرير كما ولدته أمه. يا للهول!
أخفيت عيناي بيدي. وتراجعت إلى الخلف. مندهشة.
وأخذت أقول في نفسي ؛ «إنه خطأ فادح ! دخولي لم
يكن في الوقت المناسب ! يا إلهي!». التفت. كانت مبروكة
هناك. على عتبة الباب. وجهها ثابت. «إنه بدون ملابس!»

همست لها، وأنا في حالة ذهول تام معتقدة أنها لم تنتبه للأمر. «ادخلي!» قالت لي وهي تدفعني. عندها أخذني القذافي من يدي وأجبرني على الجلوس على السرير إلى جانبه. ولأنني لم أجرأ على النظر إليه. زمجر بصوت غريب: «التفتي يا قحبة!».

ورغم أنني لم أكن أعرف تماما ما تعنيه تلك الكلمة: «قحبة»، إلا أنها فيما يفترض كلمة رهيبة، وبذيئة جدا. وعلى الأرجح أنها تعني امرأة ساقطة. لذا لم أحرك ساكنا. حاول أن يديرني نحوه : فقاومته بكل قواي. فهمّ بجذب ذراعي، وكتفي... ولكن جسدي بأسره تصلب كالحجر. هنا لملم شعري في قبضته، وأدار رأسي نحوه بعنف، وهو يزمجر في شهوة : «لا تخافي. أنا بابا. أليس هكذا تسميني؟ ولكن أنا أيضا أخوك، وحبيبك. سأكون جميع ذلك بالنسبة لك؛ لأنك ستبقي معي إلى الأبد». اقترب بوجهه من وجهي وشعرت بأنفاسه تلسعني، ثم أخذ يقبلني على رقبتي وعلى وجهي. إلا أنني بقيت متصلبة كقطعة من خشب. حاول أن يعانقني. لكنني ابتعدت. فأعاد سحبي إليه. عندها أدرت رأسي وأخذت في البكاء. وحاول مسك رأسي، فقفزت واقفة. فأخذ يجرني من ذراعي فدفعته بعيدا عني، الأمر الذي أغضبه جدا. لذلك همّ بطرحي على السرير عنوة. إلا أنني أخذت أضربه وأتصارع معه بكل ما أوتيت من قوة. فنهض مبتعدا وهو يزمجر غضبا.

هنيهة واندفعت مبروكة إلى داخل الحجرة. فبادرها صارخا : «هل رأيت هذه القحبة. إنها ترفض ما أريده منها! علميها! فهميها! قبل أن تعيديها إليّ!». ثم اتجه نحو

حمام صغير ملحق بالغرفة. بينما اصطحبتني مبروكة إلى المختبر. كان وجهها أبيضا من شدة الغضب : «كيف نجرئين على فعل هذا مع سيدك ؟ مهمتك هي طاعته لا غير!». كانت تصرخ في أذني وأنا أسير قربها منكسرة.

- أريد العودة إلى المنزل.

- لن تتحركي إلى أي مكان، مكانك هنا !

- أعيدي لي ملابسي. أريد الذهاب لأمي.

هنا صفعتني بعنف ! وهي تقول : «عليك بالطاعة! و بابا معمر سيجعلك تدفعين الثمن باهظا!». كانت صفعة قد أربكتني. فنظرت إليها في ذهول، ويدي على وجنة الملتهبة. لكنها واصلت تعنيفها : «تتصورين نفسك طفلة أيتها المنافقة. إذن لتعلمي ماذا ينتظرك ! من هنا فصاعدا ستصغين لنا، أنا وبابا معمر. وتطيعين الأوامر. دون نقاش هل سمعت ذلك؟».

اختفت، وتركتني وحيدة، بهذا الفستان الفاضح. وبة الماكيـاج، وشـعري المبعثر على وجـهي. بكيت لساعا طويلة، متكوّرة على نفسي كالكرة داخـل القاعة. أستطيع فهم شيء مما يدور حولي. لا شيء على الإطلا جميع الأشياء تبدو مخدوشة الملامح. ماذا أفعل هنا ؟ م يريدون مني؟ لعل أمّي في غاية القلق. لا شك أنها اتصا بأبي في طرابلس. ربما يكون عاد إلى مدينة سرت. سيعا لأنها سمحت لي بالذهاب. فهو لم يكن متسامحا في خرو من البيت. لكن كيف سأحدثهم عن هذه الواقعة المش مع بابا معمر؟ سيصاب أبي بالجنون. كان جسمي يهتز

مَن هذا ؟

البكاء حين اقتربت مني ممرضة شقراء. لن أنسَ
جلست إلى جانبي وأخذت تمسح بلطف على شعـ
«ماذا حصل ؟ حدثيني». كانت لها لكنة غريبة.علمتـ
بعد ذلك أنها أوكرانية. كانت في خدمة العقيد، وتدعى
«غالينا». لم أستطع إخبارها بأي شيء. لكنها خمنت ما
كان، وشعرت بغضبها واستيائها. كانت تردد وهي تمسح
على وجهي : «كيف يمكن فعل هذا بفتاة صغيرة ؟ كيف
يجرؤون؟».

*

انتهى بي الأمر إلى النوم. أيقظتني مبروكة في صباح
اليوم التالي على الساعة التاسعة صباحا تقريبا. وناولتني
بدلة رياضية أعادت لي الأمل. «هل سأعود إلى البيت
الآن؟»

- قلت لك كلا ! هل أنت صماء ؟ لقد شرحنا لك
بوضوح أن حياتك الماضية انتهت. ونحن أخبرنا عائلتك
بالأمر، وهم قد تفهموا ذلك جيدا!.

- اتصلتم بعائلتي؟

كنت مصدومة. شربت الشاي مع قليل من البسكويت.
نظرت حولي. كان هناك عدد كبير من الفتيات في الزي
العسكري، يدخلن ويخرجن ويرمقنني بنظرات غريبة —
«هذا الشيء، هذه هي الجديدة؟» — يَذْكُرْن القائد. يبدو أنه
مشغول تحت إحدى الخيام. اقتربت مني سالمة. وأخذت
تشدد: «سأقول لك الأمور بوضوح: معمر سيضاجعك.
سيقوم بفض بكارتك. ستكونين ملكا له ولن تفارقيه أبدا.

ولهذا كفاك عنادا. لا مكان لدينا للمقاومة والدلال!». التحقت بنا فتحية ذات القوام الضخم، والتي أدارت جهاز التلفزيون. وهمست في أذني : «اتركي الأمر يسير ببساطة، لو قبلت ستنتهي الأمور على أحسن ما يرام. عليك فقط الطاعة والاستجابة للأوامر». بكيت كثيرا. أنا سجينة إذن. ما الخطأ الذي كنت قد اقترفته ؟

حوالي الساعة الواحدة ظهرا، جاءت فتحية لتُلبسني فستانا أزرقا من الحرير، قصيرا جدا. هو في الحقيقة أشبه بقميص النوم. وأخذتني للحمام لتبلل شعري بالماء، ثم باستعمال رغوة خاصة أخذت تبعثر خصلاته. وعندما جاءت مبروكة : ألقت نظرة فاحصة على شكلي، ثم أمسكت يدي بقوة وأخذتني إلى غرفة القذافي. «هذه المرة، سترضي رغبات سيدك. وإلا سأقتلك!». قالت لي مهددة، ثم فتحت الباب ودفعتني إلى الداخل. كان القذافي هناك جالسا على السرير، يرتدي سروالا رياضيا وقميصا داخليا. يدخن سيجارة وينفث الدخان في الهواء ببطء، وأخذ يحدجني بنظرات باردة. قبل أن يقول : «أنت قحبة، والدتك تونسية، فأنت إذن قحبة». كان يتأملني بهدوء من رأسي إلى أخمص قدماي ثم من قدماي إلى رأسي. وينفث الدخان في اتجاهي. ثم قال : «إجلسي بجانبي» مشيرا إلى مكان على السرير. ثم بدأ يساومني : «إذا لبيت كل ما أشتهيه منك، سأحقق لك كل ما تريدين، وسأهدي لك المجوهرات، وأعطيك منزلا فخما، وسوف أجعلك تتعلمين قيادة السيارة، وأشتري لك سيارة. وسيكون بإمكانك السفر إلى الخارج لإتمام دراستك إن كنت ترغبين.

سأصطحبك بنفسي إلى أي مكان تريدين. أتدركين هذا ؟ رغباتك ستكون أوامرا!».

ـ أريد العودة إلى أمي. قلت له.

تجمد في مكانه. سحق سيجارته وأخذ يرفع عقيرته: «أنصتي لي جيدا ! انتهى هذا. أتسمعين ؟ انتهت قصة عودتك للبيت. الآن أنت معي! انسي كل شيء آخرا!»

كنت لا أكاد أصدق ما يقول. كان الأمر خارج أي فهم. سحبني نحو السرير وأخذ يعض ذراعي. كان ذلك مؤلما. ثم حاول نزع ملابسي. كنت أشعر أنني شبه عارية في هذا القميص الأزرق. كان الأمر فضيعا. لا يمكن أن أتركه يفعل ذلك. قاومت. تمسكت بالحمالات. «انزعي هذا. أيتها العاهرة القذرة !». أمسك بذراعي فانتصبت واقفة. أمسكني وألقاني فوق السرير. قاومته بشدة. وقف غاضبا. واختفى داخل الحمام. جاءت مبروكة فورا «فهمت بعد ذلك أن هناك جرسا بجانب السرير يستعمله لمناداتها». فقال لها غاضبا :

-إنها المرة الأولى. التي تقاومني فتاة بهذا الشكل! إنه خطؤك! قلت لك أن تعلّميها! تصرّفي. وإلا ستدفعين الثمن!.

ـ سيدي. اترك عنك هذه الفتاة ! إنها عنيدة ! دعنا نرمي بها عند أمها ونأتي لك بأخريات.

ـ أعدي لي هذه. أنني أريدها هي.

قادتني مبروكة إلى غرفة المختبر. وبقيت هناك في الظلام الدامس. تسللت غالينا للحظة ومدت لي بلحاف وهي تبتسم في شفقة. ولكن كيف يمكنني النوم ؟ كنت أعيد المشهد ولا أجد أي تفسير لما يحدث لي. ما عساهم قالوا لأهلي ؟ أكيد أنهم لم يخبروهم بالحقيقة : مستحيل. ولكن ماذا بعد ؟ والدي يرفض أن أذهب إلى منزل الجيران. وكان علي دائما أن أكون في البيت قبل حلول الظلام. ماذا سيعتقد ؟ ماذا سيتصور ؟ هل سيصدقونني يوما؟ كيف فسروا غيابي عن المدرسة؟... لم يغمض لي جفن طوال الليل. عند الفجر، حين بدأت أنهار، جاءت مبروكة. وأخذت تنهرني : «هيا، استيقظي ! إلبسي هذا الزي العسكري. سوف نرحل نحو سرت». يا اللّه. تنفستُ الصعداء ! وصرخت في سعادة : «إذن سأذهب إلى أمي؟». لكنها أجابت في فتور :

ــ لا ! سنذهب إلى مكان آخر !

على الأقل، سنترك هذا المكان الرهيب، القابع وسط المجهول، ونقترب أكثر من البيت. أسرعت لأغتسل قليلا ثم وضعت الزي العسكري البني. كان يشبه زي الحارسات الشخصيات للقذافي. والتحقت بالقاعة حيث وجدت خمس فتيات يرتدين الزي نفسه. ويشاهدن التلفزيون في اهتمام. كن يحملن هواتف جوالة وكنت أتوق رغبة لأطلب منهن أن يسمحوا لي بمكالمة والدتي. لكن مبروكة كانت تراقب، والجو لم يكن حميميا. وسرعان ما أخذت المقطورة حيث كنا بالتحرك. فسلمت أمري لله. فأنا منذ مدة فقدت السيطرة على كل شيء.

بعد حوالي ساعة من السفر، توقفت عربة الكارافان. وقاموا بإنزالنا وإعادة توزيعنا على سيارات مختلفة. أربعة في كل سيارة. في تلك اللحظة فقط أدركت أننا نشكل قافلة وكان هناك الكثير من الجنديات. أو بالأحرى عندما أقول جنديات... لنقل يُعْطين الانطباع بأنهن من الجنود. أغلبهن لبس لهن شارات ولا أسلحة. قلت في نفسي ربما كنّ عسكريات مثلي. على كل حال كنت أصغرهن سنا، مما جعل بعضهن يلتفتن نحوي مبتسمات. كنت قد بلغت للتو الخامسة عشرة من عمري. وحدث بعد ذلك أن صادفت فتيات لم يتجاوزن الثانية عشرة.

في مدينة سرت، دلفت القافلة داخل كتيبة الساعدي، المعسكر الذي يحمل اسم أحد أبناء القذافي، حيث تم توزيعنا بسرعة على الغرف؛ وأدركت أنني أتقاسم غرفتي مع فريدة، إحدى الحارسات الشخصيات للقذافي، في الثالثة والعشرين او الرابعة والعشرين على الأكثر. وضعت سالمة حقيبة على سريري، وصرخت مصفقة بيديها : «هيا، تحركي! اذهبي واستحمي!». «وارتدي ثوب النوم الأزرق!». ولما انصرفت نظرت إلى فريدة وسألتها : «ما هذا السيرك؟ هل بإمكانك أن تفسري لي ماذا أفعل هنا؟».

ـــ لا أستطيع أن أقول لك أي شيء، أنا جندية. أنفذ الأوامر دون نقاش. افعلي مثلي.

انتهت المناقشة. كنت أنظر إليها وهي ترتب ملابسها بعناية فائقة، وأنا عاجزة على اتخاذ قرار، والقيام بالشيء نفسه. لم أكن لأقوى خاصة على ارتداء تلك الملابس التي

وجدتها داخل الحقيبة. مجموعة متشابكة من السترين
وحمالات الصدر، وأقمصة نوم. ثم برنس الاستحمام... غير
أن سالمة ميلاد سرعان ما ستعود إلي وهي تعنفني : «قلت
لك بأن تستعدي!سيدك ينتظرك!». ولم تتحرك من جواري
حتى ارتديت قميص النوم الأزرق، وألزمتني بالصعود معها
إلى الطابق العلوي. عندها طلبت مني أن أنتظر في الممر
بعد هنيهة جاءت مبروكة في مزاج سوداوي، ودفعتني بقوة
إلى داخل الغرفة. وأغلقت الباب خلف ظهري.

في الداخل. كان القذافي عاريا متمددا على سرير كبير
مغطى بشراشيف بنية اللون. يتوسط غرفة بدون نوافذ
ومطلية بنفس اللون البني الباهت. الأمر الذي جعله يبدو
وكأنه مدفون في الرمال. اللون الأزرق لقميصي كان خارج
النسق. «تعالي هنا. يا قحبة» : قال لي فاتحا ذراعيه
وواصل : «تعالي. لا تخافي!». أخاف؟ لقد تجاوزت حدود
الخوف. إنني ذاهبة إلى المسلخ. ووددت لو أطلقت ساقي
للريح هاربة. لكنني كنت أعلم أن مبروكة ترصدني بألف
فخ خلف الباب. فتسمرت مكاني دون أدنى حركة. عندها
قفز واقفا. وبقوة فاجأتني. التقط ذراعي وألقاني على
السرير : قبل أن يتمدد فوقي. حاولت إبعاده. لكنني لم
أفلح كان ثقيلا جدا. أخذ يعض رقبتي ووجنتي ويلتهم
ثديي. كنت أقاوم وأنا أصرخ. لكنه كان يزمجر مهددا : «لا
تتحركي، أيتها الفاجرة القذرة !». وأخذ يضربني، ويسحق
ثديي. ثم رفع قميصي وثبت ذراعي، واغتصبني بوحشية.

لن أنسى ذلك أبدا. فليس فقط إنه دنس جسمي في
تلك اللحظة. بل هو في الحقيقة. قد اخترق روحي وطعنها

بخنجر. هذا الذي لا زال نصله منغرسا في أم قلبي حتى اليوم. كنت محطمة. لا أملك أي قوة حتى لأتحرك أو أتزحزح من مكاني. كنت فقط أبكي. واعتدل هو ليأخذ منديلا أحمر ملقى بقربه. وقام بتمريره بين فخذي. واختفى في غرفة الحمام. سيتبين لي فيما بعد ؛ أن ذلك الدم كان ثمينا لطقوس السحر التي كان يقيمها.

كانت جروحي شنيعة حتى أنني بقيت أنزف لمدة ثلاثة أيام. وأخبرتني غالينا الأوكرانية التي كانت تأتي للسهر علي وإسعافي : وهي تمسح على جبيني في حنان. إن سبب هذا النزيف هو جرح داخلي عميق. وكمن سلم أمره لله. خلدت من طرفي للصمت. فلم أتذمر. ولم أعد أطرح أي سؤال. لكن غالينا لم تحتمل ما جرى وأخذت في تعنيف مبروكة عندما أخذتني إليها : «كيف تستطيعون أن تفعلوا هذا بطفلة ؟ هذا رهيب!».

لكن مبروكة لم تكترث لأمري. وبقيت ثلاثة أيام على تلك الحال. لا أكاد أقترب من الأكل الذي يقدمونه لي في غرفتي. كنت ميتة ـــ حية. بينما تجاهلتني فريدة التي أتقاسم معها الحجرة تماما.

في اليوم الرابع. جاءت سالمة لاصطحابي : قالت لي إن السيد يطلبني. ومبروكة من جديد هي التي أدخلتني إلى غرفته. وأعاد الكرة. مستعملا العنف نفسه، والكلمات النابية نفسها. ونزفت من جديد كثيرا. هنا هبت غالينا في وجه مبروكة وهي تحذرها : «لا تعيدوا لمسها! الأمر خطير هذه المرة».

في اليوم الخامس، قادوني في الصباح الباكر إلى غرفته. كان يتناول الإفطار : ثوم وعصير البطيخ، وبسكويت منقوعا في الشاي بحليب الناقة. فوضع شريطا في آلة تسجيل قديمة، أغاني بدوية قديمة، وأخذ يهتف : «هيا، ارقصي يا قحبة! ارقصي!» : ترددت. لكنه أصر : «هيا!هيا!» : كان يصفق بيديه. رسمت حركة أولى ثم واصلت على استحياء. الصوت كان مروعا، الأغاني سخيفة. وكان هو يرمقني بنظراته الفاسقة. النسوة يدخلن للقيام على خدمته أو للهمس في أذنه غير مباليات بوجودي. «واصلي، يا قحبة!» كان يصرخ بدون أن يبعد بصره عني، وحتى انتصب قضيبه. عندها نهض من مكانه وأمسك بي. أخذ يضرب على فخذي، ويقول : «إنها وقحة!» . ثم انقض علي. وفي نفس الليلة، أجبرني على التدخين. شرح لي إن حركات النساء وهي تستنشق السجائر : تثيره على نحو خاص. لم أكن أرغب في التدخين. لكنه أشعل سيجارة ووضعها في فمي. وأخذ يأمرني : «استنشقي! ابتلعي الدخان! ابتلعي!». أخذت أسعل. وكان هذا مثيرا لضحكه. «هيا ! واحدة أخرى!».

في اليوم السادس. استقبلني بالويسكي. «حان الوقت لتتعلمي الشرب، يا قحبة» : قال لي وهو يمد لي بكأس مترعة. كان من نوع «بلاك لابال». قارورة بخط أسود أتعرف عليها في أي مكان. وكان ذهولي على أشده : لأنني كنت أسمع أن القرآن يحرم شرب الخمر، وإن القذافي رجل متدين جدا. ففي المدرسة وفي التلفزيون، كانوا يعتبرونه أكبر المدافعين عن الإسلام. وكان يستشهد دائما بالآيات

القرآنية، ويقيم الصلاة أمام الحشود. ولكن أن أراه هكذا يشرب الخمر كان أمرا لا يُصدق. لا تتصوروا وقع الصدمة. فالشخص الذي ما فتيء الإعلام يقدمه للعالم على أنه «أب» الليبيين، والمدافع عن القانون، والعدالة. والذي يمسك بين يديه بزمام السلطة المطلقة. يقوم إذا بانتهاك جميع القواعد التي ينادي بها. وإن كل الذي كان يدعيه مجرد خداع ؟. كل ما علمه لي أساتذتي. كل ما يعتقده والداي. يا الله ! أقول في نفسي. لو يعلمون !. عاود يحثني على احتساء الكأس : «اشربي، يا قحبة!». وأمام نظراته المهددة غمست شفتاي في الشراب. وأحسست بالوسكي يلسع حلقي كاللهيب، ولم أستسغ على الإطلاق طعمه.

- «هيا اشربي! إنه دواء!»، قال لي.

في الليلة نفسها، تحركت بنا القافلة نحو طرابلس. عشرات السيارات، والمقطورة الكبيرة وشاحنة ممتلئة بالمعدات وخاصة الخيام. وقد ارتدت جميع الفتيات من جديد الزي العسكري. وفي الوقت الذي عم الارتياح الفتيات لخبر العودة للعاصمة، كنت أنا في منتهى اليؤس والبأس. فأن نترك سرت ؛ يعني أن أبتعد أكثر عن أهلي، وأن يتبخر كل أمل لي في العودة إلى البيت.

وأخذت أتخيل بعض السيناريوهات للفرار. لكن لم يكن لذلك أي معنى. فهل يوجد مكان واحد، في ليبيا، لا تطوله أعين القذافي ؟ لقد تمكن من زرع الشرطة، والميليشيات، والجواسيس في كل مكان. بل حتى الجيران صاروا يراقبون جيرانهم. وكانت بعض الوشايات تأتي من داخل العائلة

نفسها. وأدركت فجأة أنني سجينته. وأنني تحت ر
فأخذت في البكاء في صمت. لاحظت الفتاة التي
تجلس بقربي دموعي. فقالت لي بحنان : «أوه يا صغ
علمت أنهم أخذوك من المدرسة...». لم أجبها. كنت
من خلال النافذة إلى سرت وهي تبتعد، وكنت عاجز
الكلام. «أوه لا بأس ! صرخت فتاة أخرى كانت جالس
جانب السائق، إننا جميعنا في القارب نفسه!»

3

باب العزيزية

«آه ! ها نحن أخيرا في طرابلس !» ؛ قالت الفتاة التي بجانبي، وقد غمرتها سعادة كبيرة لرؤية أول منازل المدينة. الأمر الذي جعلني أشعر بالاطمئنان قليلا. «سئمت من سرت !» ؛ أضافت فتاة أخرى. لم أكن أدري ماذا كان علي أن أستنتج من هذه التعليقات، لكنني كنت أسجل كل شيء. كنت شديدة التركيز وحريصة على التقاط جميع المعلومات.

استغرقت الرحلة حتى تلك اللحظة أربع ساعات تقريبا. رغم أن السيارات كانت تسير بسرعة فائقة، تنشر الرعب بين بقية السيارات، وبين المارة الذين كانوا يسارعون بالتنحي للسماح لقافلتنا بالمرور. ولم نصل المدينة إلا وقد أسدل الظلام عليها بأستاره؛ على النحو الذي تبدت لي من بعيد وكأنها كتلة متشابكة من الطرقات، والأبراج والأضواء. فجأة، خفف الرتل السرعة، وأخذت السيارات

في عبور بوابة ضخمة تتصدر أسوار قلعة رهيبة التحصين
وهي تخترق صفوف الحرس المدججين بالسلاح، والذين
انتصبوا لأداء التحية العسكرية للركب. كان الموقف رهيبا
لكن استرخاء الفتيات داخل السيارة، أشعرني بأن الأمر لا
يعني بالنسبة لهن أكثر من الولوج للمكان الذي يعشن فيه
حيث قالت لي إحداهن ببساطة : «هذا باب العزيزية».

كنت أعرف الاسم بطبيعة الحال. فمن في ليبيا، لا
يعرف باب العزيزية ؟ عنوان السلطة بامتياز، ورمز الحكم
والقوة المطلقة : مقر إقامة العقيد القذافي المنيعة. ورغم
أن الاسم في ذاته لا يعني أكثر من نقطة تقاطع طرابلس
بالعزيزة : وهي المنطقة التي تمتد غرب طرابلس : ولكنه
في عقول الليبيين تحول بالأحرى إلى الاسم المرادف لكلمة
«رعب». كان أبي قد أراني مرة هذه البوابة الضخمة
والتي كانت تعلوها صورة عملاقة «للقائد». كما أراني
السور الطويل الممتد لعدة كيلومترات. لم يحدث أن تجرأ
أحد المواطنين على السير جنب الجدار. وإن فعل يتم
توقيفه بتهمة التجسس ويطلقون عليه النار لأقل حركة
مريبة. ويُروى أن سائق أجرة مسكين توقّف عن غير قصد
لتغيير عجلة سيارته. فقاموا بتفجير السيارة بكاملها وعلى
الفور. إي والله. إن الرجل قد لاقى حتفه ، قبل أن يقوم
حتى بفتح الصندوق لإخراج عجلة الاحتياط. وتم يومها
قطع خطوط الهواتف المحمولة في جميع أنحاء المنطقة.

وما إن عبر الرتل البوابة الرئيسية، حتى دخل في منطقة
بدت لي شاسعة جدا. وأخذت السيارات في اجتياز صفوف
من المباني المتراصة، تتخللها فتحات صغيرة وضيقة

في شكل نوافذ، أظنها مساكن للجنود. ومروج ونخيل وحدائق وإبل، وبنايات بسيطة، وبعض الفلل المعششة بين الأشجار. ولكن أيضا عددا لا يحصى من البوابات الأمنية؛ تتلو الواحدة الأخرى، كانت تجبر الرتل على الدوران عبر جدران عالية متقابلة الوضعية ، ومتتالية... في الواقع أنا لم أفهم هندسة تركيبها بشكل محدد... كانت تبدو كحصون مُضافة لحماية القلعة.

بعد فترة توقفت السيارة التي كانت تقلنا أمام مبنى ضخم. وقفزت مبروكة على الفور، وأخذت تتصرف وكأنها سيدة المكان. وقالت لي في لهجة آمرة : «ادخلي ! وأسرعي بوضع أمتعتك في غرفتك». تبعت الفتيات اللاتي اتخذن طريقهن عبر ممشى منحدر من الإسمنت، ينتهي إلى عدد من الدرجات التي تهبط باتجاه القبو. حيث يقابلنا جهاز كشف المعادن.

لعل أول ما صعقني في هذا المناخ الغريب، هو تلك الرطوبة العالية التي كانت تعبق في الجو. وعصف الإحساس الثقيل بأننا تحت الأرض : في قبو المكان. هنا أشارت لي آمال، الفتاة التي كانت إلى جواري في السيارة، باتجاه غرفة بدون نافذة، وهي تشدد : «تلك هي غرفتك». دفعت الباب في صمت، وأخذت أجول ببصري في المكان. ثمة مرآة تغطي الجدران بطريقة لا يملك معها المرء الفرار من صورته. وكذلك سريران صغيران يحتلان زاويتي الغرفة وطاولة صغيرة، وتلفزيون صغير جدا. على أن الحمام كان مرفقا مباشرة بالغرفة. فسارعت بنزع ملابسي والوقوف تحت دفق الماء، قبل أن آوي لفراشي في محاولة للنوم. غير

أن النوم قد إستحال في تلك الليلة. وقد جفاني النعاس تماما. فقمت بتشغيل التلفزيون، وأخذت في البكاء وأنا أستمع إلى بعض الأغاني المصرية.

في قلب ذلك الليل الحزين، فوجئت بآمال وهي تدخل لغرفتي، وهي تلوح لي بقميص نوم من الساتان الأحمر، وأخذت تتمتم : «هيا بسرعة ارتدي هذا ! سنصعد كلنا إلى القائد». بدأت لي آمال في تلك اللحظة غاية في الجمال كانت ترتدي سروالا قصيرا، وصدرية من الساتان الرطب، تنساب إلى قوامها الخلاب في سحر استثنائي....تلك الفتنة أبهرتني أنا نفسي.

دون أن أنبس ببنت شفة، ارتديت القميص الأحمر كما أمروني، وتبعتها لصعود سلالم صغيرة، لم ألاحظ وجودها من قبل، كانت على يمين الغرفة، لنجد أنفسنا أمام «مكتب» القائد. كان عبارة عن حجرة واسعة : تقع مباشرة فوق غرفتي، تغطي مرآة عاكسة مساحة من جدرانها، ويتوسطها سرير ضخم تعلوه مظلة محاطة بستار من القماش الأحمر المشبك، مثل أسرة سلاطين ألف ليلة وليلة، كما يوجد بالغرفة طاولة مستديرة، وعدد من الرفوف حيث رُكنت بعض الكتب، وأقراص الليزر وقنينات من العطور الشرقية : التي كثيرا ما كان يضع منها على رقبته. كما يوجد بالحجرة مكتب يعلوه جهاز كمبيوتر كبير. وقبالة السرير يوجد باب يُفتح بالجر على سكة أرضية، والذي يفصل بين الغرفة وحمام الجاكوزي الضخم. آه، لقد كدت أنسى ! إلى جانب المكتب، هناك زاوية صغيرة مخصصة للصلاة، كان يحتفظ فيها بمجموعة من

الطبعات النادرة للمصحف الشريف. أذكر هذا لأن ذلك أزعجني يومها. ولأنني لم أر القذافي يصلي، أبدا. باستثناء مرة واحدة في إفريقيا. لما كان عليه أن يؤم صلاة شعبية. كلما أتذكر ذلك، أقول في نفسي : «يا لها من مسرحية!».

عندما دخلنا. وجدنا القذافي جالسا على السرير في بذلة رياضية حمراء. «آه ! صرخ وهو يهتز. تعالي للرقص، عاهراتي ! هيا ! هوب ! هوب!». وضع الشريط القديم نفسه في آلة التسجيل. وأخذ يضرب بأصابعه وهو يتمايل قليلا. «عيونك جسارة....» : كم مرة سمعت هذه الأغنية المثيرة للسخرية !؟. فهو لا يمل على الإطلاق من الاستماع إليها. سارعت آمال في الانصياع للأوامر. والانغماس بكل كيانها في اللعبة. كنت أكاد لا أصدق ما أرى. حيث أخذت ترسل نحوه بغمزاتها المثيرة، وهي تتمايل. وتهز ردفيها. وثدييها. وتغمض عينيها. وترفع شعرها ببطء ثم تجعله يتساقط. وتدور. أو تلفي برأسها إلى الخلف. أما أنا فكنت متأهبة. جامدة كالعصا. أراقب ما يدور بنظرات عدائية. اقتربت مني آمال وهي تحثني على مشاركته الرقص، وأخذت تحك وركي، وتجعل فخذها ينزلق بين فخذيّ، لتتناسق حركاتنا. كان «القائد» يصرخ : «أوه... نعم ...يا قحبات!».

بعد هنيهة. نزع ملابسه. وأشار لي بمواصلة الرقص، بينما دعا آمال للمجيء نحوه. اقتربت منه. وهوت دون تردد لتأخذ قضيبه في فمها. مصعوقة لهول ما أرى. طلبت برجاء. وأنا لا أكاد أصدق المشهد أمامي : «هل أذهب الآن؟»

- «لا. تعالي هنا يا قحبة !»

سحبني من شعري، وأجبرني على الجلوس جواره، وأخذ يقبلني. أو بالأحرى يلتهم وجهي، بينما كانت آمال تواصل ما كانت عليه. ثم قال لي، وهو لا يزال ممسكا بشعري: «انظري، وتعلمي ما تفعله آمال. أريدك أن تقومي بالشيء نفسه لاحقا».

بعد لحظات، أمر آمال بالمغادرة، وطلب منها غلق الباب خلفها. ثم ارتمى فوقي، واستغرق يسحقني لمدة طويلة. كانت مبروكة تدخل وتخرج متجاهلة ما يدور، تبلغه الرسائل «ليلى الطرابلسي تريدك أن تتصل بها» أو «فلان يريد هذا أو ذاك...»، غير أنها قصدته في لحظة من اللحظات وهي تأمره : «كفى الآن، لديك أشياء أخرى تقوم بها». كنت في غاية الدهشة، كيف يمكن لها أن تخاطبه بهذه الطريقة ؟. أظن في الواقع أنه كان يخافها. وبالفعل توقف عن العصف بي، واتجه نحو غرفة الاستحمام.

غطس في الجاكوزي بالكاد، وصرخ في وجهي : «ناوليني المنشف». كانت المناشف في متناول يده، لكنه كان يريدني أن أخدمه. وواصل الأوامر : «عطري لي ظهري»، ثم أشار إلى جرس صغير بجانب آلة التسجيل في طرف السرير، وطلب مني أن أضغط عليه. وما أن فعلت حتى ظهرت مبروكة بسرعة البرق. فقال لها :

- «أعطي الأفلام الضرورية لهذه (القحبة) الصغيرة لتتعلم وظيفتها !»

جاءت سالمة ميلاد إلى غرفتي بعد خمس دقائق، تحمل بين يديها جهازا لعرض الأقراص الليزرية. كانت قد أخذته من إحدى المقيمات، وكومة من أقراص الليزر. وقالت لي: «امسكي، هذه بعض الأفلام الإباحية. شاهديها بعناية وتعلمي!. سيكون سيدك غاضبا إن لم تجتهدي في تنمية قدراتك. اعتبريها واجباتك المدرسية !».

يا إلهي. المدرسة... كم صار ذاك بعيدا. أخذت حماما باردا، وخرجت لأجد آمال بغرفتي، كان قد مضى علي قرابة أسبوع دون أن اتبادل اطراف الكلام مع أي مخلوق. ولم أعد أحتمل الخوف والوحدة. فسررت بالحديث إليها. وسألتها : «آمال لست أدري ماذا أفعل هنا ؟ هذه ليست حياتي. إن ما يدور هنا غير طبيعي، وأنا أفتقد والدتي كثيرا. هل بإمكاني الاتصال بها بالهاتف على الأقل ؟»

- «سأحدّث مبروكة في الأمر»، أجابتني في اقتضاب.

ولعلني خلدت إلى النوم وأنا أحادثها. فلقد كنت منهكة جدا. إلا أنني سرعان ما سأستيقظ على صوت طرقات عنيفة على الباب. دخلت بعدها سالمة بقوة للغرفة. وهي تقول : «اصعدي كما أنت! بسرعة! سيدك يريد رؤيتك!». كانت الساعة الثامنة صباحا. إي أنني لم أنم إلا ساعات قليلة. الظاهر إن القذافي قد استيقظ للتو، حيث كان لا يزال في السرير، أشعث الشعر. وعندما رآني : انزاح قليلا وقال لي : «تعالي في سريري، يا قحبة!». وأمام ترددي دفعتني سالمة بقوة تجاه السرير. عندها قال لها : «وأنت قدمي لنا فطور الصباح في السرير».

نزع ملابسي الرياضية التي كنت أرتديها للنوم بعنف وقفز فوقي بوحشية، وهو يحدثني : «هل شاهدت الأفلام يا قحبة ؟ يجب أن تكوني قد أتقنت هذا الآن!». وأخذ ينتفض، وينهش بأسنانه أجزاء جسدي. قبل أن يقوم باغتصابي من جديد. وما إن قضى وطره حتى انتصب وتوجه ليأكل حفنة من حبات الثوم النيء ؛ التي تعود على أكلها على الريق كل صباح، وهو الأمر الذي كان يجعل من رائحة فمه كريهة جدا.

– «اغربي عن وجهي الآن، يا قحبة» قال لي ودون أن يدور بوجهه تجاهي. فخرجت منكسرة لأصطدم عند الباب. بغالينا وممرضتين أوكرانيتين أخرتين في طريقهن للدخول إلي غرفة القذافي. لقد أدركت ذاك الصباح أنني أتعامل مع مجنون. لكن من يعلم بهذه الحقيقة ؟ والدي؟ أمي ؟ الليبيون...؟ في الواقع إن العالم بأسره يجهل ما يحدث خلف أسوار باب العزيزية. الجميع مرعوب من القذافي. لا أحد يستطيع مقاومته أو انتقاده، لأن عقاب ذلك يكون السجن أو الإعدام. في الواقع هو مرعب حقا، حتى ونحن نناديه بابا معمر. ونغني النشيد الوطني أمام صورته؛ كنا نجده مرعبا. انظروا ماذا فعل بي... كان الأمر مهينا، ومقرفا، وغير قابل للتصديق. بلى. شيء لا يصدق!لن يصدقني أحد! لن أتمكن أبدا من رواية قصتي. فهو معمر القذافي؛ ورغم إنه قد دنس شرفي، إلا أنهم سيتهمونني أنا بالجنون لو بُحت بما يفعله معي.

*

كنت أردد هذه الأفكار، حين أطلت آمال برأسها عبر
ب غرفتي، وهي تقول : «هيا، لا تبقي بمفردك، تعالي
عي أفرجك على المكان!». فتبعتها على الفور، حيث
لكنا الممر، ثم صعدنا السلالم لينتهي بنا المطاف، وسط
طبخ كبير، مجهز تجهيزا جيدا. علقت على أحد جدرانه
ورة كبيرة لشابة سمراء، تكبرني بقليل، قدمتها لي آمال
لى أنها هناء القذافي، الابنة بالتبني للعقيد. في الواقع لم
عرف إلا مؤخرا أن خبر موتها الذي شاع سنة 1986 إثر
لقصف الأمريكي على طرابلس بقرار من ريغن، كان كاذبا.
وظل أمر كونها على قيد الحياة سرا من أسرار الدولة،
رغم إن الجميع في باب العزيزية يعرفون الخبر. فالطفلة
ليست فقط أنها لازالت على قيد الحياة، بل إنها كانت
الابنة المفضلة للقذافي. أعدت آمال القهوة ثم أخرجت من
جيبها هاتفا محمولا صغيرا. صعقت من الدهشة. وسألتها
في تعجب : «كيف حصلت على هذا الهاتف؟»، فأجابتني
في نبرة صاحب الامتياز :

- «يجب أن تعرفي يا صغيرتي ! أنني أعيش خلف هذه
الجدران منذ أكثر من عشرة سنوات!».

في الطرف الآخر من المطبخ كان هناك فضاء ملحق،
اشبه بصالة كافتيريا، هي التي أخذت تمتلئ شيئا فشيئا
بالبنات : اللاتي كن جميعهن غاية في الجمال، والأناقة
والمكياج الخلاب. وكان بصحبة الفتيات شابان لا غير،
يتقلدان بطاقة فريق البروتوكول. وأمام تصاعد الصخب
والقهقهات التي أخذ رنينها يملأ المكان : سألتُ آمال :
«من هؤلاء؟».

- «ضيوف القذافي».أجابتني في لا مبالاة. وأضافت «دائما لدى معمر ضيوف. ولكن أرجوك حاولي ألا تكوني فضولية. وكفّي عن طرح الأسئلة!».

سرعان ما ضج المكان بالحركة. وأخذت الممرضات الأوكرانيات. سواء اللاتي يرتدين السترة البيضاء،أو «الجيليه» الأزرق الفيروزي. تدخلن وتخرجن على قدم وساق. قلت في نفسي : «لابد أن تمر «الضيفات» جميعهن باختبار فحص الدم». ولأن آمال اختفت من جواري. فضلت أن أعود إلى غرفتي. فماذا عساي أن أقول لتلك الفتيات اللاتي يكدن يطرن من الفرح لمجرد فكرة ملاقاة القائد؟ هل أقول لهن أخرجوني من هنا ؟ أنني لو فعلت. وقبل أن أباشر سرد قصتي. سأجد نفسي مقيدة بالسلاسل، في حفرة لا قرار لها.

كنت مستلقية على السرير حين دفعت مبروكة الباب، (في الواقع أنا مُنعت من إغلاقه بشكل كامل). وقالت لي: «يجب أن تشاهدي الأفلام التي قدمناها لك ! هذا أمر!». وتناولت أحد الأفلام ووضعته في الجهاز. دون أن تكون لدي أدنى فكرة عن محتواه. لقد كانت تلك المرة الأولى التي أطل فيها هكذا على عالم الجنس. فقد كان هذا العالم مجهولا تماما بالنسبة لي. لذلك كنت مشمئزة وعاجزة تماما عن متابعة المشاهد. فخلدت سريعا إلى النوم. وحتى أيقظتني آمال صباح اليوم التالي. وهي تقول: «لنذهب للفطور بالمطبخ». على إن ما يصعب تصديقه بهذا الصدد : هو تدني مستوى الخدمات في بيت الرئيس الليبي!. فقد كانوا يقدمون لنا الأكل في أواني من المعدن

الأبيض، وكان الطعام مقززا. استغرابي أثار ابتسامة آمال التي عرضت علي عند خروجنا من المطبخ زيارة غرفتها. هناك فاجأتنا مبروكة ؛ وصرخت بنا قائلة : «كل واحدة في غرفتها ! آمال أنت تعلمين جيدا أنه غير مسموح بتبادل الزيارات! فلا تكرري هذا مرة أخرى أبدا!».

في منتصف الليل، جاءت الرئيسة (مبروكة) لاصطحابي، وهي تصرخ في وجهي ؛ «سيدك يطلبك». وما إن صعدنا حتى فتحت باب غرفته، ورمت بي نحوه. في هذه الليلة لم يأمرني بالرقص فقط. بل هو أمرني أيضا بأن أدخن الحشيش. ثم استخدم بطاقة صغيرة لتجميع مسحوق أبيض ناعم جدا تبين لي فيما بعد أنه الكوكايين. وأخذ ورقة رقيقة. لفّها في شكل قرن ليستنشق عبرها ذلك المسحوق. ثم قال لي ؛ «هيا. افعلي مثلي ! شمّي يا قحبة! هيا استنشقي ؛ سترين النتيجة!».

وما أن فعلتُ؛ حتى أخذت أشعر باحتراق شديد في الحلق والأنف والعينين. وانتابني سعال حاد؛ وغثيان صاعق. فقال لي : «لأنك لم تستنشقي بما فيه الكفاية!». وهو يترطيب سيجارة بلعابه، وغمسها في مسحوق الكوكايين، ثم أخذ يدخنها ببطء، ويجبرني على التدخين معه. على استنشاق وابتلاع الدخان. ورغم أنني كنت واعية لما يــدور، إلا أنني كنت أشعر أنني افقد كل قواي. ثم قال لي: «ارقصي الآن!».

أخذ رأسي في الدوران. لم أعد أدري أين أنا. أصبحت كل الأشياء حولي غير واضحة وضبابية. ووقف هو يصفق

بيديه ليرسم الإيقاعات، ثم وضع السيجارة في فمي مر
أخرى. عندها انهرت شبه فاقدة للوعي على الأرض
فما كان منه إلا أن اعتلاني، واغتصبني في وحشية، وكرر
ذلك مرة أخرى وأخرى. كان متهيجا وعنيفا. ثم توقف
فجأة، ووضع النظارات والتقط كتاب لبضع دقائق ثم عاد
نحوي، عضني، سحق ثديي، واغتصبني من جديد، ثم توجه
نحو حاسوبه ليتفحص رسائله الإلكترونية، وليقول شيئا
لمبروكة، ثم عاد ليهاجمني مرة أخرى. عندها أخذت أنزف
بشدة، إلا أنه لم يرحمني، وحتى حوالي الخامسة صباحا.
قال لي عندها، وهو يطردني من غرفته : «اذهبي!». فعدت
أدراجي باكية.

*

جاءت آمال لتقترح علي الذهاب للأكل في نهاية الصباح.
غير أنني لم أكن أريد الخروج من غرفتي، لم أكن أرغب
في رؤية أحد. لكنها ألحت، فاصطحبتها على مضض،
وتناولنا الطعام في الكافيتيريا. أذكر أنه كان كسكسا، لأنه
كان يوم جمعة، يوم الصلاة. عندها شاهدت مجموعة من
الشبان يدخلون المكان وهم يبتسمون في انشراح. سألوا
آمال عندما أبصروني : «هل هذه الجديدة؟». هزت رأسها
بالإيجاب، فقاموا بتقديم أنفسهم بكل ود : «جلال، فيصل،
عبد الرحيم، علي، عدنان، حسام». ثم اتجهوا نحو غرفة
القائد.

في هذا اليوم سأعيش الصدمة الثانية في حياتي. وسوف
تتطلخ أنظاري بما سأراه إلى الأبد.

وأنا لن أسرد لكم هنا هذا الذي رأيت عن رحابة صدر. بل أنا سأجبر نفسي ؛ لأنني التزمت في هذا الكتاب بسرد كل الحقيقة. ومهما كانت قاسية ومريعة. وحتى يمكن لكم أن تفهموا كيف تمكن هذا الوحش من الإفلات من العقاب رغم كل ما كان يفعل من بشاعات. فإن الذي كان يتم من تفاصيل هي على درجة من المرضية والحيوانية. يصعب معها حتى مجرد التفكير في سردها. دون أن يموت الذي حضرها. ويملك القدرة بالتالي على نقل وقائعها. خجلا ورعبا. فهذا الذي ساقه قدره لأن يجعل منه القذافي طرفا في سيناريوهاته المرضية. يفضل الموت على أن يعرف الآخرين بما تم معه : خجلا من الموقف، وخوفا من عواقب ذلك. وبالتالي لم يكن في مقدور أي كان أن يتجرأ، ويخاطر بفضح هذه الانحرافات المرضية. لرجل كان يملك بين يديه قرار حياة او موت أي شخص. ويشوه بالخزي كل من أوقعه حظه العاثر في طريقه.

- «ارتدي ملابسك. سيدك يطلبك» : قالت لي مبروكة في لهجة آمرة. وهذا يعني في اصطلاحها : انزعي ملابسك واصعدي. مرة أخرى دفعت الباب وبدا أمامي مشهد مجنون. كان القذافي عاريا تماما، يعتلي الشاب الذي يدعى علي، ويمارس معه اللواط في جنون مرضي : بينما كان حسام يرقص كأي امرأة. وهو يرتدي ملابس الرقص النسائية، على نفس أنغام تلك الأغنية الركيكة. هممت بالعودة على عقبي. لكن حسام صرخ : «سيدي. ثريا هنا!». وأشار لي بأن أرقص معه. كنت مشلولة لا أقوى على الحركة. فصرخ القذافي : «تعالي يا قحبة». ورمى الشاب الذي كان

تحته جانبا. واعتلاني بغضب. كان حسام برقص، وعلي ينظر بينما هو يسحقني...عندها : وللمرة الثانية خلال أيام معدودة تمنيت لنفسي الموت. وكنت أقول : لا يحق لهم أن يفعلوا بي هذا.

ونحن على تلك الحال دخلت مبروكة. وأمرت الشابين بالخروج، بينما أخذت توجه أوامرها للقذافي بالتوقف لأن هناك حدثا طارئا. وكمن يطيع أمرا فوقيا. سارع العقيد بسحب نفسه، وقال لي : «أغربي عن وجهي!». أسرعت إلى غرفتي، لأدخل تحت الماء، حيث بقيت طوال الليل، كنت أغتسل وأبكي. لم أستطع أن أتوقف. كان مجنونا، كانوا جميعا مجانين، كان منزل مخبولين، ولا أريد أن أكون بينهم. كنت أريد والدي، إخوتي، أختي. أريد حياتي الماضية. كان الأمر مستحيلا. كان مقرزا. وكان هو رئيس البلد.

جاءت آمال لزيارتي فتوسّلت إليها : «أرجوك، تحدثي إلى مبروكة. لم أعد أحتمل، أريد أمي...» : رأيتها متأثرة لأول مرة. قالت لي : «أوه يا صغيرتي العزيزة !»، وأخذتني في حضنها. «قصتك تشبه كثيرا قصتي. أنا أيضا أخذوني من المدرسة. كنت في الرابعة عشرة من عمري». هي اليوم هي في الخامسة والعشرين. ولم تعرف طيلة هذا الوقت غير حياة الجحيم تلك.

4

شهر رمضـــــان

في أحد الأيام بلغ إلى علمي إن القذافي وزمرته سيذهبون إلى داكار. وأنني لن أكون ضمن الرحلة. يا إلهي كم أسعدني هذا الخبر. ثلاثة أيام بأكملها سأكون بمنأى عن هذا الوحش. ثلاثة أيام استطعت خلالها التنفس والتنقل بدون قيد ولا شرط. بين غرفتي والكافيتيريا حيث كنت ألتقي بآمال والفتيات، وكذلك فتحية، التي بقيت للقيام بمهمة الحراسة في باب العزيزية. كن يدخن ويشربن القهوة ويثرثرن.... أما أنا، فقد فضلت الصمت، والإصغاء... لعلي أحصل على بعض المعلومات التي قد تفيدني عن سير الحياة داخل هذا المجتمع المنحرف. ولكن للأسف، لم يكن ثمة من شيء ذو قيمة في تلك الأحاديث. على أنني اكتشفت أمرا أثار حيرتي كثيرا. وهو إن آمال، كانت تملك الحق في الخروج من باب العزيزية، بشرط أن يكون ذلك بصحبة سائق رسمي!. وهذا جعلني أستغرب : أيمكن لها أن تكون حرة : خارج هذه الأسوار... وتعود ؟ كيف يمكن أن يحدث هذا ؟ لماذا

لا تهرب كما أحلم بفعله منذ اللحظة الأولى التي وجدت فيها نفسي خلف هذه الجدران ؟ أشياء كثيرة كنت لا أستطيع تفسيرها.

كما اكتشفت كذلك، إن أغلب فتيات «الحرس الثوري» يملكن بطاقـــات خـــاصة.«بطاقة هوية» حقيقية. عليها الصورة الشخصية، والاسم واللقب، والصفة : والتي كانت على كل بطاقة : «ابنة معمر القذافي»، كتبت بالحروف الغليظة فوق إمضاء القائد وصورته. هذه الصفة «ابنة» بالذات، كانت بالنسبة لي أكثر من اعتباطية.

لكن تلك البطاقة كانت تمثل «فانوس علاء الدين السحري» الذي يفتح الأبواب داخل قلعة باب العزيزية، وكذا أبواب الخروج إلى المدينة، واجتياز عديد الحواجز الأمنية التي كان يقوم على حراستها فيالق من الحرس المدجج بالسلاح. وقد علمت، بعد ذلك بمدة، إن الجميع لا يجهلون وضعية هؤلاء «الفتيات» ووظيفتهن الحقيقية. ومع ذلك كانت كل واحدة معتزة بحصولها على هذه الهوية «إبنة معمر»، رغم أن هذا يعني دون شك بالنسبة للجميع إنهن عاهرات. لكن حذارا! عاهرات القائد الأعلى، وذاك كان مدعاة لتبجيلهن أينما ذهبن.

في اليوم الرابع، عادت الزمرة إلى باب العزيزة، وصار القبو يضج بحركة صاخبة. وضمن الأمتعة، التي عاد بها القائد من رحلته، عدد من الفتيات الإفريقيات. بعضهن صغيرات جدا والبعض الآخر أكبر سنا...مكياج صارخ، وملابس خليعة، وسراويل جينز ضيقة. وكانت مبروكة تقوم

ﻭﻭﺭ سيدة البيت، وتركض من أجل إرضائهن. وكانت صرخ باتجاهنا : «أمال ! ثريا ! تعالي بسرعة وقدمن قهوة والكعك!». كنا ننتقل جيئة وذهابا بين المطبخ قاعة الجلوس، نتحرك بين فتيات يضحكن وينتظرن بكل وق رؤية العقيد. كان لا يزال في مكتبه، يتحاور مع بعض شخصيات التي تبدو مهمة من الرجال الأفارقة. وبمجرد حيلهم، أخذت الفتيات تصعدن الواحدة تلو الأخرى إلى رفة القائد. كنت أنظر إليهن من بعيد. تقتلني الرغبة أن أقول لهن : «حذار انتبهن، إنه وحش!». ولكن كنت يد أن أصرخ أيضا : «ساعدوني على الخروج !». انتبهت بروكة إلى نظراتي وبدت غاضبة ومستاءة، لأننا بقينا في غرفة بينما كانت قد طلبت من فيصل القيام على خدمة ضيفات. خاطبتنا مصفقة بيديها بقوة : «فلتذهب كل احدة إلى غرفتها».

في منتصف الليل، جاءت سالمة لتصطحبني إلى غرفة سيد. جعلني أدخن سيجارة، ثم أخرى، ثم أخرى، ثم ام بـــــ.... أي كلمة أستعمل ؟ كان الأمر مهينا. لم أعد وى متاع جنس، لم أعد أكثر من «ثقب» يخترقه كيفما اء. وكنت أشد على أسناني وأتقبل الضربات. وضع غنية لمطربة تونسية : وأجبرني علي أن أرقص، وأرقص أرقص، عارية تماما هذه المرة. وعندما جاءت سالمة تخبره شيئا. قال لي : «بإمكانك الانصراف، حبيبتي». نت الكلمة في رأسي كصوت نشاز : حبيــبتي ؟ ماذا هاه؟ فهو لم يخاطبني أبدا من قبل إلا بلغة الشتائم الإهانات.

في اليوم التالي اصطحبت ميروكة لغرفتي شرطية برتبة ملازم، في الثالثة والعشرين من عمرها. وقالت لي : «إنها نجاح، ستقضي معك يومين». كانت الفتاة تبدو لطيفة وصريحة، وفيها شيء من الوقاحة. وكانت ميالة للكلام بلا توقف. «هل تعلمين إنهم جميعا أنذال هنا !» : هكذا بدأت حديثها معي منذ الليلة الأولى. وأضافت : «أنهم لا يوفون بوعودهم. أنا معهم منذ سبعة سنوات ولم أتلق منهم أي مكافأة حتى الآن ! ولم أحصل على أي شيء ! لا شيء ! لم أحصل حتى على بيت!».

«الحذر». قلت لنفسي. لا يجب أن أتورط معها في الحديث. ربما هي تريد جري إلى فخ. لكنها واصلت، بنبرة متواطئة : «علمت أنك الصغيرة الجديدة. هل تعودت على العيش في باب العزيزية؟».

– ليست لديك فكرة كم اشتقت إلى أمي، أجبتها.

– لن يستمر هذا..

– لو أستطيع الاتصال بها على الأقل !

– سوف تعلم قريبا ما تقومين به هنا !

– أليست لديك نصيحة لأتمكن من الاتصال بها ؟.

– إن كنت سأقدم لك نصيحة، أقول لك لا تبقي هنا!

– لكنني أسيرة! لا خيار لدي !

– أنا، سأبقى يومين، أضاجع القذافي، أحصل على بعض المال وأرحل.

- لا أريد هذا أيضا ! لا أريد العيش بهذه الطريقة !

- تريدين الخروج من هنا ؟ إذن قومي بدور المزعجة! قاومي، احدثي ضجة، واخلقي المشاكل.

- سيقتلونني ! أعلم أنهم يجرؤون على ذلك ! عندما قاومت، عنفني واغتصبني.

- لتعلمي إذن أنه يحب العنيدين.

وضعت نجاح شريطا إباحيا، وأخذت تشاهده وهي ممـددة على السـرير، تطقطق في فمها حبات فستق. وقالت لي لتشجعني على مشاركتها المشاهدة : «أتعلمين، علينا دائما أن نتعلم!».. ارتبكت. أتعلّم ؟ ألم تكن تنصحني بالمقاومة منذ هنيهة ؟ ولهذا فضلت النوم.

في الليلة التالية تمت دعوتنا نحن الاثنتين للذهاب إلى غرفة العقيد. وبدأت نجاح تستشعر النشوة لمجرد فكرة ملاقاته. واقترحت عليّ قبل أن نصعد : «لماذا لا تضعين قميص نوم أسود؟» ولما فتحنا الباب كان القذافي عاريا تماما في انتظارنا. فسارعت إليه نجاح كاللبوة تقبله في لهفة وهي تمتم : «أوه يا حبيبي ! كم اشتقت إليك!»...أعجبه ذلك وأخذ يقول لها : «تعالي يا قحبة!». والتفت نحوي وهو يصرخ غاضبا : «ما هذا اللون؟... إني أكرهه؟ أغربي عن وجهي. اذهبي وغيريه !». أسرعت هابطة عبر السلالم، ومررت على آمال في غرفتها، لأطلب منها سيجارة. ولما وصلت إلى غرفتي قمت بتدخينها. كانت تلك أوّل سيجارة باختيـاري، وأول مرة أشعر فيها بالحـاجة إلى التدخين.

لكن سالمة لم تترك لي الوقت. وجاءت مسرعة تقول لي: «ماذا تفعلين ؟ سيدك ينتظرك!». هكذا أعادتني إلى الغرفة لأجد نجاح منهمكة في تطبيق مشاهد الفيلم الإباحي مع القذافي. والذي قال لي : «ضعي الشريط وارقصي!». وما أن هممت بالرقص حتى قفز من السرير. ونزع عني قميصي. وطرحني أرضا وقام بمضاجعتي بوحشية. ثم نهرني قائلا «اذهبي!». وأشار لي بالخروج ملوحا بيده. فخرجت من الغرفة منكسرة وأنا أتحسس الكدمات التي كانت تملأ جسدي.

وعندما عادت نجاح بدورها إلى الغرفة، سألتها لماذا اقترحت علي لونا يكرهه. أجابتني دون أن تنظر إلي: «غريب. في العادة يحب اللون الأسود. لكن ربما لم يعجبه وأنت ترتدينه... ولكن. أليس هذا ما كنت تريدين في داخلك؟ خدعة لتحويل وجهته عنك؟». فجأة سألت نفسي : هل يمكن أن توجد غيرة بين فتيات القذافي ؟ إنها فكرة مجنونة. من طرفي لم يكن يهمني أمره على الإطلاق. ويسعدني أن يحتفظن به !

استيقظت في صبيحة اليوم التالي وقد انتابتني رغبة عارمة في تدخين سيجارة. وعندما وجدت آمال تحتسي القهوة مع فتاة أخرى. طلبت منها واحدة. لكنها أخذت هاتفها المحمول وأخذت تأمر شخصا على الطرف الآخر: «هل يمكن أن تأتي لنا بسجائر مارلبورو؟». لم أصدق ما أرى. هل المسألة بهذه السهولة؟. وبالفعل. كان يكفي الاتصال بالسائق الذي يذهب ويشتري للفتيات ما يطلبن. ثم يأتي بالمشتريات. ويذهب أحد العمال إلى المرآب لجلبها.

غير أن آمال قالت لي ناصحة : «هذا ليس جيدا بالنسبة لعمرك. لا تسقطي في فخ السيجارة».

- لكنك تدخنين أنت أيضا ! أنت وأنا نعيش الحياة نفسها !

غير أنها أكتفت بأن حدجتني بنظرة عميقة، وهي ترسم شبح ابتسامة حزينة.

*

كان شهر رمضان المبارك على الأبواب، عندما علمت ذات صباح، أن جميع من في المنزل سينتقلون إلى سرت. كان علي أن أرتدي الزي العسكري، والصعود في إحدى سيارات القافلة. وفي غضون لحظات، بدأت أستشعر بلسعات الشمس على وجهي. ولأنني لم أغادر القبو منذ أسابيع، كنت جد سعيدة لرؤية السماء. عند وصولنا إلى كتيبة الساعدي، اقتربت مني مبروكة قائلة : «أنت تطلبين رؤية والدتك. حسنا سوف ترينها». توقفت دقات قلبي. كنت أفكر في أمي منذ تم اختطافي. أحلم بالاختفاء بين أحضانها. في الليل، في النهار، تخيلت ما سأقوله لها. تتعثر الكلمات..... كنت أعيد صياغة حكايتي وأحاول طمأنة نفسي لأنها ستتفهم دون أن أقدم لها التفاصيل. يا إلهي! أن أرى والدي، إخوتي، أختي الصغيرة نورة...

توقفت السيارة أمام المبنى الأبيض لبيتنا. ورافقتني الثلاثي المعتاد: مبروكة، وسالمة، وفائزة إلى مدخل العمارة. فهرعت مسرعة إلى السلالم. كانت والدتي تنتظرني في بيتنا بالطابق الثاني، بينما جميع أخوتي كانوا في المدرسة.

تعانقنا بقوة وبكينا كثيرا. كانت تقبلني، وتنظر إلي، وتضحك، تحرك رأسها، تمسح دموعها. «أوه يا ثريا ! حطمت قلبي، حدثيني ! حدثيني !». لم أكن أستطيع. كنت أشير برأسي لأقول لها لا. كانت تضمني بقوة إلى صدرها. ثم همست في أذني بحنان : «لقد شرحت لي فائزة : إن القذافي قد قام بفض بكارتك. أوه يا ابنتي الصغيرة ! لم يكن الوقت قد حان بعد لتصبحي امرأة...»

عندها سمعت فائزة، التي كانت تصعد السلالم، تردد بصوتها القوي : «هذا يكفي!، هيا انزلي!». تمسكت أمي بي، وهي تولول : «اتركوا لي صغيرتي!». لكن الأخرى كانت قد وصلت. ورفضت بحزم. «ليكن الله في عوننا – رددت أمي – ماذا عساي أن أقول لإخوتك ؟ الجميع يسأل أين أنت. أجبتهم أنك في تونس. ذهبت لزيارة العائلة أو أنك في طرابلس مع والدك. أصبحت أكذب على الجميع. كيف أفعل يا ثريا ؟ إلى ماذا سيؤول أمرك ؟». انتزعتني فائزة من بين يديها، بينما أخذت أمي تتوسل إليها باكية : «متى تعيدونها إلي؟» وردت فائزة في لامبالاة : «يوما ما !». ثم عدنا إلى الكتيبة.

وجدت فتحية في انتظاري. وقالت لي على الفور: «سيدك يطلبك». لما دخلت تلك الغرفة الرملية اللون حيث قام القذافي باغتصابي منذ أسابيع. وجدت غالينا وأربع أوكرانيات أخريات. غالينا كانت تقوم بتمسيد القذافي، والأخريات جالسات حوله. انتظرت بجانب الباب. كنت أرتدي الزي العسكري، مضطربة بسبب زيارتي للوالدة. وكان يعتريني إحساس جارف بالتقزز من هذا الوحش

الذي يعتقد نفسه في مصاف الآلهة. والذي تنبعث منه رائحة مقرفة. خليط من العرق والثوم. والذي لا يفكر إلا في المضاجعة. وما أن خرجت الممرضات. حتى وجه إلي الأمر : «انزعي ملابسك!». كنت أود أن أصرخ في وجهه: «أيها الحقير!». ثم أرحل وأغلق الباب خلفي. لكنني استجبت لأوامره. يائسة. «اصعدي فوقي!». قال لي. ثم واصل متسائلا في لهجة فميئة :«لقد تعلمت دروسك. أليس كذلك؟». وهو يقصد تعلم ممارسة الجنس عبر الأفلام. وواصل: «وكفي عن الأكل! لقد ازداد وزنك. لا أريد هذا». وعندما أنهى غرضه مني. جذبني بقسوة نحو الجاكوزي. ليمارس معي فعلا حيوانيا لم يفعله معي من قبل. حيث جعلني أتسلق إلى حافة الدوش ؛ وتبول فوقي.

كنت أتقاسم في كتيبة الساعدي غرفتي مع فريدة. الفتاة نفسها التي شاركتنها الغرفة أثناء إقامتي الأولى في الكتيبة. كانت ممددة. شاحبة اللون وهي تتقيأ بألم. فسألتها عما بها. وكانت إجابتها صادمة : «أنا مصابة بالالتهاب الكبدي».

– الالتهاب الكبدي ؟ كنت أعتقد أن القائد مصاب بالرهاب من المرض!.

– نعم. لكن يبدو أن هذا المرض لا ينتقل عن طريق العلاقات الجنسية.

ينتقل عن طريق ماذا إذن ؟ بدأت أشعر بالخوف. وفي الليلة نفسها. نادانا القذافي نحن الاثنتان. كان عاريا. وينتظر على جمر. خاطب فريدة : «تعالي. يا قحبة». اغتنمت الفرصة. وسألته في شيء من التوسل : «هل

يمكنني الانصراف؟» غير أنه رمقني بنظرة مجنونة، وصاح في وجهي «ارقصي!». كنت أقول في نفسي : «هل سيضاجع مريضة ثم يضاجعني؟!»، وهذا ما قام به، بالفعل طالبا من فريدة أن ترقص بدورها.

بقينا أياما ثلاثة في مدينة سرت، ناداني خلالها مرات عديدة، أحيانا مع اثنتين أو ثلاث أو أربع فتيات في الوقت ذاته. كنا لا نتبادل الأحاديث. كل واحدة وقصتها، كل واحدة ومأساتها.

*

أخيرا حل شهر رمضان، بالنسبة لعائلتي هو شهر مقدس، كانت والدتي حازمة في هذا الأمر. لم يكن مسموحا لنا بالأكل من شروق الشمس إلى غروبها. كنا نلتزم بالصلاة طيلة الشهر على الأقل، وفي المساء نحتفل في جلسات جماعية حول مائدة شهية، نفكر فيها طوال اليوم قبل أن تجتمع العائلة. وأذكر أن والدتي قد اصطحبتنا أكثر من مرة في رمضان، إلى المغرب وإلى تونس : لكي نعيش فرحة هذا الشهر مع الأقارب. كان الأمر رائعا، ومنذ صغري، لم أفطر يوما واحدا في شهر رمضان، ولم أكن أتصور أنه بالإمكان أن يجرؤ أحد على ذلك. غير أنه، وفي ليلة دخول الشهر، والتي نقضيها في العادة في الاستعداد الروحي لاستقبال أيامه المباركة، ومباشرة الإمساك عن الشهوات والرغبات، اختار القذافي أن يغوص بي في بحر المحرمات، وتعامل معي في هذه الليلة بالذات بشراسة وعنف حيواني، وقد استمر ذلك لساعات طويلة ؛ وحتى بعد مطلع الفجر، وأذكر

، ليس فقط أني كنت منهكة ومنهارة، ولكن الشعور
معصية بالذات، كان يعصف بي في ضراوة. فأخذت
سل إليه: «حرام إنه رمضان !».

في واقع الأمر، وما عدى الأوامر والشتائم، لم يتوجه
يوما بالحديث. غير أنه هذه المرة، تنازل وأجابني بين
يرين : «الأكل فقط حرام». شعرت باللعنة. يا الله! هو
يحترم أي شيء إذا، حتى الله ! ولا يضيره أن ينتهك
يع المحرمات، أن يتحدى الدين !

نزلت إلى غرفتي، مضطربة. كنت بحاجة لأن أتحدث
خص ما. آمال أو أية فتاة أخرى. كنت تحت تأثير
سدمة. لكنني لم أجد أحدا.

كنت ممنوعة من التجوال داخل أروقة ودهاليز القبو
ضاءة بالمصابيح البيضاء. ويقتصر محيطي على غرفتي،
رفته، والمطبخ، والكافيتيريا. وربما قاعات الاستقبال
ريبة من مكتبه والقاعة الصغيرة المخصصة لرياضته
خصية. ليس أكثر. ولكن من غرفتي ذاتها كنت قادرة
ن تبين الأصوات الخارجية. وتناهى إلى سمعي أصوات
ب فوق غرفتي، وفهمت إن آمالا، وفتيات أخريات
تن عند القائد. في رمضان !

ما التقيت بهن على الإفطار، أبديت لهن دهشتي. ما
له خطير جدا أليس كذلك ؟ أخذن في القهقهة ! لقد
ر لهن أنه ما دام لا ينتشي ولا يقوم بالقذف، لا يكون
أرتكب معصية بالنسبة إلى الله ... كنت مندهشة
هولة. الأمر الذي زاد في سخريتهن وضحكهن. «إنه

رمضان على طريقة القذافي» ؛ ختمت إحدى الفتيات
كان يأمرني بالصعود إلى غرفته طوال شهر رمضان، في
وقت من الليل أو النهار. كان يدخن، ويضاجع، ويعنف
مزمجرا. شيئا فشيئا، سمحت لنفسي بالأكل اثناء نهار
رمضان دون أي اعتبار للوقت. ما هي الفائدة من احترام
القواعد في عالم لا يوجد فيه سياق ولا قانون ولا منطق
انتهي بي الأمر للتساؤل حول جدوى الأهمية التي توليها
أمي لشهر رمضان.

في ليلة السابع والعشرين من الشهر، أي الليلة المفترض
أنها «ليلة القدر»، التي أنزل فيها القرآن على الرسول، والتي
تكون المناسبة لاحتفالات دينية كبيرة ؛ علمت أن القذافي
يعد لحفل استقبال لمجموعة من الضيوف المشهورين في
قاعات الاستقبال والخيمة الموجودة بالجوار.

لذلك استدعتنا مبروكة جميعا، لنضع الحلويات
والفاكهة في الأطباق ونقوم بالخدمة. كنت أرتدي لباسا
رياضيا أسودا بشريط أحمر على الجانب. كنت أذكر أن
شعري كان يتدلى إلى حزامي، لم أمسكه كما كنت أفعل
في العادة. جاء الضيوف بكثافة وامتلأت قاعات الاستقبال
الثلاثة. العديد من النساء الأفارقة. مذهلات الجمال،
رجال بربطات عنق، عسكريون. للأسف لم أتعرف على
أي شخص. واحد فقط ! نوري المسماري، مدير المراسم،
بشعره ولحيته ذات اللون الأشقر الغريب، وتلك العين
الزجاجية خلف نظاراته الشفافة. كنت رأيته من قبل في
التلفزيون. ورؤيته يتنقل بين الضيوف بخفة أعطاني شعورا
غريبا. قدم رجل آخر، أسمه سعد الفلاح، والذي كان يبدو

أنه يعرف الفتيات بشكل شخصي. لكل واحدة ظرفا به 500 دينار، مصروف جيب قالوا لي. تقاطعت نظراتنا في العديد من المرات وشعرت أنه لاحظ وجودي. أقبل نحوي مبتسما وقال : «آه ! هذه إذن الصغيرة الجديدة ! كم هي لطيفة!» كان يضحك وهو يقرص خدي، بروح نصفها معاكسة ونصفها أبوة. المشهد لم يفلت عن أعين مبروكة التي نادته على الفور : «سعد، تعال لنرى !». أمال التي كانت بجانبي همست في أذني : «إنها رأت ما حدث! عودي بسرعة إلى غرفتك. أؤكد لك أن الأمر خطير».

ذهبت مسرعة. كنت قلقة قليلا. ساعة أو ساعتين إثر ذلك، فتحت مبروكة باب غرفتي قائلة : «اصعدي». وقفت عند باب غرفته، ومبروكة خلفي.

كان بصدد وضع لباس رياضي أحمر. فحدشني بنظرة ملؤها الريبة. ثم صرخ في وجهي : «تعالي هنا، يا ساقطة... إذن، تستمتعين بحل شعرك ونشفه للجميع ؟ تلعبين دور الجميلة والمغرية ؟ هذا طبيعي : أليست والدتك تـونسية!»

- أقسم أنني لم أفعل شيئا سيدي.

- لم تفعلي أي شيء، يا عاهرة ؟ وتتجرئين على قول أنك لم تفعلي أي شيء ؟

- لا شيء ! ماذا فعلت ؟

- شيئا لن تجـرئي على فعله بعد اليـوم. أينها العاهرة !».

هناك سحبني من شعري بحركة قوية، وأجبرني على الركوع، وأمر مبروكة : «ناوليني سكينا !» ظننت أنه سيذبحني. كانت عيناه تتطاير شررا. أعلم أنه يستطيع فعل أي شيء. مدّت له مبروكة شفرة. التقطها منها وهو ممسك بشعري بقبضة حديدية. وأخذ يقصّ بجنون حزمة الشعر بضربات قوية ومرعبة..... وهو يزمجر : «تعتقدين أنك تستطيعين اللعب بهذا ؟ إذن انتهى الأمر !»

كانت ظفائر شعري الأسود تتساقط إلى جانبي. وهو يواصل القص والقطع. ثم التفت بعنف إلى مبروكة وهو يقول لها : «واصلي!». كنت أبكي، مرعوبة، فاقدة القدرة على السيطرة على حركات جسمي. خِلْت في كل مرة يقوم بتحريك الشفرة أنه سيقطع عنقي، أو سيثقب رأسي. كنت جاثمة على الأرض كحيوان قابل للذبح.

هكذا لم يبق من شعري إلا بعض الجدائل التي تلامس كتفي، وأخرى أقصر، وصرت أشعر وكأنه لم يعد هناك أي شيء على رأسي. كانت مذبحة حقيقية. «كم أصبحت قبيحة!» : قالت لي فريدة لما اعترضتني بعد ذلك. دون أن تُكترث بأسباب تلك المجزرة. لم ألتق بالقائد لعدة أيام، لكن رأيت زوجته. كان ذلك بمناسبة عيد الفطر، النهاية الرسمية لشهر رمضان. كنت أعيش هذا في السابق في حفل عائلي. نباشره بصلاة العيد في الصباح. وبعد العودة من المسجد نقوم بزيارة الأهل والأصدقاء. لعله أجمل أيام السنة بالنسبة لي لما كنت صغيرة. لكن ما الذي يمكن أن ننتظره، أو بالأحرى ما الذي يمكن أن نخشاه من العيد في باب العزيزية ؟ لم تكن لدي أي فكرة. في الصباح جمعتنا

مبروكة : «بسرعة. ارتدوا ملابسكم بشكل جيد ! زوجة القائد قادمة لزيارتنا». «صفية ؟ الزوجة ؟». كنت قد رأيت صورتها في الماضي لكنني لم ألتقي بها على الإطلاق منذ اختطافي. أظن أني سمعت إن لها بيتها الخاص هنا في فضاء باب العزيزية. لكن القذافي لا ينام هناك أبدا. وأنهما لا يلتقيان إلا نادرا خلال بعض المناسبات العامة.

بال سخرية القدر. القذافي «عدو تعدد الزوجات». يعاشر العديد من النساء، ما عدى زوجته. علمت أنه يلتقي ببناته كل يوم جمعة. في بيته بالمزرعة في المربع بطريق المطار. الإعلان عن قدوم زوجة القائد سبب صدمة وكهربة صغيرة للأجواء ؛ حيث يجب على «الجواري» أن يتحولن إلى خادمات ؛ يحسن تلبية جميع رغبات السادة !. دخلت صفية يسبقها عدد كبير من الزوار. كانت تبدو قوية ومتغطرسة. اتجهت نحو غرفة العقيد. كنت في المطبخ مع بقية الفتيات. نقوم بغسل الأواني وتنظيف الفرن وكنس الأرضية. كل منا كانت سندرلا جديدة. وحالما رحلت صفية أعلنت مبروكة : « كل شيء يعود إلى طبيعته !».

فعلا عاد كل شيء إلى طبيعته. استدعاني السيد على الفور «ارقصي!» كما استدعى كذلك عدنان. حارس سابق في القوات الخاصة. متزوج (من إحدى عشيقات القذافي شبه الرسميات). والد لطفلين. والذي كان يُكرِهه على الجماع بشكل متكرر. وقد مارس معه اللواط أمامي. ثم صاح بي : «جاء دورك. يا عاهرة !».

5

الحريم

وأخيرا. سافر إلى التشاد في رحلة ستدوم ستة أيام.
انت مبروكة وسالمة وفائزة وعدد كبير من الفتيات ضمن
أمتعة. قلت في نفسي ربما تكون فرصة لزيارة والدني.
قمت بمحاولة مع مبروكة. ورجوتها أن تسمح لي بالذهاب
ى عائلتي أثناء فترة غيابهم. لكن إجابتها كانت صارمة:
مستحيل ! يجب أن تبقي في غرفتك، وتكوني على أتم
استعداد للالتحاق بنا في أية لحظة قد يطلبك فيها
يدك. عندها سأرسل طائرة لنأتي بك إليه». طائرة ...

قررت أن أريح جسدي. جسد تملؤه الكدمات والنتوءات
تي لم تكن تجد وقتا لتندمل أبدا. جسد متعب، لا يعرف
ير المعاناة. حتى أنني صرت أكرهه..... صرت أكره جسدي.
كذا قضيت هذا الوقت أدخن، وأسكر. وأتمدد ثملة على
سرير، أشاهد الأغاني في التلفزيون الصغير بغرفتي. أظن
ي لم أكن أفكر في أي شيء. غير أن مفاجأة صغيرة

كانت بانتظاري عشية عودة الزمرة من السفر. سائق من باب العزيزية تلقّى الأوامر بأن يأخذني إلى المدينة لمدة نصف ساعة. لأنفق الخمسمائة دينار التي تحصلت عليها في شهر رمضان. ياله من حدث رائع. أن أخرج من ذلك السجن وأعانق ولو قليلا نسمات الربيع التي كانت تهب على طرابلس. ممتاز. وكان بصري قد تأقلم مع عتمة القبو حتى أنني عجزت عن فتح عيني في ضوء النهار. لقد كنت كالأعمى الذي واجه لأول مرة أشعة الشمس. فالطابق السفلي من مبنى القيادة لا نوافذ له، تسكنه الرطوبة والظلام، وتفوح من أرجائه رائحة التعفن. حتى أن مبروكة كانت تلجأ لحرق البخور كل مرة في الممرات والحجرات للتغلب على تلك الروائح الكريهة.

أخذني السائق إلى محلات راقية. اشتريت ملابس رياضية، وأحذية وقميصا. وكنت محتارة بحق أي شيئ أختار، أو ماذا أشتري ؟ فلم يسبق لي أن تصرفت في مثل هذا المبلغ. كنت مشوشة. ثم ما هو اللباس المناسب ؟ بين غرفتي وغرفته. لم تكن لدي تقريبا أية حاجة لملابس، وبالتالي لم تكن لدي أدنى فكرة. كم كنت غبية، فعندما أعيد التفكير في الأمر اليوم، أقول بأنه كان بإمكاني شراء كتاب، أو أي شيء يجعلني أحلم وأهرب وأتعلم الحياة. كان بإمكاني التفكير في قلم وكنّش، لأرسم وأكتب. حيث لم يكن مسموحا بأي من هذه النشاطات في باب العزيزية. في الواقع آمال وحدها من كانت تملك في غرفتها بعض الروايات الرومانسية. وكذلك قصة حياة مارلين منورو، وهي القصة التي طالما زركشت خيالي، وكنت أود لو أتمكن من

قرائتها في كتاب، لكن آمال رفضت إعارتي إياه. إي أنني في موعدي الأول هذا مع السوق والحياة، لم أفكر في شراء أي شيء ثقافي أو مفيد. نظرت حولي بجشع واضطراب. كانت دمائي تغلي. ألم يكن الوضع يصيب بالدوار ؟ كنت أسيرة أطلق سراحها لدقائق في مدينة تجهلني تماما. يعترضني المارة على الرصيف. لا أتصور أنهم يخمّنون قصتي ؟ يقدّم لي البائع حزمة المشتريات مبتسما وكأنني زبونة عادية. مجموعة صغيرة من تلاميذ المعاهد يتـ امسون إلى جانبي بدون أن يعلموا أنني أنا أيضا كان من المفروض أن أكون مثلهم : لا أفكر إلا في الدراسة والضحك. لأول مرة مبروكة لا تراقبني : السائق كان لطيفا : لكنني أشعر بأنني في مصيدة. الفرار لم يكن خيارا صائبا. بدت لي الثلاثون دقيقة من الحرية المزيفة وكأنها ثلاثون ثانية.

في اليوم التالي، عادت زمرة القذافي إلى باب العزيزية، حيث أخذ يصلني ضجيج الأصوات في الطابق السفلي، أصوات خطوات وأبواب وصياح. حرصت على عدم الخروج من غرفتي، لكن مبروكة ظهرت أمامي بسرعة وأمرتني : «إلى الأعلى !» مشيرة لي بذقنها. لم تعد بحاجة لأن تقول : «عليك الصعود». الحد الأدنى من الكلمات. والحد الأقصى من الاحتقار. نعم، كنت أعامل كجارية. وهذا الإلزام البغيض بالصعود إلى غرفة السيد أحدث في جميع جسدي تيارا من التوتر والكهرباء.

ما كاد يراني حتى صاح قائلا «آه عزيزتي! تعالي !»، ثم هرع إلي صارخا مزمجرا «قحبة». لم أكن بالنسبة له أكثر من دمية بإمكانه اللعب بها، وضربها. لم أعد إنسانا.

دخلت فتحية وقاطعته قائلة : «سيدي، نحتاجك لأ
هام»: فأبعدني مصفرا بين شفتيه : «أغربي !» : فأسرع
مهرولة نحو غرفتي حيث الرطوبة. في ذلك اليوم ولأو
مرة، شاهدت فلما إباحيا، وتساءلت عن موضوع الجنس
القليل الذي كنت أعرفه لم يكن سوى العنف والرعب
والخضوع والوحشية والسادية. كان عبارة عن حص
للتعذيب، مع نفس الجلاد. لا أكاد أتصور شيئا آخر. ولكن
الممثلات في الفيديو لم يكن يلعبن دور الجارية أو الضحية
إنهن يضعن مخططات للقيام بالعلاقة الجنسية. إنهن
يشعرن بنفس اللذة التي يشعر بها شريكهن. كان الأمر
غريبا ومحيرا.

يومين بعد ذلك، جاءت فائزة إلى غرفتي تحمل معها
ورقة صغيرة. «هذا رقم والدتك، تستطيعين الاتصال
بها من المكتب». قامت أمي برفع السماعة فورا : «أوه
ثريا! كيف حالك يا صغيرتي ؟ يا إلهي، كم أنا سعيدة
لسماع صوتك ! أين أنت ؟ متى أستطيع رؤيتك ؟ هل أنت
بصحة جيدة ؟...» لم يكن مسموحا لي إلا بدقيقة واحدة.
كالمساجين. قالت فائزة : «هذا يكفي !» وقطعت المكالمة
بحركة من إصبعها.

*

في أحد الأيام، حدث شيء غريب، إذ جاءت نجاح، تلك
الشرطية الوقحة التي لا تخجل من أي شيء، لقضاء
يومين في باب العزيزية. كان ذلك يحدث بين الحين والآخر،
ومن جديد، نزلت بغرفتي، وكنت لا أثق بها إلا قليلا بسبب

تصريحاتها ومكرها. لكن وقاحتها تروق لي. وقالت لي، «عندي خطة لإخراجك من باب العزيزية. أظن أن ذلك سيريحك قليلا!».

- أبدا. يكفي قليلا من الخبث. هل ترغبين في القيام بجولة صغيرة بصحبتي، بكل حرية ؟

- لن يتركونني أخرج من هنا أبدا !

- كم أنت متشائمة ! يكفي أن تتظاهري بالمرض، وسأتولى البقية.

- هذا غير ممكن ! لو كنت حقيقة مريضة فهناك الممرضات الأوكرانيات لعلاجي.

- اتركيني أدبّر الأمر ! سوف أقوم برسم سيناريو، وعليك فقط الانقياد.

وذهبت بالفعل لرؤية مبروكة، لا أعلم ما الذي قالته لها، لكنها عادت لتعلمني أنها قد أعطتها الضوء الأخضر. كان الأمر مدهشا. وقد أخذنا السائق عمار إلى خارج أسوار باب العزيزية. وكنت أكاد لا أصدق عيناي : «ماذا قلت لمبروكة؟». سألتها كطفلة متبهرة.

- اصمتي ! سنذهب أولا إلى بيتنا، ثم سنذهب لزيارة شخص.

- هذا جنون ! كيف قمت بهذا ؟

- حذار، ليس أسمي نجاح من فراغ !

- ولكن ليست لدي ملابس !

- لا تقلقي سنتقاسم ثيابي !

هكذا ذهبنا بالفعل إلى بيتها. حيث غيرنا ملاب
وأخذتنا أختها بالسيارة إلى منزل جميل جدا في عين ز
وهو حي على تخوم طرابلس. وكان صاحب البيت س
باستقبالنا. قالت له نجاح : «هذه ثريا التي حدثتك عن
ألقى الرجل علي نظرة متفحصة. وتظاهر بالاهتمام
ثم قال : «هيا أخبريني ! هل يؤذيك ذاك الكلب؟»

في الواقع كنت قد تجمدت لهول السؤال. وسألت نفس
من يكون هذا الشخص الذي يجرؤ على وصف القذ
بالكلب؟ وهل يمكنني أن أثق به ؟ ولأن مشاعر من الري
عمت خاطري تجاهه، فضلت أن لا أعطيه أي جواب
وفجأة رنّ محمول نجاح. لكنها سرعان ما أعادت الهاتف
إلى حقيبتها وهي تقول لي رافعة عينيها إلى السماء
تأفف: «إنها مبروكة». فقلت لها في تعجب: «ألن تجيبي؟»
لم تردّ على سؤالي. واكتفت بمد كأسها حيث سكب لها
الرجل كثيرا من الويسكي. كنت أهذي... في هذا البلد
الذي يمنعون فيه الكحول باسم الدين وباسم القانون. بعض
من الناس يشربون بجرأة كبيرة ؟ وينتقدون القذافي الذي هو
بدوره يشرب بدون انقطاع ؟ قدّم لي الرجل كأسا. رفضي
جعله يشعر بالاستياء. فأصر : «اشربي. هيا أشربي ! أنت
حرة هنا!». ما يمكن أن أؤكد بشأنه في هذا الخصوص إن
نجاح وشقيقتها لم تكن تنتظران الدعوة لإحتساء الكحول.
وأخذن في الرقص، معلنات انطلاق الحفلة. وقد أسرفنا في
الشرب، والضحك... الأعين مغلقة والأجساد تتموّج. كان
الرجل ينظر إليهن بشهوة. قدم رجل آخر. قام بمعاينتي،
وابتسم. في تلك اللحظة شعرت بالفخ، لكن نجاح لم تكن

موجودة لتقوم بنجدتي. كانت تشرب دون توقف. فأشرت لها أنني متعبة. لكن وضعها لم يكن يسمح بأن تعود بي للبيت. فأقترحوا على أن أصعد للنوم بأحد غرف البيت. غير أنني لم أكن مطمئنة لما يدور. فبقيت حذرة طوال الوقت. ثم بسرعة سمعت نجاح تصعد إلى الغرفة المجاورة مع الرجلين. بينما كان هاتفها يرن في الفراغ.

في الــواقع هم تــركوني وشأني. ومع ذلك استيقظت مرعوبة. ذهبت لإيقــاظ نجــاح. كانت فوق السحاب. في غيبوبة لا تتذكر أي شيء. رن هاتفها. وصاحت مبروكة من الجهة الأخرى : «السائق يبحث عنكما منذ البارحة. سترين ماذا سيكون عقابكما عند السيد!». أصيبت نجاح الذعر. لقد كذبت علي. وخدعتني. قادتني إلى فخ جبان تقدمني غنيمة للرجال. كنت مشمئزة. فأن يتم اختطافي ن قبل القذافي لا يعني بالضرورة أنني عاهرة.

كانت العودة إلى بــاب العزيزية جد عنيفة. ولم تكن بروكة موجودة عند وصولنا. لكن سالمة أمرتنا أن نصعد ن غرفة القائد. كان يزبد من الغضب. صفع نجاح صفعة لم وصاح بوجهها، «الآن تخرجين. لا أريد رؤيتك مطلقا!». ا أنا. فألقاني على السرير وصب جام غضبه على سدي. وكان يتمتم بين شفتيه : «كل النساء عاهرات!!». ضاف: «عائشة أيضا كانت عاهرة محترمة !». أظن أنه ن يقصد والدته.

مرّ شهر كامل بعد هذه الحادثة دون أن يلمسني. خلال ا الشهر شهد قبو القيادة قدوم فتاتين جديدتين من

شرق البلاد: واحدة من مدينة البيضاء وكان عمرها ثـ
عشر عاما، والأخرى من مدينة درنة وكان عمرها خمـ
عشر. وعندما تأملتهما أثناء صعودهما إلى الغرفة، رأيـ
كم كانتا جميلتان، وبنفس هيئة البراءة والحيرة التي كـ
عليها منذ سنة خلت. وكنت أعلم جيدا ماذا كان ينتظرهـ
ولكن للأسف لم يكن بمقدوري الحديث معهما أو توجيه أ
نصيحة لهما. وقد سألتني آمال بخصوصهما: «هل رأيـ
الجديدات؟»... مع ذلك لم تبقيا طويلا بباب للعزيز
وعادتا بسرعة إلى ديارهما. لقد كان القذافي بحاجة لعد
جديد من العذروات كل يوم، يجربهن ثم يرميهن أو يقو
بـ«رسكلتهن». لا أدري ماذا يقصدون بهذا.

*

مرت الأيام، وتتالت الفصول، والأعياد الوطنية والدينية،
وأشهر رمضان. وصرت أفقد شيئا فشيئا الإحساس بمرور
الزمن، حيث إن الإضاءة هي ذاتها سواء في الليل، أو النهار،
في الطابق السفلي. وقد اختصرت حياتي في ذاك المحيط
الضيق، إلى مجرد جارية مهمتها أشباع شهوات العقيد
ورغباته.

في باب العزيزة لم تعد الفتيات تهتم بذكر أسمه. فعندما
كنا نتحدث عنه، لا نعطيه إسما ولا لقبا. نقول فقط «هو»
أو«ذاك»، وكان هذا كان كافيا. فقد كان يشكل المحور
الذي تدور حوله حياتنا، ولا أحد يشك في ذلك.

لم أكن أعـــرف أي شيء عـــن كـــيفية تسيـــير الامور
في البلاد، أو عن أي شيء قد يعصف بالعالم. وقد يتسنى لي

أن أسمع في بعض الأحيان بعض الهمس بشأن انعقاد قمة أفريقية، أو زيارة أحد الرؤساء المهمين. وهي اللقاءات التي كانت تتم تحت الخيمة الرسمية بالقرب من المقر، والتي كان يقصدها «هو» بسيارة الغولف الصغيرة. وكان العقيد القذافي يحتاج قبل الحوارات واللقاءات المهمة أو الخطب الشعبية التي يخوضها، لأن يدخن الماريخوانا، أو أن يشم الكوكايين. حيث كان في الغالب في مثل هذه المناسبات تحت تأثير المخدرات. على أن الكثير من الاحتفاليات، أو حفلات الاستقبال، كانت تتم في صالونات المنزل، والتي كانت تجذب العديد من كبار رموز السلطة، ومن الوفود الأجنبية. وكنا نحن نستطلع بفضول من يكون حاضرا من النساء، لأننا نعرف إن ما كان يهم العقيد هن النساء بالدرجة الأولى.

وكانت مهمة مبروكة بالطبع هي جذبهن نحو غرفته. طالبـات، وفنـانات، وصحـافيات، وعارضات أزياء، بنات وزوجات شخصيات بارزة، من ضباط الجيش ومن رؤساء الدول. وعلى قدر أهمية ومكانة الآباء والأزواج، تكون قيمة الهدايا والعطايا. ثمة غرفة صغيرة ملحقة بمكتب القذافي، يمكن أن يصفها المرء بمغارة «علي بابا» : حيث تخزن مبروكة الهدايا.

وقد لمحت في أحـد المـرات ما كـان بداخلهـا : من حقائب مليئة بحزم الدولارات واليورو، وعلب المصوغات الذهبية، وعقود الماس، وقلائد من الذهب تُهدى عادة في مناسبات الأعراس. وتخضع أغلب النساء اللاتي يدخلن مقابلة العقيد لاختبارات فحص الدم، والتي تقوم بها

الممرضات الأوكرانيات بشكل سري. في الصالون الص
حيث المقاعد الحمراء. قبالة المكتب يجلس الحرس. ر
هناك زوجات رؤساء دول تلذن بالفرار. الله أعلم.
كان مسليا مشاهدتهن وهن يقصدن غرفة العقيد في أبه
هيئة، وحقائب الماركات الفاخرة في أيديهن. ليخرجن ب
ذلك وقد طفح أحمر شفاههن وتدلت جدائل شعرهن.

لقد لمحت خلال إقامتي بباب العزيزة العديد م
زوجات رؤساء دول إفريقية. لا أعرف أسماءهن، يعبرن م
أمامي. وكذلك سيسيليا ساركوزي زوجة الرئيس الفرنس
كانت جميلة، ومتكبرة، وفي مدينة سرت لمحت طوني بلي
والذي قال لنا محييا : «أهلا يا فتيات». وهو يلوح لنا
ود وابتسام.

انطلاقا من مدينة سرت، نذهب أحيانا إلى الصحرا
حيث يفضل العقيد نصب خيمته، محاطا بقطعان الإبل
وسط ذلك الفضاء الشاسع. حيث كان يجلس لشرب
الشاي، ويثرثر لساعات طويلة مع شيوخ قبيلته. أو يقرأ أ
ينام في القيلولة. غير أنه لا ينام أبدا في الخيمة أثناء الليل
بل يفضل رفاهة مقطورته. هناك يستدعينا للالتحاق به
وفي الصباح يجبرنا على مصاحبته للصيد. وكنا نرتدي
جميعنا الزي العسكري، وذلك رغم أن العسكرية الوحيدة
التي كانت معنا هي زهرة. والتي كانت وحدها من يشارك
في حراسة العقيد بصورة فعلية. وكانت تحثني، طالما
كنت مرتدية زي الحارسات، أن أتصرف كجندية محترفة.
حتى إنها في إحدى المرات قامت بتدريبي على استعمال
الكلاشنكوف : كيف يتم تفكيكها، وشحنها، وتنظيفها.

بل هي في لحظة من اللحظات، وكان السلاح على كتفي، صرخت في وجهي : «أطلق!»، حيث كانت تريدني أن أقوم باستخدام السلاح بالفعل، لكنني رفضت. ولم أطلق يوما رصاصة واحدة.

من بين الأشياء التي عرفتها عن القذافي نتيجة وجودي معه هو علاقته «بالسحر» وطقوسه. كان ذلك على الأرجح التأثير المباشر لمبروكة. ويقال إن هذا هو سر سيطرتها عليه. فهي تذهب لاستشارة الدجالين والسحرة في جميع أنحاء القارة الإفريقية، وتقوم باصطحاب بعضهم في بعض الأحيان. ورغم إنه لم يكن يتقلد أي تعويذة أو طلسم، إلا أنه كان يدهن جسمه بدهن غريب يجعله لزجا طوال النهار، كما أنه كان يردد تعويذات غير مفهومة، ويضع بقربه منديله الأحمر. وكان أينما ذهب، يأخذ معه فريق الممرضات. غـــالينا، وإيلينـــا، وكلوديـــا... بلباسهن الأبيض والأزرق. ولم تكن الممرضات تسكن المقر معنا، بل في المستشفى الصغير الواقع داخل بباب العزيزية. غير أن الوصـــول إلى حيث هو لا يستغرق منهن أكثر من خمس دقائق. وكن إلى جانب قيامهن باختبارات الدم الضرورية قبل قيام العقيد بالعلاقات الجنسية، يقمن بالسهر على صحته وتغذيته.

ولما تساءلت مرة بشأن مسألة الوقاية من الحمل، أعلموني أن غالينا تقوم بحقنه بأدوية تجعله فاقدا للخصوبة. لذلك لم تـــواجهني مشكلة الإجهـــاض، كما كانت تواجه الأخريات من قبلي. الشيء الآخر هو أننا كنا جميعنا نناديه «بـــابـــا» ؛ حتى وإن كانت تربطه بأغلبنا

علاقات جنسية. وحتى غالينا تذمرت أمامي مرة م
مبالغته في الجنس معها. ولا أظن أن هناك امرأة واحد
من حوله لم يعتليها، ولو لمرة؟

6

إفـــريقيـــا

ذات يوم، صرح لي جلال بأنه قد وقع في غرامي، أو هكذا
ل له. كنت قد لاحظت اهتمامه بي، فهو يكاد لا يرفع
ره عني، وكان وجهه يشرق بالابتسام كلما رآني أدخل
طبخ، بل كان يجرؤ على الهمس في أذني بأعذب كلمات
طراء : الأمر الذي كان يربكني. وكنت في حينها أستشعر
اجة وجودية ملحة للحنان، لأن يهتم أحد بأمري. على
ي لم أكن أعرف أنه شاذ جنسيا : وأن كنت على علم
ن القذافي بفاحشه. ففي منتهى البراءة كنت أتصور أن
ماع الرجال فيما بينهم؛ وإن كان أمرا مريعا، ليس أكثر
ن ممارسة طبيعية. فقد كان للقائد خلان عديدون، بل
و ينام حتى مع كبار ضباط الجيش. أما أنا فقد كنت
حاجة إلى الحنان. ومجرد إبداء رجل رقيق بعض اللطف
حوي، كان يكفي لأن يفجر في أعماقي براكين من المشاعر
جياشة. هكذا تعددت لقاءاتنا. وأخذ جلال يلمس يدي
ندما يمر قربي ويهمس في أذني بأنّه يحبني، بل وأنه يرغب

في الزواج مني. قال لي : «ألم تلاحظي أن بصري لا يفا
وجهك منذ اليوم الأوّل ؟». كلا. لم ألاحظ. قلت له. كنـ
غارقة في وجعي وفي عزلتي. ثمّ إن أي علاقة حميمية كانـ
محرمة في ذلك الفضاء.

هذا العشق الذي ترعرع في صمت بيننا داخل القبـ
دفع جلال لأن يجرؤ ويخبر القذافي برغبته في الزواج مني
الخطوة التي سندفع ثمنها غاليا. حيث سرعان ما دعا
القذافي للقائه. وأخذ يتهكم منا. وقال لنا بنبرة ساخرة «إذًا
هكذا تزعمان أنكما متحابان ؟ وتتجرآن على مصارحتي
أنا سيدكم ! كيف تجرئين على حب شخص آخر أيتها
الساقطة ؟ وأنت أيها الحقير كيف تتجاسر حتى على
النظر إليها؟». كان جلال يعتصر ألما. وكنا ننظر إلى
الأرض بانكسار، لا نجرؤ على الرد : كطفلين مذهولين
وقد أمعن، بعد أن صب جام غضبه علينا. في أن يطردنا
شر طردة من أمامه. وحرم على جلال دخول المنزل لأكثر
من شهرين، رغم أنه واحد من حراسه. أو من فريق خدماته
الخاصة. وذلك حتى يبعده عني.

أما أنا. فستتولى مبروكة أمري، والتي سرعان ما
اندفعت إلى غرفتي وهي تزمجر : «أيتها الساقطة. كيف
تفكرين في الزواج ولم يمر على وجودك بيننا ثلاث سنوات؟
حقيقة. أنت الحمق نفسه!». وجاءت آمال لتلقنني درسا
بدورها : «هم على حق يا صغيرتي ! كيف يمكن أن تحبي
هذا «المخنث» ! انه غير جدير بك». غير أن كل ما قالوه
لم يؤثر في مشاعري قدر أنملة. على العكس لقد زادوا
من انجذابي إليه. كان جلال عذبا ومهذبا. وكان أول

رجل يقول لي إنه يحبني. فما شأني وسخريتهم ؟ أليسوا جميعهم مجانين ؟.

*

بعد عدة أشهر من هذه الحادثة. تناهى إلى علمنا عزم القذافي القيام بجولة موسعة في إفريقيا. وأن الرحلة ستستغرق أسبوعين يزور خلالها خمسة بلدان.... ويلتقي بالعديد من الرؤساء.... أي أن الرهان كان على درجة من الأهمية بالنسبة له فيما يبدو. وهو ما استشعرته من جهتي بالقياس إلى ذلك التوتر الواضح الذي أعترى مبروكة. كل سكان المنزل كانوا مدعوين للسفر. وأرتدت «بنات القذافي». وأنا من ضمنهن. الزي العسكري الجميل. كان يجب أن نرفع رأسه أمام الأفارقة.

في يوم 22 يتيو 2007. على تمام الخامسة فجرا. أخذت مكاني في أحد عــربات موكب ضخم توجه بنا نحو مطار «معيتيقة». ودون الحـــاجة لانتظار. أو أي إجـــراء. وقد رفعت كل الحواجز أمام الركب. وصلنا بالسيارات حتى سلم الطائرة. كان نصف ركاب الطائرة من الفتيات بالزي العسكري على اختلاف الألوان. كانت بعض الفتيات ترتدي «الكاكي» والأخريات البني. وبعضهن يرتدين الأزرق. هذا الأزرق هو لون القوات الخاصة. وهو مخصص للجنديات الحقيقيات. واللاتي كن يتحركن بثبات عسكري. مرفوعات الرأس. وفي نظرات ثلجية. وهن مدربات عسكريا بشكل جيد: أو هذا ما قيل لي على الأقل. كنت من جهتي أرتدي اللون «الكاكي» مثل آمال. لقد كنا «جنديات مزيفات».

ولكننا كنا «جـواري» حقيقيات. في هذا الـخضم، مشا
عذبة من السرور غمرتني دون سابق إنذار. لقد لمح
جلال جالسا في آخر الطائرة. أما القذافي فقد است
طائرة أخرى.

وكـان في انتظار العقيد في «بـاماكـو»، عاصمة مال
استقبـالا خرافيـا ! في الواقع ما كان لخيالي القدرة عل
تصور هكذا ترحيب. حيث فُرش له البساط الأحمر، تبخ
فوقه بكسوته البيضاء، والتي طُرز على صدرها خارط
خضراء لإفريقيا. بينما كان الرئيس المالي، والوزراء، وكب
الرّسميين يتنافسون على تقديم آيات التقدير لـ«مل
ملوك إفريقيا». وفي أفق المكـان تجمهرت حشود م
السكان في فرحة عـارمة، أقـرب لحالة «النشوة
وهم يـرقصون ويغنـون، ويهتفـون : «مرحبا بك يـ
معمـر».

كان هناك العديد من الفرق الفلكلورية التي تتافس
على تقديم العروض التقليدية.... الكل في حالة من النشو
والترنح. حتى أنني كنت عاجزة عن تصديق ما أرى أ
ما أسمع. وبسرعة، أخذت مبروكـة دور قائد العمليات
وأشارت إلينا بالتجمع على جنب، والالتحاق بركب من
سّيارات الدفع الرباعي كانت مستعدة للانطلاق، يقودها
السائقون الليبيون المعتادون. يبدو وكأن كل من كان في
باب العزيزية قد انتقل إلى هنا... الجموع المتراصة على
امتداد طريق الموكب الرّسمي، واصلت اهتزازها وهتافها
بإسم القذافي. كنت في حالة من الذهول التام... كيف يمكن
أن يكون محبوبا بهذا الشكل ؟ هل هم صادقون إلى هذا

الحد ؟ هل تعرضوا جميعا «لغسيل مخ» ؛ كما يحدث مع الناس في ليبيا؟

بعد هنيهة وصلنا إلى فندق «ليبيا»، حيث قادتنا سناء؛ المكلفة بالبروتوكول، إلى بهو الفندق لنستريح، وندخن على راحتنا، قبل أن ينطلق بنا الموكب من جديد. في حوالي مائة سيارة، محملة بالخيام، والتموين، والتجهيزات التي تفوق الوصف ؛ كنا نخترق الطرقات التي تم قفلها بالمناسبة. وكان الأفارقة يصفقون أثناء مرورنا. بينما كانت الفتيات يقهقهن داخل السيارات. بلى، فالأجواء كانت مرحة وشبه كرنفالية. وكنت أتأمــل كــل هذا وكــأنني أعيش مشهدا سينمائيا. ولم أتمكن من أن أمنع نفسي من التفكير، ونحن نرد على ابتسامات الجموع المرحبة، في هزلية المشهد برمته. فهم قد أخرجونا من ظلمات الدهاليز، ليقوموا بعرضنا تحت الشمس ؛ عنوانا لعظمة القائد.

كنت في الواقع لا أعرف شيئا عن وجهتنا. ورغم أننا كنا نرى رؤساء ووزراء وسفراء، غير إننا لم نكن نملك أي تفصيل عن البرنامج الشخصي للقائد. كنا نتابع، كما التلميذ في الدرس، دون طرح أسئلة. كانت الرحلة متعبة في البداية، حيث استغرقت الطريق قرابة الألف كلم ؛ لاجتياز «غينيا» من الشمــال إلى الجنوب، وصولا إلى العــاصمة «كوناكري». التساؤل الوحيد الذي عبرت عنه الفتيات من حولي كان يشأن مكان الإقامة. حيث تمنت فندقا فخما، فيه حوض سباحة، وفيه مرقص ليلي، الأمر الذي سرعان ما سأتبين أنني سأحرم منه. فبينما ذهبت آمال والأخريات للإقامة في أحد الفنادق الفخمة بالفعل، فرضت

عليّ مبروكة أن اقيم مع القذافي في المقر الرّسمي، أي داخل القصر بكل بساطة. كان علي أن أتقاسم غرفتي مع فتاة أخرى اسمها عفاف. وفي منتصف تلك الليلة، طلب مني الالتحاق بالقائد. وجدته صاحيا يذرع غرفته جيئة وذهابا. كان عاريا كما ولدته أمه، سوداوي المزاج، وفي منتهى القلق، وظل على تلك الحال يدور حول نفسه، ممسكا بالمنديل الأحمر الذي سبق وأن مسح به دمي، وهو يفركه بين يديه. كان في حالة تركيز غريب، حتى أنه لم يعر وجودي أي اهتمام، وحتى الفجر، عندها ارتمى فوقي يسحقني.

مع مطلع النّهار، التحقت ببقية المجموعة، آمال وجلال وكل الآخرين. كانوا يقيمون في فندق رائع، وكانوا يمرحون ويلعبون في بهجة عارمة، وهو الجو الذي لم أعرفه من قبل على الإطلاق. وكانت مبروكة قد شددت علي بأن أعود إلى القصر خلال الليل، إلا أنني لم استطع مقاومة الرغبة في الذهاب للمرقص الليلي مع بقية المجموعة... كانت الأضواء تتراقص، والفتيات يدخن ويحتسين الخمر، ويــرقصن جسدا بجسد مع الأفـــارقة. ساعتها بدأت لي مدينة «سرت»، وأهلي، على مسافات ضوئية مني، فلقد حللت بكوكب لا مكان فيه لا لقيمهم، ولا لمعتقداتهم، كوكب يعتمد فيه «بقائي» على خصال واستراتيجيات هم بمفتونها حتى النخاع. كوكب لم يبق فيه لأي شيء من معنى ؛ وقد انقلبت فيه الأمور رأسا على عقب. كان جلال ينظر إلى عن بعد، وكان يكفي أن تتقاطع نظراتنا، ليعتريني إحساس جارف بالمتعة، وعندما اقترب مني، ووشوش في أذني ناصحا ؛ «إياك أن تشربي»، تسربت كلماته إلى

ـافي في عنفوان العشق. ورأيت في ذلك أخلاقا كريمة،
رصا علي، عكس الفتيات اللاتي ما أنفكن يحرضنني
ى الشراب. في هذا الجو المحموم، وقد تصاعد صخب
وسيقى، وأكتظ المرقص برواده.... فجأة، طبع جلال
لة ودودة على شفتي... يا إلهي!. كان الأمر خارج نطاق
وصف!.

في تلك الليلة بقيت للنوم في الفندق نفسه، وتقاسمت
فرفة مع فتاة أخرى، حيث اتصلنا بمبروكة البارحة، وطلبنا
نها السماح لي بالبقاء مع المجموعة للسهرة، والغريب
نها وافقت. أظن أن «السيد» كان مشغولا!. فثمة الكثير
ن النساء غيري برفقته، وأعرف أنه سيلتقط المزيد على
طريق. في الصباح بدأ الجو فيما يشبه الاستعداد للمعركة.
قد أخذت مسؤولة البروتكول تصرخ مشددة : «أريدكن
ميعا في الزي العسكري، على أتم الاستعداد. وفي منتهى
أناقة». وواصلت: «سيلقي القائد اليوم خطابا في ملعب
ضخم، وعلى كل واحدة أن تقوم بدورها!». حملتنا سيارات
دفع الرباعي إلى ملعب «كوناكري»، حيث احتشدت
جموع هائلة من الناس، من الشباب ومن الشيوخ، والعائلات
تي اصطحبت أطفالها....الفرق الموسيقية.......اللافتات.
ل في أجمل بدلة، وفي أروع فستان..... وقبل أن نتوجه
حو المنصة الرّسمية، اجتمع بنا نوري المسماري، رئيس
بروتوكول في القيادة، وأخذ يشرح لنا : «أنا أعرف إنكن
ستنّ عسكريات، ولكن عليكن التظاهر بأنكن حقيقة
سؤولات عن حماية القائد. المطلوب منكن تقمص
شخصية الحارس، والتحلي بالجدية والانتباه إلى كل ما

يدور حولكن». قمت إذن بدور الحارس الشخصي للقذافي وأخذت اقلد زهرة، بوجهها المتجهم، ونظراتها التي تطوف بالملعب وكأنّها تبحث عن إرهابيين.

لما دخلنا إلى الملعب، وسمعت الأصوات الصاخبة، وشاهدت حشود الناس، حيث كان هناك ما يزيد عن 50 ألف شخص، يصفقون للقذافي ويهتفون له. شعرت بأنفاسي تتقطع. كانت هناك أعداد كبيرة من النساء تصرخ باسمه، وتحاول الاقتراب منه ولمس ثيابه، أو حتى تقبيله. وهو المشهد الذي كان يبدو لي في منتهى السخرية، وكنت أقول لنفسي : «مسكينات!»..... «الأفضل أن لا ينتبه لكم، إنه خطير، وحش كاسر». وفكرت في أمّي التي قد تلمحني في التلفزيون، حيث ستنقل القناة الوطنية الخطاب على الهواء، وأنها ستتأثر بكل تأكيد لرؤيتي، رغم بغضها للقذافي، وربما ستقول إن هذا الذي نعيشه إبنتي اليوم، ورغم كل شيء، ليس شئيا لا يُذكر. لكنني فكرت في إخوتي ايضا، ما الذي يعرفونه ؟ وما هو تفكيرهم ؟ وبدأت أشعر بالخوف، فأدرت رأسي، وأخذت أجهد لإخفاء وجهي. فتصوري لردود فعلهم، التي قد تكون عاصفة، جمّد الدّم في عروقي.

كان القذافي يبدو منتشيا برؤية الجماهير، كان يتجاوب معهم ويلاعبهم، كان مزهوا، يُلوّح بقبضة يده كأحد أبطال الرياضة، أو كأحد آلهة الكون. وكانت الفتيات في الزي العسكري من حوله على درجة من الانبهار. إلا أنا. أؤكد لكم، لم يبهرني ذلك ولا لثانية، ولا لجزء من ثانية. بل كنت أقرأ على جبينه : بين قبعته البنية ونظاراته الشمسية السوداء، كلمات : مريض، مجنون، خطر! ....

مباشرة بعد الخطاب، أخذنا الطريق من جديد. واستمر بنا الركب لساعات طويلة. وحتى وصلنا «ساحل العاج»، بعد أن قطعنا «سيراليون». وكان علي أن أتقاسم غرفتي، بالفندق الذي كان خصص لإقامتنا هناك، مع فريدة وزهرة. ذلك لم يزعجني. فقد كان السرير ضخما بما فيه الكفاية. وكان الجميع سعداء، ويتأهبون للنزول لحوض السباحة. وكنت أتحرق لاصطحابهم، حيث لم يتسنى لي من قبل الاستمتاع بمثل هذه الأشياء. لكنني لم أكن أملك أمري، وقد يطلبني العقيد في أية لحظة!. هنا نصحتني فريدة : «يكفي أن تعتذري بالدورة الشهرية، هل تعلمين أنه الأمر الوحيد الذي يردعه. لكن احترسي ! فإنهم سيتثبتون من ذلك!، لذلك يجب أن تدلكي بعض من أحمر الشفاه على المنديل الصّحي....وسيمر الأمر!». وجدت الفكرة على درجة من الدهاء. هكذا بعد ساعتين، وعندما جاءت فتحية تأمرني بصوتها الأجش أن ألتحق بالقائد. تظاهرت بأني منهكة. وأخذت أردد في وهن أنني جد مرهقة. فرفعت حاجبيها متعجبة كأنني استهزأ بها. إلا أنني واصلت : «إنها الدورة الشهرية!».

- هكذا إذن ! هات لأرى !

- لا تقولي أنك ستقومين بالمعاينة !

- هيا، اكشفي !

كانت حركة مهينة، غير إن رؤيتها للمنديل المبلل بالماء، وقد طفح بلون أحمر الشفاه جعلها تقتنع على مضض، هكذا أكتفت باصطحاب فريدة بمفردها إلى مصيدة العقيد.

هذا الانتصار «المهم» فجر في أعماقي مشاعر غير مسبقة بالحرية، وبدأت أشعر بأنني أخف من ذرة غبار، حتى إن ذلك قد دفعني، وبكل غباء، للإسراع باللحاق ببقية الفتيات وبجلال في المسبح. هناك بدأ لي المكان قطعة من عدن، موسيقى، ومشروبات، ونرجيلة. ورغم أن لا أحد يصرّح بذلك، كان ثمة رغبة جامحة لدى الجميع للأخذ بالثأر. وأنه ولو لبضع ساعات نحن نملك الحق في هذه الرفاهية. فنحن هنا نعامل باعتبارنا «جماعة القذافي». يتسابق عمال الفندق على إرضائنا، ولم نعد مجرد الشرذمة المحتقرة في بيت القذافي. هكذا ولو لظل أمسية. وجدت عذاباتنا اليومية، والإذلال المتواصل بعض التعويض. أنه نعيم مزيف، وزائل لا محالة، لكنه يؤسس لمتنفس ضروري لتوازن كل منا، لنقل أنه صمام أمان. بعد فترة، تبين لي أن مثل هذه اللحظات النادرة، هي التي تحمي البعض من الانهيار التام.

غير أنني وعلى حين غرة، سمعت صوتـا يصرخ بأسمي: «ثريا». كانت فتحية التي رأت أنني في حوض السباحة، وأخذت تصرخ، وقد خرجت عن أطوارها : «تقولين لديك العادة الشهرية، وتذهبين للمسبح ؟». كان ارتباكيْ على أشده، حتى أنني لم أجرؤ على النطق. وواصلت صراخها، وهي تصفعني على وجهي بعنف : «كاذبة !». كانت فريدة هي من وشت بي، وبسرعة تم اقتيادي نحو إقامة العقيد، وأخبروني ونحن في الطريق : إن عقوبة «السيد» ستكون على قدر الخديعة. وبينما كنت انتظر في غرفة صغيرة، أتت غالينا لرؤيتي، وأخذت تعـاتبني بحنان : «ثريـا !

كيف وقعت في هكذا فخ ؟ بابا معمر غاضب جدا، وطلب مني التحقق من الأمر. حبيبتي الصغيرة ! أنك تجعلينني في موقف صعب ! ماذا علي أن أقول؟». لا شيء، لم تقل شيئا، أو بالأحرى كذبت لتحميني. ومع ذلك تركوني على إنفراد؛ حبيسة غرفتي بقية اليوم.

في اليوم التـــالي، أخذنـــا الطريق من جديد نحو «غانا»، حيث ستكون المرحلة الأخيرة من الجولة، والتي سيحضر فيها العقيد اجتماع رؤساء دول الإتحاد الإفريقي، الذي تم في «أكرا». أستغرقت الرحلة التي بدأت لي وكأنها لن تنتهي، ساعات وساعات. وعند وصولنا، كان هم فتحية أن تتأكد من خبر الدورة الشهرية. فـــأتت «لمعاينتي» : لتجد إنه لا أثر لذلك. فحدقت في ببرود، دون أن تنطق بكلمة، لكنها أخبرت مبروكة بالأمر، التي وجهت لي صفعة ثقيلة، قبل أن تجرّني إلى القذافي.

على إن ما حل بي في غرفة العقيد لا تفيد فيه التفاصيل؛ لنقل إنه صفعني، وضربني، وبصق عليّ..... وشتمني، وأنني خرجت من عنده متورمة الوجه، ثم حُبست في غرفة، وعلمت فيما بعد أنه قد تم ترحيل غالينا إلى طرابلس على الفور.

قـــالت لي مبـــروكة، وهي تنظر إلي بازدراء عبر ظلفة الباب : «تريـــدين الفـــرار، هكذا ؟ ولكن لتعلمي أنه إينما ذهبت، سيجدك معمر ، ويقتلك».

7

هـشـام

لم نكن رحلة إفريقيا نهـاية معاناتي، بل كانت بالأحرى بداية عزلتي التامة. هل سئم القذافي مني ؟ هل تجاوزت «سلعتي» تاريخ الصلاحـية ؟ لا أدري. ليس ثمة مع القذافي أي منطق أو ما يقبل التفسير على الإطلاق. كنت لا أعرف حتى على أي نحو سيمر يومي، ولا كيف سيكون الغد. فقد كان هو من يقرر ما الذي يجب علي أن أفعل. كنت رهن إشارته، ملك يديه، دون أي أفق يخصني. غير أنه، صبيحة عودتنا من الجولة الإفريقية الكبرى، طلب من مبروكة أن تقودني إليه، ليعلن لي : في مزيج من النفور والتقزز: «أنا لم أعد أريدك، أيتها الرخيصة!، سأدمجك في الحرس الثوري، وستذهبين للسكن هناك. هيا، اغـربي عن وجهي !».

عند هبوطي، ناولتني مبروكة هاتفا جوالا، وهي تتمتم بلامبالاة «هذا، إذا ما رغبت في الاتصال بوالدتك...». لم يكن الأمر منتظرا !، واتصلت بأمّي على الفور،

كانت فرحة والدتي بسماع صوتي لا توصف. وقالت لي:
«لقد شاهدتك في التلفزيون، وأنت بالزي العسكري خلف
القذافي بملعب «كــوناكري». وقالــت لــي : أريد أن أراك
يا عمري، لقد اشتقت إليك كثيرا!». أمام هذه العاطفة
الجياشة، تسلحت بشيء من الجرأة، وفاتحت مبروكة في
رغبة أمي في المجيء لزيارتي- وكانت مفاجأتي كبيرة عندما
كان جوابها : «يمكن لها أن تزورك بعد الغد». نعم، قالت لي
بأنه في إمكان أمي أن تأتي لزيارتي في باب العزيزية!. ورغم
أن مجرد تخيل دخولها إلى هذا المكان كان يثير ذعري، إلا
أنني كنت بحاجة ملحة إليها. فشرحت لها كيف يمكن أن
تصل حتى مرآب القيادة، وإن أحد الأشخاص سيرافقها من
هناك إلى مقر إقامة العقيد. كنتُ على أمل أن يستقبلها
الجميع بود، قبل أن يتبين لي أن ذلك كان سذاجة من
طرفي. فقد عاملتها مبروكة وسلمى وفتحية بكل فضاضة،
وازدراء. وعندما سألت عني، اكتفين بالجواب في تــعال :
«تريــدين رؤيــة ابنتك ؟ إنهــا في الأسفــل!».

الوحيدة آمال، التي قبلتها مرحبة ولله الحمد، والتي
جــاءت تخبرنــي بقدومهــا. فأسرعت إليها، وارتميت في
أحضانها، وبكيت طويلا على صدرها. كنت عاجزة عن
الكلام. ماذا أقول لها ؟ وعما أحكي ؟ أو من أين أبدأ ؟
فهذا الفبو يتحدث بنفسه. واكتفيت بالبكاء حتى أن صوت
شهقاتي أخذت تزعج البعض- فجاءت مبروكة لتسخر مني،
الأمر الذي جرح أمي بشكل واضح... بعد هنيهة قالوا لنا
يكفي هذا، وطلبوا من أمي المغادرة.

بعد أيام قليلة، قدمت غالينا إلى غرفتي ممتقعة الوجه. وقالت لي إن العقيد يطلب رؤيتنا، وشددت : «على الأرجح أنه سيطالبنا من جديد بتوضيحات حول ما حدث في الجولة الإفريقية». دُهشت، وتساءلت في استغراب: «أليست لديه مشاغل أهم من هذا الموضوع؟!».

كان بالفعل هذا هو سبب الاستدعاء، لأنه سأل الممرضة على الفور : «لماذا كذبت وقلت إنه كان لديها العادة الشهرية؟».

- لم أكذب ! إنها فتاة صغيرة، ويمكن للدورة أن تكون مؤقتة وغير منتظمة.

- لست إلا كاذبة ومخادعة! لقد أخبرتني فريدة بالحقيقة. وقال موجها حديثه لي : «أما أنت، أيتها الرخيصة، انزلي إلى غرفتك، وأنتظري لتري!».

كانت المرّة الأخيرة التي أرى فيها غالينا في باب العزيزية. بعد فترة طويلة، في بدايات الثورة، تفاجأت برؤيتها في التلفزيون، حيث نقلوا خبر عودتها إلى «أوكرانيا»، وقد دفنت في أعماقها أسرار تجربتها في ليبيا. بعد عدة أيام من تلك المواجهة العاصفة، ناداني القذافي من جديد، وانقض على جسدي بوحشية المنتقم، حتى أنني خرجتُ من عنده مترنحة، تفترش الكدمات جسدي. كنت في حالة مزرية؛ حتى إن آمال «غ»، وهي آمال أخرى تعيش معنا في القبو، لم تكن تهتم في العادة بأمري، تأثرت جدا لحالي. وقالت لي : «أنت، لا بدّ أن أخرجك قليلا من هنا!». غير أنني لم أحرك ساكنا لما تقول، كنت قد فقدت الأمل كليا في أي

فرج، وبقيت على حالي أياما بطولها، أغرق في يم من اليأس في صمت، وحتى عادت آمال إلى غرفتي، لتقول لي في نشوة المنتصر : «لقد وافقت مبروكة على أن آخذك معي لزيارة أهلي!». وبالفعل قضيت ذلك اليوم بطوله في بيتها، مع أسرتها ؛ حيث فرحت بنا والدتها وأختها الصغيرة، وتغذينا وجبة احتفالية من الكسكسى اللذيذ.

بعد ثلاثة أيام، حصلت على إذن جديد بالخروج. بدت هذه الحرية «المشروطة» الجديدة غريبة، وغير قابلة للتصديق. كيف أفسر هذا الانقلاب المفاجئ في موقف سجاني ؟ غير أن تلك الساعات المحدودة التي كانوا يسمحون لي بقضائها خارج القبو لاستنشاق الهواء، كانت كافية لأقبل بالأمر دون أسئلة. ولم أعد أرغب حتى في الفرار. لقد انقطع كل أمل عندي، وكل حلم. لقد أصبحت كمن واراه التراب، مدفونة، محرومة من أي مستقبل خارج باب العزيزية. لقد صرت واحدة من بين آخريات كثيرات؛ مملوكين لسيدنا «القذافي». لذلك لم يكن خاطري يتصور حلول أي رجل آخر في حياتي.

*

ولكن، في أحد المرات أخذتني آمال «غ»، للغذاء في أحد مطاعم منطقة «الحفرة»، الشهيرة بأسواق ومطاعم السمك، وبحركة الصيادين على شاطئ طرابلس. ولما هممنا بمغادرة المكان، كادت آمال أن تصطدم، وهي تحرك سيارتها للخلف، بسيارة أخرى، الأمر الذي أغضب صاحبها، فترجل وهو يرفع صوته : «انتبهي !». كان على

درجة من الانزعاج، ولكنه سرعان ما هدأ عندما وقع نظره عليّ. بادلته نظرة مهتمة، وابتسمت له بود، وقد اجتاحني تيار جارف من الانجذاب، كمن صعقه مس كهربائي. لم أكن أعرف أنه يمكن للمرء أن يعيش مثل هذه المشاعر، أن تهزه كزلزال عنيف، دون أن يملك حيالها أي شيء. كان يشع حيوية؛ في الثلاثين من عمره، متوسط الطول، ضخم البنية، مفتول العضلات، أسود العينين والشعر. الموقف برمته أربك كياني، فلم أجرؤ حتى على النطق، بينما انطلقت بنا آمال نحو باب العزيزية : لتتواصل حياتي في رتابتها الحزينة، بين القبو وسرير القذافي، بين النفور والخضوع.

في إحدى الأمسيات، سمحوا لي بالخروج مع آمال من جديد، كانت تريد أن تأخذ أختها إلى مدينة الملاهي، فجرجرتني معها لركوب مختلف الألعاب. وبينما كنا نهتز في حبور داخل لعبة «الكسكـــاس»، المصممة على هيئة غربال كبير، بكراسي على الدائرة يتثبت بأطرافها اللاعبون، وتدور بهم في نقلات سريعة من الاتجاه إلى الاتجاه المعاكس.

وكنا نضحك، ونصرخ، ونحن نجهد في ضبط توازننا ؛ اكتشفت أن الشخص القائم على تشغيل اللعبة لم يكن سوى ذلك الشاب الذي التقيت به ذلك اليوم قرب البحر. وتقاطعت نظراتنا من جديد، وأخذ يشاكسني بتسريع دوران الصحن الكبير. يا للرعب ! ويا لها من إثارة ! وكنت كلما تشبثت في خوف، وازدادت ضحكاتي، زاد من إيقاع السرعة حتى كدت أموت رعبا !.

عندها رفع صوته يحدثني ، «لقد تقابلنا سابقا، أليس كذلك؟».

- آه. تذكرت الآن، قلت له وكأن الأمر لا يحمل كثير دلالة. وسألته: ما اسمك ؟

- اسمي هشام. وأضاف بسرعة : «هل يمكن لي برقم الهاتف؟».

كان المشهد عجائبيا ! وفي منتهى الغرابة !. وقرر هو أمام صمتي أن يعطيني رقمه، ولأنه لم يجد ورقة يكتبه عليها، أخذ يلقنني أياه. فلم أتردد في تسجيله. بينما سارعت آمال بإبعادي عن المكان.

كان يكفيني هذا اللقاء ليملئني حبورا. كنت أحلق أثناء عودتنا إلى باب العزيزية على جناح من السعادة. وقد تزركش الوجود من حولي بألوان قوس قزح. واتصلت به فور دخولي الغرفة. كنت أعرف أن ذلك عملاً جنونيًا.... ولكن سرعان ما انساب صوته يسألني :

- أين أنت؟

- في المنزل.

- سُعدت برؤيتك في مدينة الملاهي. لقد كانت صُدفة جميلة. أليس كذلك ؟

- ما كنت لأخطئك، وأيا كان المكان الذي قد أتقاطع فيه معك.

- أريد أن أراك مرة أخرى، أين تشتغلين ؟ أم لازلت طالبة؟»

آه. هذا السـؤال ! كان عليّ توقعه. ماذا يمكنني أن أجيب ؟ أنا لا أشتغل. أنا لا أفعل شيئا. وليست لي حياة أصلا ليكون لي إهتمامات فيها. أنا أعيش في جحيم. في هاوية. في دوامة. وانخرطت في بكاء مرير. وأنا أجيبه :

– لا شيء. أنا لا أفعل شيئا.

– ولكن. لماذا تبكين ؟ احكي لي !

– لا أستطيع.

قطعت المكالمة ودموعي تنهمر كسيول جارفة. عمري الآن ثمـانية عشـر سنة. صديقـاتي في المدرسة تحصلن على شهادات. وربما بعضهن قد تزوج. وأخريات تواصلن دراستهن. وأنا هنا. أتذكر أني كنت أحلم في بداية تعليمي الإعدادي أن أصبح طبيبة أسنان. حدّثت أمّي بذلك. كانت الأسنان والابتسامة أول ما ألاحظه لدى الناس. وكنت أقدم النصائح للجميع في كيفية الاعتناء بالأسنان وتبييضها.

طبيبة أسنان ! الحلم كله مثير للضحك الآن. أية سخرية لو حدثت سكان القبو بذلك.

لقد تحطّمت أحلامي. وسُرقت حياتي. ولا أستطيع حتى البوح بذلك. فأنا أخجل من أن يعرف الناس بهذا الذي يفعله القذافي معي. أشعر أنني اتسخت به. بماذا أجيب هشام ؟... غير أنه لم يكن لدي وقت للتفكير. حيث نودي عليّ من الطابق العلوي.

«انزعي ثيابك يا قحبة !». هذه المرّة فاضت الكأس. انفجرت في البكـاء وأنا أقـول له : «لماذا تقـول لي ذلك

دائما ؟ لماذا ؟ أنا لست فحبة ؟». هذه الكلمات هيجته. جن جنونه، وزأر قائلا : «اصمتي. يا فحبة؟» ، وأنقض علي ينتهك جسدي. ليفهمني أني لست إلا «شيئا»، لا حق له في الكلام. عندما نزلت إلى حجرتي، رأيت على الهاتف المخفي تحت الوسادة أن هشاما طلبني خمسة وعشرين مرة. كان وجودي يهم شخص ما على الأقل.

في الليلة التالية، ناداني القذافي وأطلق مكبوتاته مرة أخرى على جسدي، أجبرني على استنشاق الكوكايين، وضعه على لساني. غصبا عني. أرعبني الأمر. سال الدم من أنفي. وفقدت الوعي.

عندما استيقظت كان قناع الأوكسجين على وجهي، بالمستوصف الذي تديره الأوكرانيات في القيادة. وكانت الممرضة إلينا تربت على يدي، وتنظر إلي بقلق. هي لم تنطق بأي كلمة، لكن شفتيها كانت تتمتم بكثير من الإشفاق. وما إن أفقت حتى حملوني إلى غرفتي، ولازمت فراشي يومين كاملين، عاجزة تماما عن الوقوف. كانت صورة هشام وحدها تشدني إلى الحياة.

لم تعلم آمال «غ» بما حدث لي إلا فيما بعد. كانت حالتي قد تحسنت نسبيا. ورغم أنني لم أكن راغبة في الحديث، إلا أنها أمسكت بيدي وأنهضتني بالقوة، وأدخلتني لدى العقيد. كان جالسا أمام حاسوبه. لكن آمال لم تتردد في رفع صوتها بالتأنيب : «سيدي ! ليس من المعقول أن تعطي الكوكايين للصغيرة ! إن هذا جد خطير ! إنه إجرام ! ما الذي خطر ببالك. ما الذي وقع ؟». كانت تواجهه ؛ وبتحد صاع

يدها في يدي، ويدها الأخرى في خصرها، وكانت تنتظر منه إجابة. نعم، تجرأت وأخذت تحاسبه !. لكنه صرخ في وجهها مشيرا إلى الباب : «اخرجي من هنا ! اتركيها !». وقفز علي يسحق نهدي بيديه، ثم أدار الموسيقى، وصاح بي : «ارقصي!». بعد ذلك، ألقى بي على الأرض : «لماذا تكلمت يا فحبة؟».

- أنا لم أقل شيئا ! عرفن ذلك بمفردهن !».

لكنه ضربني.... واغتصبني، ثمّ تبول فوقي، ثم صرخ في وجهي : وهو ذاهب للاغتسال: «أغربي عن وجهي». نزلت وكلي مبللة، بائسة، وأنا على يقين بأن أي حمام في الوجود لا يمكن له أن يغسل عني تلك الأدران.

*

لم تهدأ أمـــال «غ» بشأن الموضوع، بالرغم من كونها مفتونة بالعقيد، بل ربما هي تعشقه، رغم أن مثل هذا الأمر يكون لمن عرفه عن قرب غير قابل للتصديق. فهي لا تكف عن الترديد بأنها مدينة له بالمنزل الذي حصلت عليه لعائلتها، وبسيارتها، وبالرفاهية التي تعيشها. في الواقع أنا لم أناقشها في هذا الأمر. كنت من طرفي أحمل تجاهه قناطير من الكراهية. على أنني كنت أعرف بأنه يمكن لي أن أصدقها حين تقسم : «ورأس معمـــر». وكـــانت لا تتردد في توقيف أي واحد عند حده في باب العزيزية. في أحد المرات نعتها سعد الفلاح بالقحبة، فلم تترد في أن تصرخ في وجهه : «الأفضـــل لك أن تصمت، أيهـــا المخنث!». كانت دائمـــا تحتج، وتهدد، ولا تسمح لأحد بالاقتراب منها.

ولا تعير أي اهتمام لمن حولها. ولكن حالتي النفسية الصعبة أقلقتها كثيرا. هكذا أطلت علي في أحد الصباحات وهي تقول : «هيا تعالي، سأخذك لبيتي، لقد حصلت على أذن بهذا الشأن. خذي ما يكفيك من ملابس لبضعة أيام».

قفزت فرحا وتعلقت برقبتها. لكنها أكتفت بأن قالت، وهي تتحرر من عناقي : «يكفي، يكفي!». كانت قاسية كالعادة. إلا أن الدموع داهمتها. ثم انطلقنا نحو أسرتها. آه، ما أحلى الإحساس بحياة طبيعية : منزل أسري. غذاء جماعي. تذكرت عائلتي ؛ وأتصلت بأمّي : وقلت لها : «تعالي خذيني للبيت».

هنا قفزت أمال وهي تشير بإصبعها محذرة : «لا تقولي أنك عندي في المنزل ! هذا ممنوع ! وإذا أخبرت والدتك بذلك، أرجعتك إلى باب العزيزية فورا». أرعبتني. كنت مستعدة لفعل أي شيء، مقابل ألا أعود إلى القبو، ورؤية القذافي ومبروكة. كنت مستعدة حتى للكذب على أمّي، وهو أمر لم يحدث بعد.

في هذه المرة اكتشفت أن آمالا تعيش حياة خفية أخرى، لا علاقة لها بما تعيشه في باب العزيزة. واكتشفت كيف تتعامل مع شبكة واسعة توفر لها ما تحتاجه من الكحول، وأن لها نزهات ليلية بالسّيارة، وصداقات بالشرطة؛ فبالكاد كنا نمر على شرطي، أو ضابط دون أن يحييها، ويسألها : «كيف حالك يا أمال؟». وكيف أنها تستهلك كوتيل الـــ«راد بول» و «الفودكا». وهي تقود سيارتها ثم

تعطر فمها قبل أن تعود للمنزل. وفهمت أنها متعطشة إلى المال، وأن لها علاقات واسعة مع كبار رجال الأعمال الذين تتلقى منهم عمولات كبيرة مقابل خدمات وتسهيلات.... وسرعان ما فهمت أنها أرادت أن تستعملني كطعم «لصيد» الرجال المتنفذين والأثرياء. حيث وجدت نفسي مع فتيات أخريات : في سهرات ماجنة يتزاحم عليها وجهاء البلد ومشاهيره، حيث تستهلك الكحول والمخدرات، وتمنح الأموال مقابل الخدمات الجنسية. آه، هذا ما يُراد مني أن أفعل ؟ ثروتي ليست إلا في هذا الجسد الذي كرهته ؟ حتى خارج القبو، قيمتي الوحيدة مقتصرة على هذا الجسد؟ ولعل صلتي بباب العزيزية كانت تضفي عليّ سحرا خاصا في عيون بعض الرجال. قضيت ليلة في منزل أحد الأثرياء من أقارب القذافي مقابل 5000 دينارا. واحتفظت بها أمال، ولم استطع مطالبتها بذلك أبدا. لقد كنت على نحو ما رهينة عندها.

*

في أحد الأيام، كنت أطمئن على أحوال أمّي بالهاتف، أعلمتني أن أسرة «إيناس»: وهي صديقة طفولتي في بنغازي، قد انتقلت للعيش في مدينة طرابلس، وأنها ترغب في لقائي. أعطتني رقم هاتفها، فاتصلت بها على الفور. لقد كنت أرغب في إعادة بناء علاقاتي مع أشخاص طبيعيين، كانوا في حياتي سابقا، دون أن أكون متأكدة بأن ذلك سيكون قابلا للتحقق. أجابتني إيناس بسرعة وبحماس كبير. فطلبت عنوانها، واقترحت زيارتها في التو، فأجابتني: «آه جيد؟، يمكنك الخروج من باب العزيزية إذا؟». يا إلهي لقد كانت

تعلم ! لقد وقع علي الأمر وقع الصاعقة. كيف تجرأت أمي على مصارحتها بالحقيقة. بينما كانت تكذب منذ البداية على كامل الأسرة ؟ استقليت «سيارة أجرة» ؛ وطلبت من إيناس تسديد ثمنها. فقالت ممازحة : «كيف لفتاة تعيش لدى الرئيس لا تملك أجرة «تاكسي ؟»». ابتسمت دون إجابة. ما الذي تعلمه حقا ؟ ماذا يعني لها «تسكن لدى الرئيس» ؟ هل تعتقد أن الأمر كان باختياري؟ هل تظن أن لدي مكانة وعملا حقيقيا ؟ ولكني كنت مضطرة للحذر بشأن كل ذلك.

دخلنا إلى المنزل. حيث استقبلتني كل العائلة بترحاب كبير. ونحن في هذا الجو الجميل اقترحت إيناس في حماس: «ما رأيك لو نستدعي والدتك لتلتحق بنا؟». لكنني أجبتها في رفض قاطع :

- لا. لا !

- لماذا ؟

- لأن ذلك غير ممكن!... أنا الآن أسكن عند صديقة. خارج باب العزيزية. وهي لا تريد أن يعرف أحد بذلك.

نظر إلي كل الحاضرين بصمت وبارتياب. هكذا إذا. ثريا الفتاة الصغيرة تكذب على أمّها. أصبح الجو ثقيلا. سأل أحدهم : «ما علاقتك بباب العزيزية؟».

- لا أرغب في الحديث عن ذلك. أكيد أن أمّي قصّت عليكم حكايتي.

وهنا أشعلت سيجارة. الأمر الذي سبب مزيجا من الذعر والاستنكار في عيون أفراد العائلة. لقد تحولت في نظرهم لمنحرفة. حاذت عن جادة الصواب.

فضيت الليلة لــدي إينــاس، أراحني ذلك قليلا. فإن تلك العودة الخاطفة لذكريات الطفولة، كان من شأنها اضفاء شيء من البهجة على أعماقي. وكنت أفكر بأن أمالا «غ» ستجن حتما من الغيظ. حيث تعمدت أن لا أرد على مكالماتها العديدة، ونداءاتها المتكررة. وحين أجبتها في صباح الغد، أخذت تصرخ : «كيف خرجت دون استئذان؟».

– أحتاج إلى استنشاق قليل من الهواء، أتفهمين ذلك؟ لديك أشعر بأنني في سجن جديد. شكرا على إخراجك لي من باب العزيزية، ولكن امنحيني الآن فرصة لأتنفس قليلا.

واصلت صراخها، وانخرطتُ في البكاء. أخذت إيناس السماعة لكي تشرح لها : «أنا صديقة طفولتها، وهي في حماية عائلتي، لا تقلقي». لكن أمــال ألــحت : وشرحت مهددة بــأنني أضع نفسي في وضعية خطرة جدا، ولا أحسب نتائجها. انتهت إيناس إلى ان تعطيها عنوان البيت، فأجابتها على الفــور : «أنــا قادمة». هذا ما كنت أخشاه. الملجأ الوحيد المتبقي لي حيث لا أحد من باب العزيزية يفكر فيه، تم كشفه. أحسست أني كالطريدة. اتصلت بهشام وقلت له بصوت متهدج : «أرجوك، تعال لتأخذني بعيدا من هنا. لا أريد أن أرى أحدا غيرك».

لم تمض إلا بعض دقائق حتى كان هشام أمام الباب، وكما لو أنه اختطفني أسرع مبتعدا. غابت سيارته في طرقات طرابلس، ثم ضواحيها باتجاه الريف. كان ممسكا

بمقود السيارة بكل يديه. في تركيز كبير على الطريق. كنت أنظر إليه خفية. رأسي إلى الخلف على المقعد، وممددة بارتخاء كما لم أفعل ذلك منذ مدّة طويلة. تعطلت لدي ملكة التفكير. فلم تكن لدي أي خطّة. كنت أبتسم. لا أملك إلا الثقة في هذا الرجل الذي أشاهده للمرّة الثالثة لا أكثر. وهو ما لم أخطئ بشأنه. فقد كان هشام يملك القوّة والشجاعة في آن. قادني إلى «استراحة» بمنطقة عين زارة. وقال لي : «ارتاحي قليلا الآن. أنا أعرف قصّتك. ومن هنا فصاعدا لن أترك أي مخلوق يؤذيك». كانت آمال «غ» قد اتصلت به، دون علمي لتحكي له صلتي بباب العزيزية، وتحذره بأنّي فتاة لا تناسبه. وها هي تحاول الاتصال بي، وتطلبني على هاتفي بإلحاح. قال لي هشام : «أجيبيها، ينبغي أن لا تخافي منها. قولي لها الحقيقة».

رفعت السماعة بتوتر. كانت تصرخ «ثريا أنت مجنونة! تبحثين عن المشاكـــل. كيف تجرئين على الفـــرار ؟ بينما كنت قادمة لاصطحابك؟».

– دعيني وشأني. أنا بعيدة الآن. أسكن عند صديقة.

– تكذبين. أعرف أنّك مع هشام !

قطعتُ المكـــالمة. افتك هشـــام الهـــاتف مني وطلبها، وقال لها : «اتركيها بسلام. انسيها. يكفي ما فعلتموه بها من أذى. من هنا فصاعدا. أنا الذي سأحميها. يمكنني أن أقتل إذا فكّر أحد الإساءة إليها».

– أنت لا تعرفني يا هشام. ستدفع ثمنا غاليا جدّا، وستجد نفسك في السجن.

قضيت مع هشام ثلاثة أيام من السعادة الحقيقية. وذلك رغم أنني خلال الأربع والعشرين ساعة الأولى لم أنقطع عن البكاء. أعتقد أنني سكبت فائض دموعي المتراكمة مدّة خمس سنوات. كان هشام صبورا، رقيقا، مطمئنا. يمد اللقمة إلى فمي، يمسح دموعي، ينظفني. لم أعد وحيدة. وبالنهاية، بدأت أشعر بأنه من الممكن أن يكون هناك إنسان في حياتي بعد باب العزيزية.

كان لخبر فراري وقع القنبلة في منزل القذافي. وقد اصطحبت أمــال «غ» إيناس لبيتنا لتخبر والدتي بالأمر. والتي اتصلت بي مباشرة بالهاتف، وهي تزمجر : «دمرتيني يا ثريا. منذ شهرين وأنت تكذبين عليّ ! كيف أمكنك ذلك؟ أنت في المدينة، تدخنين، وتعيشين مع رجل غريب، إلى أي شأن صرت يا صغيرتي ؟ هل صرت مــومسا ؟ إنني أتمنى المــوت على تخيلك في عيشة الفجور والــفسق. آه يا بُنيتي، لقد خيبت ظني!». بهذه المكالمة كنت قد تلقيت الضربة القاضية. كل المظاهر الخارجية كانت ضدّي. رغم أنني لم أفعل شئيا غير أني سعيت لأن أحيا، وأن أخرج من الكابوس؟. بعد مكالمة أمي، جاءت مكالمة أمال «غ»، وهي تهدد : «مهما فعلت، ستعودين إلى باب العزيزية». كانت فرقة من الأمن الداخلي في سيارتين رباعية الدفع، قد اقتحمت منزل عائلة هشام، وهددوا أهله بضرورة تسليمي أو النيل من أبنهم : «أين ابنكم ؟ عليه إعادة الفتاة التي اختطفها». هنا أتصل به شقيقه ليخبره بالأمر، وهو ما أصاب هشام بقلق حقيقي بشأن أسرته. هكذا، وبعد ثلاثة أيام، قررنا رفع الراية البيضاء، وسقط في أيدينا.

عندما عدت إلى بيت أمال «غ» : خيرتني هذه بين أن تقودني إلى أهلي أو إلى باب العزيزية. هنا اخترت العودة لبيتنا. دون أن أعرف أن الأمر سيكون على درجة من الضراوة. حيث وجدت أنهم قد فقدوا الثقة في. وقد استقبلتني أمّي بنظرات صارمة. كأن وجهي صار عنوان دناءة واحتقار. كأني لم أعد ابنتها المختطفة. التي عذبوها. كأني متهمة ؛ أو أنني فتاة ضائعة. ورغم أن أبي قد استقبلني بحنان أكبر. وأخذ يتأملني لأنه كاد أن لا يعرفني؛ وهو يتمتم: «أظن أنك كبرت قليلا. بل هرمت» ؛ إلا إنه وبسرعة. وكأن عليه أن يؤدي دوره كأب. طلب مني إيضاحات حول علاقتي بهشام ؟ فقصصت عليه اللقاء المفاجئ بهشام وشجاعته وهدوئه وأخلاقه العالية. ولطفه معي، ورغبته في الزواج بي. كان يستمع إلي بروح متشككة. وقد انتصبت بيننا مسافة فاصلة غير معلنة.

مقابل هذه العلاقة الجديدة بهشام ؛ منعتني أمّي من الخروج من المنزل ؛ خوفا من هذا الخطر الجديد أكثر من الخطر المحتمل من باب العزيزية. وقد اضطررت إلى اختلاق الحيل، وللتظاهر بمصاحبة أبي في بعض الشؤون، والإفلات منه لمقابلة هشام. الذي وفر لي كمية من السجائر وشريحة جديدة لهاتفي الجوال. ومع حصولي على رقم جديد لم يعد بإمكان أمال «غ»، ولا مبروكة الاتصال بي بتاتا. إلا أنني لم أكن سعيدة مع ذلك. فالأجواء كانت جد مشحونة داخل المنزل، وكنت أشعر بأنني أكاد أختنق. ولم أكن أستطيع التدخين إلا سرا في الحمام. ثم أعطر فمي للتغطية على رائحة التبغ. لقد كنت كمن

وضعوه في سجن انفرادي لا أحد يناقشني ولا أحد يتبادل معي أطراف الحديث.... وذات صباح، طرق سائق باب العزيزية باب البيت، أرسلوه لاصطحابي : «تعالي يا ثريا، يطلبون حضورك هناك».

ذهبت معه. حال وصولي قادتني مبروكة بوجهها الجامد إلى أحد زوايا المختبر، حيث أخذت مني أحد الممرضات الأوكرانيات، ثلاث عينات من الدّم : ملأت ثلاثة قوارير طبيّة. كان يجب أن أنتظر بعدها في قاعة استقبال صغيرة ساعة من الزمن : قبل أن تأتي سالمة ميلاد في سحنتها المتجهمة. وتقول في صوت أجش : «اصعدي!». كان القذافي في انتظاري بلباس رياضي، وقميص قطني. وسارع يلقي تجاهي بكلمات بذيئة : «يالك من قحبة ! أعرف أنك مارست الجنس مع آخرين!». وبصق في وجهي، ثم ضاجعني، قبل أن ينهض ويتبول على جسدي، وهو يقول في كل برود : «ليس أمامك إلا حل واحد : أن تشتغلي هنا. وتنامي في منزلكم، لكن أريدك تحت تصرفي من التاسعة صباحا إلى التاسعة ليلا. يجب أن تتقيدي بهذا البرنامج، وفي كامل انضباط الحرس الثوري».

8

الـــفـــرار

في الغد، وعلى الساعة الثامنة والنصف تحديدا، دق سائق باب العزيزية جرس بيتنا. كان علي أن أذهب إلى العمل. وذلك رغم أنني لم أكن أعرف تماما ماذا علي القيام به في هذه الوظيفة الجديدة ؟ كنت أرجو ببساطة ألا يكون لي أي احتكاك بالقذافي. وكنت أتساءل وأنا في الطريق لباب العزيزة : ما الذي يجب أن نقوم به الـــ«حارسة الثورية»؟ وكيف يمكنني الدفاع عن «الثورة» ؟ إلا أنني سرعان ما عرفت سيناريو المهمة التي كانت في انتظاري : ليس أكثر من تقديم المشروبات لضيوف القذافي الأفارقة طوال اليوم! وأن أستمر متواجدة في المنزل عينه، مع الأشخاص أنفسهم و «المعلمة مبروكة» نفسها، وهي المهمة التي استمريت في تأديتها حتى الساعة الثالثة فجرا. فاشتكيت إلى مبروكة: «ليس هذا ما وعدني به القائد، قال لي بأنني سأنام في بيتي»، لكنها ردت بلا مبالاة : «مع ذلك ستقضين الليل هنا».

ولكن لم تعد لدي غرفة. حيث إن فتاة «جديدة» حلت مكاني. وكفتاة عابرة استعددت إلى النوم على كنبة في قاعة الاستقبال. وحالما غادر آخر الضيوف الأفارقة، نُوديت مع «المحظية» الجديدة إلى جناح القائد. ما الثوري في هذا العمل ؟ لقد خُدعت بكل بساطة.

في الغدّ اتصلت بوالـــدي خــفية. كان الحوار خاطفا، شعرت بقلقه. «ثريا، التحقي بي بأسرع ما يمكن، هل معك جواز سفرك؟». نعم هو معي، ذاك أمر غريب، ولكنه معي. هفوة صغيرة من مبروكة، فقد نسيت أن تسترجعه مني بعد عودتنا من إفريقيا. تحججت بقضاء شؤون سريعة مع سائق باب العزيزة، والذي طلبت منه انتظاري قليلا. وقفزت في سيارة أجرة لملاقاة أبي الذي كان ينتظرني. انطلق بسيارته كالسهم وقادني إلى السفارة الفرنسية لطلب تأشيرة مستعجلة، طلبوا صور شمسية، ورفعوا بصماتي. مع قليل من الحظ بفضل مساعدة أحد موظفي السفارة من أصدقاء أبي، ستكون التأشيرة جاهزة في ظرف أسبوع بدل شهر. وفي أقل من ساعة، أرجعني أبي إلى المكان الذي أخذني منه، بعد أن اخترق بي الأزقة والطرقات الفرعية، تجنبا للشوارع الرئيسية......؛ حيث أخذت من جديد سيارة أجرة ومنها إلى السائق، وعدت إلى باب العزيزية.

واصلت دور النــادلة. كان المنـــزل ممتلئا بشخصيات مشهورة، ونجوم لم أكن أعرفهم كلهم، ولكن كان من بينهم: مخرج ومغن من مصر، ومغنية لبنانية، وراقصات، ومذيعون في التلفزيون. خرج العقيد من مكتبه للالتحاق بهم في قاعة الصالون الكبرى، جلس بينهم، ثم صعد إلى

غرفته. ليلتحق به عدد كبير منهم الواحد تلو الآخر. قبل المغادرة كانت تنتظر البعض منهم حقيبة من العملة الصعبة. وتمكنت من الرجوع إلى المنزل. إلا أنني سرعان ما أدركت بأنه لم يعد لي مكان بينهم. لقد صرت غريبة. مثال سيء للجميع. فأمي بعيدة عني تقضي أغلب الوقت في «سرت» مع أختي وأخي الأصغر. وأخوي الكبيران غادرا للدراسة بالخارج. وفي «طرابلس». لا يعيش إلا أبي وأخوي الآخران. الأمور ليست على ما يرام. سألت والدي «ما هذه الحياة؟». فردّ لي والدي معنفا : «أي مثال لإخوتك الصغار وبقية العائلة؟» لقد كانت الأمور أسهل بكثير حين لا يراني أحد. وانني سأكون أقل إزعاجا لو مت. هكذا أقدمت على فعل أقدمت على فعلأقدمت على فعلأغريب جدا : لقد فضلت العودة للحياة في باب العزيزية على المكوث في البيت.

عـــودة إلى المختبـــر. عينة الـــدّم. أفترش الأرض في قاعة الانتظار إلى أن أدعى ليلا. وحتى أتصـــل بي أبي في أحد الأمسيات : «كوني على استعداد. خلال أربعة أيام. ستحصلين على التأشيرة إلى فرنسا». يومها ذهبت لمقابلة القـــذافي متسلحة بالشجـــاعة. وقلت له : «أمّي مريضة جدا. أريد الحصول على عشرين يوم إجازة». لكنه منحني أسبوعان. فعدت إلى المنزل. كانت الأجواء ثقيلة كالرصاص ! كنت أختفي كالعادة للتدخين ومكالمة هشام. كنت أغضب الجميع. كذبت. اختلقت طلبا من باب العزيزية. لألتقي مع حبيبي. أعلم أن الأمر خطير جدا. وأنني ألعب بالنار. حياتي كلها حادت عن السكة منذ فترة طويلة! صار الكذب والمراوغة هي أدوات للعيش.

قضيت يومين مع هشام، في مسكن استعاره من أحد أصدقائه. كان يقول لي «أنا أحبك. لا يمكنك أن تسافري بهذا الشكل».

– إنه الحل الوحيد. لم أعد أستطيع العيش في ليبيا. لن يتركني باب العزيزية أعيش بسلام. وعائلتي تنظر إلي كأنني موبوءة. وبالنسبة إليك لا أحمل إلا القلاقل والمخاوف.

– انتظري قليلا، سنغادر سويا إلى الخارج.

– كلا. أنا مطاردة هنا وأضعك في خطر حقيقي. الرحيل، هو أملي الوحيد كي ينساني القذافي ويمحوني من ذاكرته.

عدت إلى المنزل لإعداد حقيبتي. كنت أسير وأنا نصف نائمة أو كالمخدرة، غير مهتمة بما يدور حولي. قيل لي أن الطقس قاس في شهر فبراير بفرنسا. وينبغي أن تكون لدي أحذية مناسبة، ومعطف دافئ. اكتشفت كمية من الثياب والملابس في خزانة بالمنزل؛ كانت أمي تشتريها لي كلما زارت تونس. وكانت تردد لأبي : «هذه ملابس لثريا، فهي ستعود للبيت هذه السنة لا شك».

منذ خمس سنوات وأمّي تنتظر عودتي. في النهار تمسك العائلة بقبضة من حديد وتواجه الأسئلة الماكرة. وفي الليل، تبكي، وتدعو الله أن يحمي ابنتها وأن يرجعها إليها. لكنني اليوم، لم أعد صغيرتها المدللة، بل صرت خيبة حياتها.

أيقظني أبي في وقت مبكر. كان وجهه شاحب اللون، بل كان مصفرا كالحنظل الجاف، وشفتاه بيضاء كمن أُخْرِج من تابوت....كان في وضـع لم أره عليه مرة في حيـاتي.

لنقل إنه كان ميتا من الرعب. وقد وضع مثبتا وسرح شعره إلى الخلف، ولبس بذلة داكنة لم أراها عنده من قبل، فوقها سترة جلدية، ونظارات شمسية قاتمة، حتى أنه صار يبدو وكأنه عضو عصابة أو جاسوس. أما أنا فقد ارتديت بنطلون جينز أزرق وقميصا، وتلحفت بخمار أسود، ووضعت أنا أيضا نظارات شمسية كبيرة غطّت نصف وجهي. واتصلت بأمي التي كانت يومها في «سرت»، وودعتها بصورة خاطفة، وباردة. ثم ركبنا سيارة أجرة، وانطلقنا إلى المطار. كان أبي ينظر إلي في توتر شديد، وسألني : «ما بك يا ثريا ؟ كأن الأمر لا يعنيك!». وبالفعل كنت غير مضطربة على الإطلاق، بل كنت على درجة غريبة من الهدوء. فما الذي يمكن أن يحصل لي أكثر مما وقع ؟ أن أُقتل مثلا ؟ كنت أشعر في أعماق أعماقي أن الموت عندها ستكون نهاية مريحة لعذاباتي.

في المطار، كان أبي يتصرف بحذر شديد وينظر في جميع الاتجاهات. يراقب ساعته، وينتفض كلما احتك به شخص...في الواقع خشيت يومها أن يصاب بسكتة قلبية. كان قد طلب من أحد أصدقائه أن يضمن عدم تسجيل اسمي على قائمة المسافرين، ولا حتى الحروف الأولى من الاسم، وهو الأمر الذي تأكد بشأنه عند المطار. وبعد أن تجاوزنا الرقابة الأمنية، أستمر بلقي ونحن في قاعة الانتظار، بنظرات خفية حوله. كان يشك في كل راكب منزو أن يكون من جواسيس القذافي. كان أبي كمن يلعب دورا في أحد أفلام جيمس بوند. وفي الطائرة، وحتى لحظة الإقلاع، استمر يراقب المدخل، عاجزا عن النطق بكلمة.

كان يتنفس بصعوبة، وقد جف ريقه. وبقيت يداه منكمشتين على المتكأ إلى أن هبطت الطائرة في روما. وكأنه كان يخشى أن يتمكن القذافي من أن يحول وجهة الطائرة. فهو لم يبتسم إلا حين حطّت الطائرة على مدرج المطار.

اختار أبي قد روما كمحطّة عبور للتمويه، وحتى لا يعرف أحد وجهتي النهائية. كان لدينا بضع ساعات من الانتظار، فذهبت إلى الحمام ونزعت خماري الأسود، ووضعت شيئا من الماكياج : كُحل وأحمر شفاه وردي، وتعطرت قليلا. فنحن نقصد باريس، مدينة الجمال والموضة ؛ حيث سأضع حدا لحياة المذلة والمسكنة.

على الأقل هذا ما كنت اعتقده.

9

بـــاريـــس

كنت أحلم بمشاهدة بـــرج ايفيـــل. غير أننا ركبنا قطار المدينة السريع نحو ضواحي باريس، حيث كان ينتظرنا في منطقة «كرملين-بيسانر». أحد أصدقاء أبي في أحد مطاعم الأكل الحلال. كنت أحلم وأنا أفكر في باريس بالولوج إلى عالم جديد...... لكنني أصبت بخيبة أمل، لما وجدت نفسي في ذلك الحي محاطة بالعرب لا غير. وسألت ابي في دهشة : «هل هذه فرنسا؟».

كان الطقس شديد البرودة، وكنت أشعر بأنفي ورجلاي وقد أخذوا في التجمد، بينما كنت أرى كل الأشياء من حولي بعين نافرة. أخذ أبي يشجعني ويقول : «غدا سيكون كل شيء على ما يرام». قضينا الليلة في فندق صغير في «بورت دي إيطالي»، حيث كنا نشاهد من شرفته كل الشوارع المحاذية. استيقظت وأنا على رغبة حارقة في التدخين، حتى أنني لم أعد قادرة على التفكير في شيء آخر.

كان لدينا موعد مع «حبيب» صديق أبي، والذي انتظرناه في إحدى المقاهي القريبة. كانت الفتيات يدخن في الشرفة بكل أريحية، وبشكل عادي. وقد أعاد هذا المشهد إلى خاطري بعض الأمل، فهنا لا يعد تدخين الفتاة خطيئة، ولا نقيصة كما يرى البعض في ليبيا. وطلبت قدحا من الكاكاو بينما طلب والدي فنجان قهوة، قبل أن يخرج للتدخين. لم يكن في إمكاني أن أخرج معه لأدخن بدوري، فهو لم يكن ليسمح لي بذلك. فأسرعت نحو الحمام لتدخين سيجارة «مارلبورو» : وقد كنت اشتريت سرا علبة.

وسرعان ما جاء حبيب ودعانا لمرافقته إلى بيته، في «بورت دو شوازي». عندها تلقيت اتصالا هاتفيا من أمّي، لتخبرتني أن الصدّيق؛ سائق باب العزيزية، قد جاء إلى بيتنا في طرابلس ليسأل عني؛ وأنه شدد : «أين هي ثـريـا؟ لماذا تغلق هاتفها؟»، وأنهم أخبروه بأنني في «سرت»، فاكتفى بهذا الجواب، وعاد من حيث أتى.

كان سؤال باب العزيزية عني قد أربك أمّي كثيرا، وتداعى الأمر على والدي الذي اخذ يرتعد، وأصفر وجهه، ثم سقط مغشيا عليه أمام حبيب، أسرعنا به إلى المستشفى، حيث بقى حتى منتصف الليل، وخرج منه وهو عاقد العزم على الرجوع إلى طرابلس في الحال.

سلمني 1000 يورو، بدت لي حينها كأنها ثروة، وشريحة هاتف فرنسي، وطلب من حبيب أن يؤجر لي بيتا صغيرا، ثمّ غادر نحو المطار. لم يقبلني، بل اكتفى بإشارة خفيفة، كان في منتهى القلق والتوتر، وكنت اعرف فيما كان يفكر

ثم قال لي : «إذا منحني الله عمرا جديدا، ولم يتم قتلي، سأرسل إليك المزيد من المال».

بكيت بحـــرقة وأنـــا أودعـــه.

*

أجرّ لي حبيب غرفة مؤثثة في فندق قرب «بورت دو شوازي»، ورغم إن هذا السكن لم يكن في وسط باريس، لكنه كان على تواضعه مقبولا بدرجة كافية. كانت موظفة الاستقبال مغربية، فكنا نتحدث باللغة العربية. وقد استوعبتُ بسرعة خارطة الحافلات وقطارات الأنفاق؛ وقادني أول تمرين في استعمال القطار، إلى الحي اللاتيني، حيث كنت قد نزلت بميترو «سان ميشيل». هناك جلست إلى أحدى مقاهيه الجميلة اشرب القهوة وأراقب المارّة. كنت أشعر أنني حرّة ! حرّة ! كنت أكرر ذلك دون اقتناع حقيقي. فلم تكن لدي أي خطّة، أو أي مشروع. ولم يكن لدي أصدقاء، ولا معارف. ولكني كنت حرّة، وكان ذلك في ذاته أمرا ممتعا.

في صباح الغد، ركبت الميترو إلى محطة «الشانزليزيه»، فقد كنت أحلم بـــرؤية هذه الجـــادة الأسطوريـــة منذ كنت صغيرة. كانت السمـــاء صـــافية، وكان الشارع أوسع مما تخيلت، وتعرفت على مقهى «دوفيل» : في المكان عينه الذي أخبرتني عنه والدتي، اتصلت بها من أمامه، وأنا أصـــرخ في بـــهجة : «مـــامـــا مقهى دوفيل لا يزال أزرقا !». كنت أعرف أني ضربت على وتر حساس لديها، فقالت لي في حنان : «هل رأيت كيف يعيد التاريخ نفسه؟

ابنتي تسير على خطاي حين كنت في العشرين...كم أود لو أكون معك يا ثريا!».

قصدت محل «سيفورا» الذي كنت أسمع عنه من مبروكة عندما كانت تتبضع من باريس. وأخذت أجرب في جناح العطورات. كل الماركات. تحت أنظار الحراس المتشككة. اقترحت علي إحدى البائعات أن أشترى قارورة عطر «باريس. لإيف سان لوران». كان علي احتساب ما لدي من مال. لدي 1000 يورو. الفندق بـ25 يورو لليلة الواحدة. 25 يورو للغذاء والتنقل. بمعنى أن هذا المبلغ سيُكفيني لمدّة عشرين يوما. فقلت لنفسي لا داعي للعطر إذا. أغراني جناح الماكياج. لكني أدرت له ظهري. سيكون هذا برنامج الغد. سأتجول في كل الأجنحة وأزورها شبرا شبرا. فأنا أملك فائضا من الوقت.

على جادة الشانزليزيه. وقع نظري على عشيقين يقبلان بعضهما بحرية كاملة. فتذكرت هشام. وأخذت أعاند نفسي حتى لا أستجيب لرغبة حارقة في الاتصال به على الفور. ما الفائدة من ذلك ؟ لست إلا مصدر إزعاج له. ومع ذلك أسرعت إلى شحن بطاقتي الهاتفية. وما إن استمعت إلى صوته. حتى انهمرت دموعي بحرقة. نطق بصوت مختنق : «يومان منذ أن سافرت ! يومان وأنا أفكر فيك دون انقطاع !...سألتحق بك حالما أستطيع. لقد بدأت في إجراءات الحصول على جواز سفر». هل يفكر بجدية في ذلك ؟ أيرغب في العيش بالقرب مني فعلا ؟ آه. رباه ! لم أعد استطيع الانتظار. لابد من تسريع الإجراءات كي يحصل على جواز السفر «الملعون». إنها

وثيقة نادرة وثمينة في ليبيا. ولكن يمكن شراء كل شيء بالمال. وأسرعت للإتصال بوالدي. وأخذت أعاتبه : «إنك لم تترك لي إلا 1000 يورو ! هذا مبلغ زهيد جدا ! كيف تريدني أن أندبر أموري؟». في الغد. أرسل لي مبلغ 2000 يورو. قمت بتحويل نصفه إلى هشام.

هنالك.على الشانزليزيه سيقودني القدر للتقاطع مع بعض الأشخاص. والذين ستكون تداعيات معرفتي بهم على درجة من السلبية على حياتي في باريس. بل إنني اليوم على وعي بإن ذلك قد أفضي بي إلى طريق مسدود فيما يتعلق بإقامتي هناك. وحتى أكون أكثر دقة. إلى الفشل الكلي لمشروع هجرتي إلى فرنسا.

من المؤسف الاعتراف بذلك. ومن المؤلم الإقرار بأني فرطت في فرصة ذهبية. كيف كان ذلك ممكنا ؟

يبدو أني أخطأت في منح ثقتي لمن لا يستحقها. وأني قمت باختيارات سيئة. لقد كنت على درجة مأسوية من السذاجة. ولكن هكذا كان..... فقد وصلت إلى باريس في شهر فبراير عام 2009. وأنا لم أبلغ سن العشرين بعد. ولم أكن أعرف من الحياة أي شيء: غير الخمول والانحراف وألاعيب العالم الصغير الذي كنت سجينة بين أسواره. لا أعرف شيئا عن عالم العمل أو العلاقات الاجتماعية أو توظيف الوقت. أو التصرف في المال. أو العلاقات المتوازنة بين الرجل والمرأة. لا أعرف كيف أخوض في الدنيا. فأنا لم أقرأ صحيفة أبدا...

كنت جالسة على مقعد عمومي «بالشانزليزيه»، عندما اقتربت مني امرأة شقراء، وقالت :

- أهلا. هل المكان شاغر ؟

- نعم، قلت لها. ثم سألتها بالفرنسي : «ما اسمك؟». وكنت أعرف هذه الجملة.

- أسمي وردة.

- آه، هذا اسم عربي !

كانت الفتاة من أصول جزائرية. وبسرعة تواددنا، وقالت لـــي : «يبدو أنك وصلت إلى باريس منذ فترة قصيرة، من أين قدمت؟».

- خمني....

- من المغرب؟

- كلا، من بلد لا يمكن أن تفكري فيه أبدا.

- من تونس ؟ من مصر ؟ من الأردن ؟ من لبنان ؟

- كلا. من بلد متوسطي واستراتيجي.

- من الجزائر مثلي ؟

- كلا،

- إذا لا أعرف

- من ليبيا

- آه ! من بلد القذافي، رائع ! إنه بطلي المفضل، لا تتصوري كم هو جذاب ! حدثيني عنه !

– معجبة بالقذافي ؟ اجتاحتني رغبة عارمة في البكاء، وقلت لها معترضة : «بل هو وغد ! وخبيث !».

– أتمزحين ؟ هل استمعت إلى خطاباته ؟ هل رأيت كيف يتحدى أمريكا ؟ إنه عربي أصيل ! ويملك كاريزما جنونية!».

تابعنا نقاشنا في مقهى، حيث التحق بنا صديقها، كان يشتغل حارسا بملهى ليلي بمنطقة «مونتروي». وبدأ يخططان لبرنامج السهرة، واقترحت علي وردة مرافقتهما. أعجبتني الفكرة، وقلت في نفسي : «يا له من حظ سعيد!».

كان المكان الذي أخذوني إليه عبارة عن مطعم عربي، يتحول بعد منتصف الليل إلى ملهى ليلي، به أوركسترا موسيقية وراقصة. آيه ! لم يكن المشهد غريبا عني ! كل من المشرفين والزبائن أثرياء شرقيون يتخاطبون باللغة العربية. كنت مغتبطة، ومتبسطة، وراغبة في الاحتفال. أشارت لي وردة «انظري إلى يمينك، في الطاولة المحاذية، هناك رجال ينظرون إليك».

– ماذا في ذلك ؟ لا أريد أن أنظر !

– كوني مهذبة ! إذا كنت لطيفة، سيدفعون ثمن شرابك وأكلك. ثم قالت لي : «تعالي ارقصي!».

تبعتها عن دون طيب خاطر. وقد كنت جد محتارة؛ حيث لم أكن أدري نحو ماذا كانت تستدرجني ؟ وسرعان ما التحق بنا على حلبة الرقص عدد من رواد الملهى،

الذين أخذوا يتوددون لنا. ويتجرأون مع الوقت أكثر فأكثر.... حتى إن بعضهم صار يرشقنا بالأوراق النقدية. كما يفعلون مع الراقصات المحترفات. هنا اجتاح الغضب رأسي، وتوجهت لوردة وأنا أقول لها : «تعالي، لا أرغب في ذلك!». على أنني، وأنا أغادر الحلبة، وجدت نفسي وجها لوجه مع مدير الملهى، والذي سألني : «هل أنت بالفعل ليبية؟». وعندما أجبته بالإيجاب ؛ هم بالميكرفون : وأخذ يقـول : «سيداتي ســادتي، لنحيي جميعا ليبيا، والعقيد القذافي!» عندها وددت لو أن الأرض ابتلعتني. لكنه واصل «تعالي! تعالي غني معي أغنية للعقيد!» وأخذ يدندن إحدى الأغاني المقززة التي تتردد في الإذاعة الليبية : «يا قائد ثورتنا على دربك طوالي.......». كنت أريد أن أمحى من الوجود. هل من المعقول أن يلحقني شؤم القذافي إلى هنا ؟

أسرعت نحو الحمام. وأغلقت الباب على نفسي وأجهشت بالبكاء.

*

بقيت حبيسة غرفتي مدّة أسبوع كامل، مشوشة. لم أخرج إلا لشراء السجائر ورصيد الهاتف. حيث أدركت أنني لم أفق من الكابوس بعد. وإن شبح القذافي لا زال يتابعني أينما حللت. هل لباب العزيزية عيونا وأذانا في كامل الكرة الأرضية ؟. ألم يتمكن جواسيسه من اغتيال رموز المعارضة في أقصى بقاع الدنيا ؟ إذا...هل بإمكاني الإفلات من براثنه ؟.

فرغم أنني لم أصل إلى باريس إلا منذ قليل، إلا أني بت أشعر أنني أنخرط في طريق مسدود. ومما زاد الطين بله، أنني لمحت في إحدى الليالي فأرا في غرفتي، الأمر الذي أصابني بذعر شديد. وكأن تيارا كهربائيا قد صعقني أخذت ألملم أغراضي، وهرولت نحو مكتب الاستقبال، وسددت ما علي. ثم اتصلت بصديق والدي «حبيب»، وأنا أرتعد من الخوف. فقال لي عندما أخبرته بما جرى : «تعالي، اقضي الليلة في منزلي، وسنرى غدا ماذا يمكن فعله».

ذهبت للمبيت عنده، حيث أعطاني إحدى الغرف، إلا أنه، وفي الرابعة فجرا، تسلل إلى فراشي!. نعم : صديق أبي حاول اغتصابي، فصرخت، وحملت حقيبتي، ونزلت من السلم مسرعة، ولذت بالفرار. كان الطريق مقفرا ومثلجا. أين سأذهب يا رب ؟ فكرت في وردة، واتصلت بها، لكنها لم ترد. فقصدت محطة الميترو وانتظرت أن تفتح لأفترش إحدى مقاعدها. غير إن أحد صعاليك المكان، والذي كان مخمورا حتى الثمالة ؛ جاء يزعجني، لأغرق أكثر فأكثر في تعاستي ؛ ودموعي التي صارت تنهمر دون انقطاع. اتصلت بهشام، لكنه لم يرد كذلك. حاول صديق أبي الاتصال بي، كان يعاود الاتصال دون انقطاع كالمجنون دون أن أرد على مكالماته.

مع مطلع الصباح، صعدت إلى سطح محطة الأنفاق، اندسست في مقهى «بورت دو شوازي» التي شرعت في فتح أبوابها، وطلبت قدحا من القهوة. فجأة، اقتحم عشرات من البوليس المكان. ذعرت. هل أصدر القذافي أمر توقيف دولي بشأني ؟

كانت وردة قد نصحتني بتجنب «حملات المراقبة البوليسية الروتينية!». لكنني لم أكن في وضع يسمح لي بالفرار. فهم أمامي وقد توجهوا نحوي. قدمت جواز سفري بيد مرتعشة. ابتسم لي شرطي من أصول مغاربية، وقال لي: «لماذا أنت خائفة ؟ لديك تأشيرة، ووضعيتك قانونية!». كنت أشعر بالشلل التام، عاجزة عن النطق ولو بحرف واحد. فدس الشـــرطي رقم هــاتفه في يدي وهو يغمزني بطرف عينه، وهو ما أشعرني بالنفور التام منه.

دخلت المقهى مجموعة من الفتيات. كن على درجة من الأناقة والثقة بالنفس. وكان يبدو أنهن على الأرجح زميلات في نفس المؤسسة. فأخذت اراقبهن بإعجاب، وأنا أقول في نفسي إن الفرنسيات يملكن ذوقا رفيعا ! مكياجا راقيا، وملابس أنيقة..... وأنهن يرتدن المقاهي، ويدخنّ، ولديهن شغل محترم مثل الرجال.... ولكن فجأة، استدارت إحداهن نحوي وهي تصرخ في وجهي : «لماذا تحدقين بي هكذا ؟ هل لديك مشكلة ؟» آه ! هذه الجملة ! بقيت تطرق رأسي، رغم أني لم أفهمها في حينها. كان وجهها ينبض بالازدراء والحقد ؟ لماذا كل هذه الشتائم ؟ ما أنا إلا معجبة. وإذا كان وجهي يبعث على الريبة، فهذا لأنني لم أنم طول الليل.

كان النادل ودودا. يتكلم العربية أيضا. قلت له : «علي تعلم الفرنسية، إنها مسألة مستعجلة !». نصحني بالذهاب إلى «الأليانس فرنسيز» التي تقع في منطقة مونبرناس. وكتب لي العنوان على قصاصة ورق. فركبت الميترو وحقيبتي في يدي. ونزلت في محطة قرب برج إيفل. طبعا لم أعرف

المكان، فوجدت نفسي تائهة. ولاحظت باستغراب إن لا أحد من سكان هذا الحي يتكلم اللغة العربية. جلست في مقهى، ولكن على حين غرة ظهر أمامي شخص ما كنت أتوقع أن أراه هناك ؟ إنه حبيب، صديق أبي ! والذي كان يشتغل في إحدى المؤسسات القريبة. فبادرني بالسؤال: «ثريا، لماذا لم تردي على مكالماتي ؟ لقد قلقت عليك كثيرا»!

– لا تنطق باسمي، ابتعد عني، وإلا سأخبر أبي بما فعلت!.

لكنه لم يبالي بتهديدي وجذب كرسيا وجلس أمامي. وهو يقول : «هدئي من روعك. كل ما أرغب فيه هو مساعدتك، وأعدك بأنني سأجد لك شغلا، وبطاقة إقامة».

– أغرب عن وجهي...! أو دلني بالأحرى على مكان الأليانس فرنسيز.

كانت الأليانس فرنسيز لا تبعد كثيرا من المقهى الذي كنت فيه. بالداخل وجدت مجموعة من الجزائريات، تسأل عن تكاليف التسجيل. في الواقع هن من نصحني بالاستفادة من الدروس المجانية في البلديات. واقترحت إحداهن أن ترافقني بسيارتها إلى بلدية الدائرة السادسة التي لم تكن تبعد كثيرا عن مقر المدرسة. كانت قاعة الانتظار بالبلدية مكتظة بالعرب والأفارقة. غير أن أحد الأساتذة قال لي على الفور : «أنت محظوظة. فقد بدأ أول درس منذ قليل، ادخلي بسرعة!». وجدت بالفصل امرأة واقفة، تتهجى حروف الأبجدية المكتوبة على الصبورة :

A-B-C-D-E... كنت اعرف الحروف منذ الإعدادية في «سرت». لذلك أخذت أفكر بأنه لو يجب علي أن ابدأ من جديد من الصفر، فهذا يعني بأنني سأقضي أشهرًا لكي أتعلم الفرنسية، في الوقت الذي لم أجد فيه بعد حتى مكان أقيم فيه ! لذلك صرفت النظر عن دروس الفرنسية !.

هنا، اتصلت بي وردة، وأخبرتها بأنني في الشارع، فقالت بعفوية : «تعالي اسكني عندي ! فأنا أقيم بمفردي مع ولدي الصغير». هكذا وجدت مؤقتا سقفا آوي إليه (بيبورت دو منتروي)، وصديقة (تدربني قليلا على استعمال اللغة)، وبيئة (عربية). كان كل ذلك مصدر طمأنينة في البداية، ولكنه سيكون مصدر خسارة بالنهاية.

*

منذ الليلة الأولى، حاولت وردة إقناعي بالذهاب معها من جديد للملهى العربي. رفضت في البداية، ثم استجبت لها خوفا من أن أجد نفسي في الشارع من جديد. هناك عرفتني على شاب تونسي في منتهى اللطافة والأناقة أسمه عادل، والذي سرعان ما سيقع في غرامي، لكنني كنت واضحة معه منذ البداية، وأخبرته بأني مرتبطة بشخص آخر، وأنني سأبقى وفية له. في الواقع هو لم يتعجل معي الأمور، واكتفى بالاهتمام بي بكل رقة وأدب، حيث واصل المجئ إلى «الملهى»، ودعوتي للأكل أو الشرب، كانت وردة تستهلك مع أصدقائها كميات كبيرة من الخمور، أما أنا فكنت أطلب عصير الفواكه. لقد استحلفني هشام بالقرآن أن لا أضع قطرة كحول في فمي. هكذا، قضيت

الأشهر الثلاثة الأولى من إقامتي الباريسية على هذا النحو الجنوني. ثم انتهت مع نهاية هذه الأشهر، المدة القانونية للتأشيرة الفرنسية. وأخذ الخوف يصعد لرأسي. وصرت أتحرك بحذر شديد، وأخفي جواز سفري في غرفتي، حيث لم أكن أريد المجازفة. وانقطعت بالتالي عن الذهاب إلى «الملهى». وعندما أعلمت وردة بأمر التأشيرة، ضحكت، وقالت لـــي : «لا عليك ! كل فتــيات الملــهى في مثل وضعيتك!». ولكن المال الذي كان معي قد أخذ بدوره في النفاذ، وتدهورت علاقتي بوردة إلى حد أنها أخذت تمنعني من لمس ما يوجد في الثلاجة، وكانت تقول لي : «إنها لأبني!». استنجدت بأبي لينقذني، فهاجمني : «كيف تبذرين أموالك ؟ ابحثي عن عمل يا ثريا ! اغسلي الصحون حتى»! لقد جرحني ما قاله أبي. فقلت له : «إذا أردتني أن أعود مباشرة إلى باب العزيزية ! فإن ذلك لا يزعجني!». هكذا أرسل لي 500 يورو. لم يبقى منها إلا 100 يورو، بعد جولة قصيرة مع وردة في السوبرماكت لتعويض ما كانت تتصور أنني استهلكته من الثلاجة.

اقترح علي عادل أن أسكن عنده. كانت شقته كبيرة بما فيه الكفاية، حيث قال إنه سيمنحني إحدى الغرف. وأكد لي بأنه يمكن لي أن أتقاسم معه الشقة دون أن أخشى على نفسي منه. «رائع، إن هذا هو الحل الأمثل». قالت وردة، الأمر الذي كان يعني ببساطة : إرحلي عن بيتي.

هكذا قضيت قرابة ستة أشهر في منطقة «بانيو» في الضواحي الباريسية. ستة أشهر من الهدوء النسبي مع عادل، الذي يدير مؤسسة مقاولات صغيرة، التزم خلالها

بأن يبقى صديقا لطيفا ومهذبا. يذهب صباحا إلى عمله. ويترك لي 50 يورو لأكلي. ولشراء ما يلزم للبيت. كان يعلم أنني مغرمة بشخص آخر. ورغم أنني أعرف إن ارتباطي بآخر كان يحزنه، إلا أننا نجحنا في التعايش في إطار صداقة متناغمة. كنت أثق فيه. وحين قصصت عليه مأساتي مع باب العزيزية، صدقني على الفور. حيث كان لديه أصدقاء ليبيون، سبق وأن حدثوه عن اختطاف الفتيات من المدارس. بينما رفضت وردة تصديق حكايتي من أساسها. يا إلهي يالي من غبية لأقص عليها حكايتي.! فقد كانت تدافع عن القذافي بحماس المؤمن. وكنت أمرض لمجرد سماع ما تقول. «إنه شرف العرب. أنه الوحيد الذي رفع رأسه. وحمل المشعل. إنه قائد بأتم معنى الكلمة. والقائد لا تصدر منه تصرفات وضيعة. وكم هو تصرف وضيع من طرفك أن تنسجي لنفسك اسطورة على حسابه». وكان يصعب عليّ إحتمال هذا الخطاب.

وفي إحدى الليالي. بعد أن عدنا من حفلة عيد ميلاد عادل ؛ نظمها في «الملهى» قرب ساحة «ناسيون». التحق بي في غرفتي. ضغط علي وألح بشدّة. فاستسلمت له. بدت مشاعره صادقة ومؤثرة. ويبدو أنه صارح أصدقاءه برغبته في الزواج مني. لكنني بقيت صارمة وثابتة في موقفي؛ فأنا لست حرّة. وسيلتحق بي صديقي حالما يحصل على جواز السفر. خلال بضعة أسابيع. بدأت الغيرة تنخره. وفي أحد الأيام. بينما كنت استحم، ردّ عادل على مكالمة من هشام. وتعالت النبرات ثمّ ارتفع الصراخ. حين أسرعت إليه مذعورة. قطع المكالمة، وهو يصرخ : «ولد الق... !»

لم أقبل هذه الخيانة. بأي حق يرّد على هاتفي ؟ اتصلت بهشام مرارا. لكنه رفض الرد على مكالمتي. هذا التصرف من عادل جعلني أنفجر غضبا. لقد دام الوضع «غير الواضح فيما بيننا». أكثر من اللزوم. وكان علي أن أرحل. وأبحث عن شغل.

قدّمني أحد المصريين كنت قد قابلته لدى تاجر تونسي، إلى منار، فتاة مغربية تشتغل في مطعم-حانة، يملكه قبائلي، في شارع صغير «بمونتروي». تعلمت صنع القهوة، وتقديم الجعة المضغوطة. كنت أتقاضى يوميا 50 يورو وقد يصل دخلي إلى 100 يورو في اليوم مع الإكراميات ! وهو راتب معقول جدا. خاصة وأنهم قد وفروا لي السكن مع مغربية أتقاسم معها «استديو» في الطابق العلوي. هكذا اشتغلت مدّة شهر ونصف في هذا المقهى، دون أن أنتبه إلى الجانب المشبوه في هذا المكان. فقد كان المالك يسدل الستائر أحيانا، حيث كانت مجموعة من النساء ترقص عاريات. وما زاد من حفيظتي أن شريكتي في السكن كانت تسرقني. فقررت أن أغادر المكان ببعض الملابس التي تبقت لي. واتصلت بوردة التي بقيت على تواصل معها، فعرفتني بتونسية تشتغل في حانة بمنطقة «بورت دي ليلا» بباريس. حيث باشرت العمل بغسل الصحون في المطبخ، ثمّ تدربت على تسجيل الطلبات وتلبيتها. وذلك قبل أن يلاحظ صاحب الحانة أن هناك زبائنا صاروا يأتون خصيصا من أجلي. فطلب مني البقاء في القاعة، الأمر الذي استفز التونسية. في هذا الجو كان البعض يعاملني كصيد سهل، بينما كان البعض الآخر يعاملني كخادمته. ومرة أخرى،

عندما عدت من العمل لغرفتي التي أتقاسمها مع فتاة مغربية، اكتشفت أن ملابسي وأغراضي قد سرقت.... فأخذت حقيبتي وغادرت المكان.

هكذا وجدت نفسي من جديد في الشارع، مشردة. لا أعلم بمن أتصل. ففكرت في المصري، الذي استقبلني في شقة كبيرة يقطنها مع العديد من الأشخاص. لم يطلب مني شيئا، لكن أحسست بحرجه. كنت في نقطة الصفر. أين مستقبلي ؟ أي دور أريد تأديته في باريس ؟ فأنا لم أتعلم الفرنسية، وإقامتي غير شرعية، إي أنني مهددة بالإيقاف في كل لحظة. أنا لم أنجز أي شيء. وحين اتصل بي هشام، وظهر اسمه على شاشة التلفون، شعرت بجرعة أمل تسري في جسمي. تذكرني في اللحظة التي أكاد أغرق فيها. سألته بإلحاح «متى تأتي؟، أنا في حاجة إليك!»

– لن آتي أبدا. هل تسمعينني ؟ لن آتي أبدا ! فأنت لم تستطيعي أن تبقي وفية لي !

أصابني الدُوار. اتصلتُ مباشرة بأمي، وأخذت أصرخ عبر الهاتف : «كل ما حدث لي من تحت رأسك ! إنه خطؤك. حياتي كلها زيف، آه يا أمي، أنا بائسة. أنا بائسة! لا أعرف ماذا أفعل ؟ لا أعرف فيمن أثق ؟ أو أين أذهب؟ لقد انتهيت، وكل هذا بسببك أنت».

– بسببي أنا ؟

– لم أكن لأهاجر، لو قبلت بهشام !

– آه يا ثريا لا تقولي مثل هذه الترهات، عودي إلى المنزل، واضح أن فرنسا لا تلائمك، عودي إلينا.

لم يخطر ببالي حتى تلك اللحظة فكرة العودة إلى ليبيا. أعود ؟ ولكني لست في نزهة سياحية ! ولا حتى في هجرة طوعية ! لقد كنت فارة وهاربة ! ويبحث عني أحد أعتى الرجال في العالم !. في الواقع أنا صببت جام غضبي على أمي. لكنها ليست السبب في ما أصابني من جحيم، بل هو القذافي من كان السبب. إنه السبب الرئيسي في رحيلي. وقلت لأمي : «ولكن ألا تعني العودة مجازفة خطيرة جدا، يا أمّي. فهم سيعودون للبحث عني. ولن يتركونني في سلام أبدا».

- سنتدبر أمر إخفائك. فقد تعرض أبوك إلى إزعاجات كثيرة. ولكن ستعيشين معي في «سرت». هم بحثوا عنك كثيرا في البداية. وأعتقد أنهم قد هدؤوا الآن. لا أريدك أن تبقي تعيسة في باريس.

بتصميم غريب. أخذت قراري في بضع ثواني. فأنا لم استوعب نظام العمل في فرنسا. هذا البلد يعجبني، لكنه لا يلائمني، وأنا حتى لم أتعلم اللغة الفرنسية. وقد استحسنت وردة فكرة عودتي لليبيا. لكنها ذكرتني بانتهاء صلاحية تأشيرة الدخول، الأمر الذي يعني بأنني يجب أن أدفع غرامة كبيرة في المطار. واتصلت بأحد معارفها : وهو شرطي بمطار «رواسي شارل ديغول» ليسهل لي إجراءات الرحيل، بعد ثلاثة أيام. ولأتجنب منعي من العودة إلى التراب الفرنسي، سلمته 1500 يورو : وضعها في جيبه. هذا ما فهمته على كل حال. الحمد لله. إن والدتي كانت قد أرسلت لي 2000 يورو في ذاك الصباح.

في 26 مايو 2010، ركبت الطائرة المتجهة إلى ليبيا، وفي يدي حقيبة شبه فارغة. لا تضم إلا بعض الثياب. لا كتاب، ولا حتى مجرد صورة، فأنا لم أخرج من الأشهر الخمسة عشر التي قضيتها في مدينة النور. حتى بذلك البورتريه، الذي رسمه لي أحد الرّسامين، في يوم ربيعي تحت برج إيفل. فلقد احتفظ به عادل للذكرى،

10

تشـــابك

لم يكن أحد في انتظاري بمطار «طرابلس». حرصت ألا يعلم أحد بقدومي. لم أتعرف على أحد في البهو الكبير. ولم ألاحظ أي نظرة مشبوهة لا من الجنود أومن رجال الشرطة. بمعنى أني صرت نكرة. أو لعل باب العزيزية قد أهمل مراقبتي.

واتصلت على الفور بهشام. كان مذهولا : «أنت هنا ؟ في ليبيا ؟... ابقي حيث أنت. أنا قادم !». أتى مسرعا في سيارة رباعية الدفع مع صديقين. نزل وهو يبتسم. حمل حقيبتي الصغيرة. لم نحتضن بعضنا البعض بشكل مكشوف. لما نظرت إليه. استعاد ثقته نوعا ما. كبر قليلا مقارنة بصورته في ذاكرتي. وهذا ما جعله مطمئنا أكثر.

توجهنا إلى المسكن نفسه الذي استعرناه سابقا من أحد أصدقائه. ودار بيننا نقاش طويل حول مختلف الاشياء. في الواقع لم يخف هشام غضبه. وخيبة أمله فـــيّ : لأنني

سكنت مع رجل آخر في باريس، لكني أكدت له : «لم يكن أكثر من صديق لا غير !».

- الصداقة مستحيلة بين رجل وامرأة!».

هو ذا ليبي بامتياز ! ثمّ حدثني إن جماعة باب العزيزية بحثوا عني في منزل عائلته. وتعرض أخوه للسجن، بينما هرب هو إلى تونس، وأنه قد تعرض لمختلف أنواع التحرش؛ سواء التهديد بالقتل، أو مراقبة هاتفه، وتعقب خطوه أينما توجه. وأنه لوحق في عمله، وانتشرت قصّتنا كانتشار النار في الهشيم. وصار على نحو ما ينعت بـ«عاشق قحبة القذافي». حتى أصدقاؤه المقربون قالوا له : «في نهاية المطاف، لا يمكن لك أن تتزوج من مومس!».

عندها ارتجفت من الخوف. ووالدي ؟ ما الذي حدث لهما ؟ ما هي الضغوطات التي سلطت عليهما ؟ ما هي التهديدات التي تعرضا لها ؟ وما هي العقوبات التي وقعت عليهما ؟ لقد تخليت عنهما، ولم أفكر إلا في حماية نفسي، كيف اقتص منهما القذافي لأنهما سماحا لي بالفرار ؟ وقلت لهشام : «أنني أريد رؤيتهما بسرعة. أعدني إلى المطار، سأتصل بوالديّ وأخبرهما أنني وصلت للتو».

قطعنا الطريق في صمت مطبق، وكان هشام يلفني بنظرات حزينة نحوي، بينما غرقت في هواجسي وأفكاري: كيف تخيلت أن باب العزيزية يمكن أن يتركني بسلام إلى الأبد ؟ وما أن وصلنا المطار حتى اتصلت بوالديّ، هما كذلك صعقا لخبر عودتي المرتجلة. وجلست في البهو أنتظر قدومهما.

فجأة. تقابلت مع أمال «غ»، والتي كانت قاصدة تونس مع أختها الكبرى.

– ثريـا ! يا لها من مفاجئة ! أين ذهبت ؟ سمعت أنك في باريس.!

– لا أبدا !

– لا تكذبي ! فمت بتحرياتي. قابلت هشام، وحدثني صديق في المطار كيف استطعت المغادرة.

– برافو للتضامن !

– تخطئين ! احتفظت بالمعلومات لنفسي، ولك أن تتصوري كم كان معمر ومبروكة هائجين....

قدم أبي مع أختي الصغيرة التي لم أرها منذ فترة طويلة. وأكد لي إن باب العزيزية قد فتشوا طويلا عني، وأنهم مارسوا شتى أساليب التهديد ليجدوني. لم يقل أكثر من ذلك، حيث يفترض إن أختي الصغيرة لا تعلم شيئا. انشغالي الأكبر كان حول ما سأخبر به أخي عزيز العائد من بريطانيا. كيف علي أن أتصرف كي لا أقوم بهفوات أمام الناس، كيف أبدو فعلا كأنني راجعة من إقامة مطولة لدى أعمامي وخالاتي في تونس.

لما بقينا بمفردنا، أطلق أبي العنان لغضبه معبرا عن المرارة التي كان يتجرعها : «لماذا عدت ؟ لماذا تلقين بنفسك في فم الذئب ؟ لماذا يا ثريا ؟ لقد تحملتُ كافة المخاطر، وعرضت نفسي للموت حتى أنقذك». وواصل: «تعرفيني إني هنا لا أستطيع أن أحميك. وهذا يجعلني

كالمعتوه.! لقد استطعت أن أضعك في مكان آمن، وفي بلد حرّ. لكنك أفسدت فرصتك! إنه جنون أن تعودي إلى ليبيا! جنون أن تعرضي نفسك من جديد لأذى باب العزيزية!».
في صباح الغدّ. توجهنا باكرا نحو «سرت». دامت رحلتنا قرابة الخمس ساعات. لم نتبادل فيها سوى بضع كلمات. لازال أبي حانقا علي. قابلت أميّ في صالون الحلاقة. احتضنتني بين ذراعيهـــا. «هــزيلة أنت، ولكنــك جمــيلة جدا...». تأملتني وهي تتراجع إلى الخلف، ويداي بين يديها. «بشرتك اسمــرّت قليلا !». لم أصارحها بأن هذه السمرة ناتجة عن «جلسة شمس صنــاعية» دفعتني وردة للقيام بها قبل رحلتي. هذه السحنة الخلاسية اللون كالأفريقيات، لم تعجب هشام كذلك.

– تشتغلين كالعادة يا أمّي ! أنك تكدحين دون توقف! لماذا لا تأخذين قليلا من الراحة؟ أنك تبدين جد مرهقة.

– في أي عالم تعيشين يا ثريا ؟ كيف ننفق على عائلتنا؟ كيف كنا نرسل لك المال في باريس. لو لم يكن هناك الشغل في صالون الحلاقة ؟.

مــا إن وضعت حــقيبتي في شقتنــا. حتى لاح لي رقم مبروكة على هاتفي كطعنة خنجر. تجاهلت النداء. لكنها طلبت ثانية وثالثة.... مسلوبة الإرادة. وكأنها قابعة معي في الغرفة. انتهيت للرد عليها :

– ألو ؟

– أهلا بالأميرة !

– ....

- قمنا بجولة قصيرة في فرنسا ؟

- من قال لك أني كنت في فرنسا ؟

- هل نسيت أننا الدولة. وإن أجهزتنا تعرف كل شيء، تعالي بسرعة لسيدك !

- أنا في «سرت».

- كذب ! بحثنا عنك في «سرت».!

- حاليا أنا في «سرت».

- حسنا. نحن ستكون في سرت أيضا الأسبوع القادم مع سيدك. تأكدي أنه سيجدك.

*

بعد بضعة أيام. اتصلت مبروكة من جديد : «أين أنت؟

- في صالون الحلاقة عند والدتي.

- ها أنا قادمة.

كنت كالطريدة. ولم اتمكن بالكاد من ان اقول لامي كـلمتين بهذا الخصوص. وقد اعتراني الرعب : حتى رن الهاتف من جديد : «أنا هنا. اخرجي فورا !»

كانت سيارتها واقفة أمام باب الصالون. وبابها الخلفي مفتوح، وما أن دلفت داخلها. حتى انطلق السائق كالسهم. ما هو الكابوس قد عاد من جديد. فقد كنت أعرف إلى أين تسير السيارة، ولا أشك فيما كان ينتظرني. ولكن ماذا كان يمكنني أن أفعل غير الخضوع لذلك. كي لا تدفع عائلتي ثمنا باهظا ؟

استقبلتني سالمة ميلاد بابتسامة مشحونة بالازدراء. بينما اخذتني فتحية من ذراعي وهي تقول : «تعالي بسرعة إلى المختبر. لا بد من إجراء تحاليل شاملة». لم أقاوم، لم أحتج. فقد تلاشت غريزة الحياة لدي، وتحولت إلى إنسان آلي. ثم انتظرت ساعتين أو ثلاثة، قبل أن تأمرني سالمة: «اصعدي إلى سيدك !». كان في لباس رياضي أحمر، أشعث الشعر، ونظراته شيطانية. حالما رآني أرعد قائلا : «تعالي يا قحبة».

قضيت بقية الليلة في الغرفة نفسها التي سبق وأن خُصصت لي أثناء عبورنا بسرت، بجانب فريدة. كنت مهشمة من كل ناحية، كنت انزف بغزارة، وقد كرهت نفسي لأني عدت إلى ليبيا. كنت ألوم نفسي على فشلي في فرنسا. وكيف أنني لم أعرف كيف أتدبر أموري ؟ أو كيف أتصرف ؟ وكيف أنسج علاقات مفيدة ؟ وكيف أحصل على شغل ؟

منذ اليوم الأول في «الشانزليزيه» اعتبروني فتاة سهلة، أو «قحبة» كما يقول القذافي. كان هذا النعت يبدو وكأنه يافطة مرسومة على جبيني. بدأت فريدة تستهزئ بي وتلعب بأعصابي. وتقول : «أعرف فتيات أخريات ذهبن إلى الخارج يشتغلن مومسات. حقيرات ! بلا شرف، بلا وفاء، وبلا قيم. فتيات مجاري، قبل أن يرجعن لرؤية آبائهن ورؤوسهن مطأطأة...».

لم أستطع التحكم في نفسي، انفجرت، ووثبت عليها وضربتها بهوس. لقد كنت في حالة هيجان قصوى لم أعش

مثلها بتاتا. حاولت مبروكة أن تفصل بيننا. لكنني كنت كلبؤة ترفض التخلي عن فريستها. وتشبثت بفريدة التي كانت تبكي من الرعب. ورفعت مبروكة صوتها وحاولت إبعادي. فزأرت في وجهها : «أنت. أغلقي فمك!». أصيبت بالوجوم. لم يخاطبها أحد من قبل بهذا الشكل. انسحبت كل الفتيات بهدوء أمام المعلمة الكبيرة. هرعت سالمة نحوي : وصفعتني صفعة بقيت آثارها مدّة طويلة على خذي. وقالت لي : «من أنت حتى تخاطبي مبروكة بهذا الشكل؟». اعتقدت للحظات أن دماغي قد تفكك جراء الصفعة. ثم جرتني عبر متاهة من الممرات المجهولة : نحو حجرة صغيرة مظلمة وقذرة. بلا نوافذ. بلا هواء مكيف في الوقت الذي كانت فيه الحرارة تفوق الأربعين درجة في الخارج. اختنقت بالرائحة الكريهة المنتشرة في أرجائها. وأرعبتني الصراصير التي كانت تتسارع أمام ناظري. بكيت. نتفت شعري. وصرخت إلى أن خارت قواي. متهالكة على فراش عفن. بعد ساعات. فتحت فتحية الباب : «سيدك يناديك». صعدت لأجد فريدة متكورة على العقيد. رأسها على صدره تداعبه وتقبله متأوهة : «ثريا شريرة ومجنونة. لو تعرف سيدي كيف كانت تضربني!». كانت تتكلم وهي تلقي بنظرات متوعدة تجاهي. قال لها : «لك الحق في صفعها. القحبة». فهبت تجاهي وصفعتني صفعتان. فصرخ فيها : «قلت لك صفعة واحدة ! ارحلي!». وطردها بنظرة من عينيه الحارقتين. والتفت نحوي. وقال : «آه ! يعجبني توحشك! أحب هذه القتالية ! وهذا التنمر!». ثم مزق ثيابي وألقى بي على الفراش.

«أرجوك ! أرجوك ! لا تلمسني ! أحس بآلام شديدة !

– تناقشين، أيتها النمرة ! أحب مزاجك الجديد، إنها فرنسا، التي غرست فيك هذا الهوس !.

كانت الدماء تسيل مني بغزارة، أخذ منديله الأحمر ومسح به الدّم، وهو يقول، ويعاود العصف بي : «أوه، كم هو لذيذ!»، صرخت : «يكفي أرجوك، أشعر بأوجاع شديدة!»، عندها جذبني إلى زاوية الحمام، وتبول فوقي، ولولوت من الألم، ضغط على الزر، أتت الأوكرانية كلوديا مسرعة بوجهها الملائكي المشرب بالحمرة، حملتني نحو المختبر وأعطتني مسكنات للألم، كانت حركاتها آلية، كمن تعود على ذلك. أردت العودة إلى غرفتي، واضطررت إلى تغيير الطريق، حتى لا أتقابل مع أعضاء وفد إفريقي كبير أتى لمقابلة العقيد في خيمته.

في الغد، أخذ الجميع يستعد للتوجه إلى طرابلس، تسمرت أمام مبروكة، وفي داخلي شيء من الصلابة، وعناد فولاذي، وقلت لها : «سأبقى هنا، أنا مريضة، لن أذهب معكم».

– أصبح رأسك كرأس بغل، متعجرفة، لا تطاقي، ولا تصلحين لأي شيء ! عودي إلى أمك!.

ألقت سلمى بـ1000 دينارا نحوي، مثل مومس تتلقى أجرتها بعد أن تنهي مهمتها الوسخة. وقالت لي : «ارحلي! السائق في انتظارك».

ارتميت داخل السيارة، وألقيت بنظرة على هاتفي. فإذا بعشرات المكالمات والرسائل من هشام. قرأت في إحداها، نصا كان يقول : «إذا لم تردي، يعني أنك مع الآخر. سينتصر دائما. وأنا لا رغبة لي في أن أعيش قصة مفرغة. من الأفضل أن أقطع هذه العلاقة». فتحت النافذة وألقيت بالجوال. وضعتني السيارة أمام منزلنا. وجدت أمّي وقد ضجرت من الانتظار، وكانت قد حاولت الاتصال بي مرارا، دون جدوى. لم تعد تحتمل، وأوشكت على الانهيار التام. قلت لها : «أريد أن أغير حياتي. يجب أن انطلق إلى عالم آخر، وفضاء جديد مغاير. أود أن أمحو من ذاكرتي كل صور الماضي من باب العزيزية إلى هشام».

- قابلت هشام من جديد ؟ كذبت علي مرّة أخرى ؟

- يا أمّي ! لقد منحني هذا الشخص القوّة لأتشبث بالحياة. لا يمكن أن أنساه.

نظرت إلي باشمئزاز كمتهمة لا كضحية. كأن هشاما والقذافي ينتميان إلى نفس عالم الفسق والفساد. وهو ما لا يمكنني القبول به.

صـــار منـــاخ المنزل مكهربا، ومجرد حضوري يثير حنق أمّي. لم أعد ابنتها، لست إلا امرأة عبث بها الرّجال. وتفتقر إلى كل قيمة أخلاقية. توجه نظراتها، وتأوهاتها وأفكارها، أصابع الاتهام لي. وإن لم تكشف حقيقة ما تفكر فيه نحوي صراحة. وكبتت كل تلك الأحاسيس في أعماقها.

وذات يوم، انفجر بركان غضبها : «لم أعد قادرة، هذه ليست حياة. بل لم تعد لنا حياة أصلا. لا أنا، ولا أبوك ولا

إخوتك : تستحق كل هذا ! أصبحت كل العائلة موضوع تندر لدى الجيران».

– عمن تتحدثين ؟ إذا اطلع الناس على الخبر، فذلك يعني أنك أنت من تكلم في هذا الصدد !

– ليسوا أغبياء يا ثريا ! فقد لا حظوا مسلسلات غيابك، ومواكب سيارات باب العزيزية. يا للعار ! لقد كنا أسرة محترمة، آه يا لها من ضغوطات.... ! يا لها من خسارة... !

فضلت الذهاب إلى «طرابلس» مع أبي، وهي مدينة أكبر، لعلي أشعر فيها باختناق أقل. حاول هشام إعادة الاتصال بي، وقف أمام منزلنا وشغل منبه السيارة، ثم هاتفني واضعا يديه حول فمه وكأنه مكبر صوت : وهو يناديني : «ثريا». خشيت ردود فعل الجيران، فسارعت للاتصال به من رقمي الجديد. لكن ما الفائدة من رؤيته؟ كيف يخاطر، مما يعرضه إلى غضب القذافي وشرطته؟ أعرف أنه قد يُقتل من أجلي.

حين وصلت أمّي إلى «طرابلس» لتقضي معنا عطلة الجمعة، تجرأت للحديث معها بشكل مكشوف عن مشكل في ثديي بفعل دعكهما المتواصل، وسحقهما وعضهما، كانا ثدياي متدليين ويؤلمانني.

أصابها الذعر، لابد من الذهاب إلى طبيب مختص في تونس بأسرع وقت ممكن. سلمتني 4000 دينارا، ونظمت سفري برفقة أخي الصغير، فالمرأة المحترمة لا تسافر بمفردها أبدا...

عند رجوعي. كانت في انتظاري أخبار سارة : زواج أخي عزيز بفتاة من «سرت». ويفترض أن أكون سعيدة. فحفلات الزواج فرصة للبهجة والتقارب. فالفتيات في سني مولعات بهذه المناسبات. لإبراز ملابسهن الأنيقة وحلاقة شعرهن الجذابة، وإظهار زينتهن...حيث قد يقع نظر خاطبة أو معجب من أحد الأقارب. بينما لم أحضر أنا أغلب الحفلات العائلية السابقة. فكيف يمكن تجنب النظرات والأسئلة والإشاعات التي أثارها غيابي ؟

اجتاحتني كآبة سوداء. وأحسست بدبيب الغيرة في جوانبي. لماذا لا أعترف بذلك ؟ ستكون العروسة جميلة وعذراء ومحترمة. أما أنا فهيمن علي شعور بأنني مستعملة ومستنفدة. أكاد أقول غير صالحة للاستعمال...أتظاهر بالتحفظ والبساطة، ومحاولة عدم جذب الأنظار. وأن أتسلل دون ضجيج. ورغم قلبها المكلوم وجروحها العميقة. حثتني أمّي أن ألبس فستانا طويلا. إلا أنني فضلت قميصا ملونا على سروال جينز أسود أنيق. ورحبت بالضيوف وخدمتهم برصانة. وأعددت إجابات جاهزة لكل الأسئلة الطارئة : درست في إحدى مدارس «طرابلس». ثمّ التحقت بكلية طب الأسنان. الحمد لله. كل شيء على أحسن ما يرام في حياتي. أوه. الزواج ؟ أكيد. يوما ما إن شاء الله...: ربي يسهل. ووشوشت بعض خالاتي في أذني «لدينا عريس لك». كنت أرّد بابتسامات فاترة. هكذا مر العرس بسلام.

استعادت الحياة نسقها الطبيعي في «طرابلس». وعاد عزيز ليعيش مع زوجته في الغرفة الكبيرة. وأنا في غرفة صغيرة. وبدأ أخي بلعب دور رب العائلة. جزع من سجائري.

وحاول ضربي، رغم أني لا أدخن إلا في الحمام. لقد كانت علاقتنا باردة، ويبدو أنه إحساس متبادل.

أتى سائق باب العزيزية للبحث عني عديد المرات، دون جدوى. كانوا يجيبونه بأنها ليست هنا. استغربت عدم إلحاحهم. غير أنني سرعان ما قمت بخطأ كان من شأنه أن يدمر ثقة أمّي بي نهائيا. فقد استعملت حجة الذهاب لباب العزيزية كغطاء للتسلل مع هشام في أواخر سنة 2010. يا لها من مهزلة ؟ تعللت بمكالمة من مبروكة وقلت لأمّي : «من المحتمل أن أبقى ثلاثة أو أربعة أيام». كان الأمر مقرفا، لكني لم أكن أملك إلا هذه الحجة لأتنسم قليلا من الحرية.

لما عدت، وجدت حربا معلنة في المنزل. فقد طلبوني بالفعل في باب العزيزية، وأكتشف أهلي أنني إذا لم أكن هناك. هذه المرّة انتهيت تماما في نظر عائلتي.

11

التحـــريـــر

في 15 فبراير، نزل سكان «بنغازي» إلى الشوارع، وخاصة كثير من النساء بالأساس، من أمهات وأخوات وزوجات المساجين السياسيين الذين قتلوا سنة 1996 في سجن أبو سليم، محتجّات على الاعتقال المفاجئ لمحاميهن. لقد أدهش الخبر كل العالم. وكنت أعلم أن العديد من الناس يستعدون للتظاهر في «طرابلس» بعد يومين ؛ حيث حدد الليبيون يوم 17 فبراير «يوم الغضب». وكنت أرى ذاك الحماس، وتلك الرغبة في الثورة التي صارت تجتاح السكان، وأنا أقول في نفسي : «يا للروعة». ولكن لا أحد كان يمكنه تخيل إلى أي شيء يمكن أن يؤدي ذلك، أو مآلات هذا الحراك. فقد بدا لي معمر القذافي خالدا، لا يتزعزع. وكنت أسجل باندهاش تصاعد وتيرة الاحتجاجات ضده وسقوط احترامه، وتصاعد السخريات والتهكم تجاهه. ورغم ذلك الخوف؛ المغلف بازدراء وحقد دفينين، الذي كان يجثم فوق الصدور ؛ حيث كان القذافي يملك حق الموت والحياة

في ليبيا. إلا إن أهالي «طرابلس» أخذوا يعبرون تدريجيا، عن مشاعرهم بشكل مفتوح.

يوم 16 فبراير، خرجتُ من المنزل مدفوعة بهذه الثورة الجنينية، لأقوم بثورتي الشخصية. ألا يعتبرونني مومسا؟ ولا أصلح لأي شيء، إذا سأفعل بحياتي ما أشاء. هكذا تركت عائلتي وذهبت للعيش مع الشاب الذي أحبه. وذاك قرار غير معقول ومرفوض، بل غير قانوني في ليبيا. فكل علاقة خارج مؤسسة الزواج كانت ممنوعة تماما. ولكن ماذا أفعل بالقانون بعد الانتهاكات التي تعرضت لها، من يحمي القانون ؟ هل يتجرؤون على محاكمتي لأنني أرغب في العيش مع الرجل الذي أحبه، بينما كان سيد ليبيا يحتجزني ويغتصبني مدّة سنوات ؟

استقر بنا المقام أنا وهشـــام في استراحة صغيرة كان قد شيدها بيده في منطقة «عين زارة»، بضواحي «طرابلس». كان هشام يشتغل بحارا يغوص لصيد الأخطبوط. وكنت أنتظره في البيت وأعد له الطعام. ولم أكن أطلب أكثر من ذلك. وددت المشاركة في مظاهرة 17 فبراير الكبيرة، إلا أنني كنت بعيدة جدا. واكتفيت بالتسمر أمام التلفزيون، حيث كانت قناة الجزيرة تبث صور الثورة وأحداثها مباشرة: كنت في حالة ذهول! يا له من حراك! يا له من تحدٍ! ها هم الليبيون ينتفضون. ها هي ليبيا تستيقظ. أخـيـرا ! محوت من جوالي كل أرقام باب العزيزية. فاليوم صارت لديهم من المشاغل ما يكفيهم للبحث عني. حرص هشام بفضل علاقاته ببلدية «طرابلس» على إصدار عقد زواجنا بشكل سري. لم تكن هناك حفلة ولا حضور لعائلتينا.

على كل، ما كانا ليوافقا على زواجنا ومباركته. طمأنني ذلك مؤقتا، رغم أني اكتشفت فيما بعد أن الوثيقة لا قيمة قانونية لها.

ذات يوم بثت قناة الجزيرة صور الشابة الليبية إيمان العبيدي وهي تقتحم قاعة المطعم بفندق ريكسوس «بطرابلس» في حضـور الصحـافة العـالمية، وهي تصرخ بأن كتائب القذافي قد اغتصبتها. كانت تلك لقطات غير مسبوقة، كنا نراها تصرخ بحكايتها، ورجال الأمن والبرتوكول يسرعون لإخماد صوتها، لكنها كانت مصرة على إتمام حكايتها، تبكي وتقاوم. حاول الصحافيون مساعدتها، لكنها في الأخير، انتُزعت بالقوّة، تاركة كل العالم في حالة دهشة. صعقتني شجاعتها، وقلت في نفسي : «أكيد سيقولون أنها مجنونة، أو أنها مومس». لكنها في الواقع قد رفعت الستار عن مآسي آلاف النساء الليبيات، حيث لم أشك من طرفي لحظة، في أن قوات القذافي، تتصرف تماما على شاكلة سيدهم.

أصدقاء هشام أخبروه أن باب العزيزية يقوم بعمليات «تنظيف»، للقضاء على «فتيات» الطابق السفلي، وإزالة كل الشهود لما كان يجري داخل الجدران وفي الأقبية. وعلمت أن رجال القذافي المسلحين أو «الكتائب المشهورة» أتوا للبحث عني في المنـزل، وأنهم هددوا والدي، وحققوا معه بشدّة، وعندما قال لهم أنني قد سافرت مع أمي، قالوا له : «يجب أن تـأمـرها بالعودة !». في حين أن أمّي التجأت إلى المغرب مرعوبة، وطلبا للحماية. كما هاجمت الكتائب عائلة هشام، وسألوا هناك : «أين ثـريـا؟». وكانت إجابة

العائلة بأنها لا تعرفني. واستدعي هشام إلى مركز شرطة الحي، عندها جاء إلي مرعوبا : «لابد أن تغادري إلى تونس. لا يجب أن نضيع ولا دقيقة».

عهد بي إلى أحد أصدقائه، سائق سيارة إسعاف. هكذا استطعت اجتياز الحدود، للالتحاق بأقاربي في تونس. كنت أتابع ما يجري على الأرض يوما بيوم، ودقيقة بدقيقة، ضربات الحلف الأطلسي، وتقدم الثوار، والمشاهد الوحشية للحرب. وكنت أعيش كل ذلك في قلق شدّيد، وكلي رغبة في العودة إلى ليبيا. لكن هشاما كان يرفض بشدّة. كان خائفا أن يعتبرني الثوار من أزلام القذافي، أو واحدة من افراد الدائرة الاولى التي كانت حول العقيد؛ بكل ما يتبع ذلك من شكوك واتهامات بالفساد والفجور. بدت لي هذه الفكرة غير منطقية ولا معنى لها! أنا شريكة ومتواطئة؟ أنا التي اختطفت واسترقّت ؟ أنا التي لم يعد لي أمل في حياة طبيعية إلا بالإطاحة بالقذافي ومحاكمته ؟ صرخت في الهاتف إن مخاوفه سخيفة ومهينة. وأنها الضربة التي لا بعدها ضربة أن يتم الخلط بيني ؛ أنا «الضحية» وبين أزلام جلادي ! غير أنني بعد ذلك ؛ وعندما تناهى لسمعي شائعة مقتل نجاح وفريدة، بدأت أشعر بالفعل بالخوف.

في شهر أغسطس، ومع بداية شهر رمضان الكريم، تنبأت عرافة بموت القذافي وتحرير ليبيا بتاريخ 20 رمضان، فرجعت إلى ليبيا. والتحقت بهشام في مسكننا الصغير، لكن الوضع كان على درجة من الصعوبة. والحياة في المكـــان كانت لا تطاق. حيث لم يعد هنـــاك لا ماء ولا غاز ولا كهرباء ولا بنزين، بينما استمرت ضربات الناتو

وتصاعدت ونيرنها، كان الوضع بالفعل كارثي. في يوم 8 أغسطس، اتصلت مجموعة من كتـائب القـذافي بهشام وأخيه للمشاركة في عملية ليلية قرب الزاوية. أعتقد أنها كانت تتعلق بتهريب عائلة في سفينة. لكنني لا اعرف تماما حقيقة التفاصيل. حيث لم يخبرني هشام كي لا يزيد في توتري. كان لدي انطباع أنه لا خيار له، وإن المهمة فرضت عليه. هكذا ذهب في قلب الليل. وكانت تلك الرحلة التي لن يعود منها أبدا.

حيث تلقيت بعدها اتصالا هاتفيا من أصدقائه يخبرونني: إن سفينتهم قد تعرضت لـقصف جوي من قوات النيتو. فأسـرعت تحت وقع الصـدمة إلى بيت والـدة هشـام. فوجدتها تبكي بحرقة، وأخذتني بين ذراعيها. والله يعلم كم رفضتني في السابق، وكيف أنها لم تقبل بعلاقتنا على الإطلاق. ضغطت عليها بالأسئلة، لكن يبدو أنها لم تكن تملك أكثر مما أعرف من المعلومات. حيث كانت الأخبار التي وصلتها جزئية ومتضاربة. كل ما رشح منها أن هشاما أعتبر في عداد الموتى، بينما سبح أخوه مدّة تسع ساعات حتى بلغ الشاطئ بخير، مع جروح طفيفة في الـرجلين. لكنه لم يـكن قـادرا على إعطاء إي معلومات إضافية.

كل ما هناك أن هشام قد أختفى، وأنه يجب اعتباره قد فارق الحياة رغم عدم العثور على جثته، عكس الآخرين الذين لاقوا حتفهم على ظهر نفس المركب وتم التقاط جثامينهم. هكذا أقيم لهشام مجلس عزاء. بينما أصابني الأمر «بدمار شامل» ؛ وأنهرت كمن صعقه القدر.

يوم 23 أغسطس تم تحرير «طرابلس». وخرج جميع السكان إلى الشوارع والساحات. وقد استبدّ بهم مزيج من المشاعر في آن...كانوا في حالة قصوى من النشوة والغبطة والإرتياح. خرجت النسوة مع أطفالهن. تلوح بألوان رايتنا الجديدة. وكان الرجال يتعانقون، ويرقصون، ويطلقون العيارات النارية من الكلاشينكوفات في الهواء، ويرفعون أصواتهم بالتكبير....«الله أكبر». بينما كانت مكبرات الصوت ترفع في سماء البلد أعذب الأناشيد الثورية.

كان الثوار فرحين رغم انهاكهم. يُستقبلون استقبال الأبطال. وقد فتحوا السجون، واقتحموا باب العزيزية! لقد كان المشهد يتجاوز الخيــال. أطلقت الزغاريد، وصفقت لمــواكب سياراتهم. وحمدت الله على هذا اليــوم الذي سيبقى أعظم يوم في تاريخ ليبيــا. ولكنني كنت أبكي في أعماقي. كنت منسحقة وضائعة.....: هشام لم يعد هنا.

استمرت التلفزيونات تبث كامل الليل، والأيام الموالية؛ صورا مدهشة لدخــول الثوار إلى باب العزيزية، واقتحام منازل وفيلات زمرة القذافي. وهم يستعرضون أمتعة العقيد وتماثيله البشعة. والاستهزاء بذوقه السيئ. والأملاك الفخمة لأبنائه. شُوهت تماثيله النصفية، ووُطئت صوره بالأقدام وبُقرت. وعندما تم عرض منزل صفية على أنه «المنزل العائلي»، حيث يفترض أن غرفة العقيد مجاورة لغرفة زوجته ؛ هززت كتفي تهكما. لا أحد لديه فكرة عما يدور خلف البوابات الفولاذية لباب العزيزية. لا أحد قادر على تخيل عيشة المساكين في تلك الأقبية الموحشة.

سكنت مؤقتا لدى صاحبة أحد أصدقاء هشام. إلا أن أبي خاف علي. هكذا في يوم 28 أغسطس. قبلت السفر معه إلى تونس. ولم أعد إلى «طرابلس» حتى آخر شهر سبتمبر.

ماذا أفعل بحياتي ؟ كيف أستعيد زمامها وأوجهها ؟ فأنا، رغم أنني لم أتجاوز سن الثانية والعشرين بعد، يراودني الإحساس بأني شاهدت كل شيء، وأنني عشت طويلا. وإن عيناي وجسدي قد تعبا. استنفدا. ولم تعد لي طاقة على الحياة، ولا دافع، ولا وسائل. لقد فرغت من كل رغبة. ومن كل أمل. وأصبحت أتوجه إلى طريق مسدودة. لا مال لدي وبلا تعليم ودون وظيفة. وأصبح الأمر مستحيلا أن أعيش مع عائلتي. فإخوتي صاروا يعرفون الحقيقة. أين سأعيش إذا ؟

فلا يوجد فندق في ليبيا يسمح باستقبال امرأة بلا محرم. ولا مالك محترم يمكن أن يؤجر غرفة لإمرأة غير متزوجة. قريبتي التونسية «حياة»، وهي جد متضامنة معي، قد قبلت مرافقتي لفترة في «طرابلس». ولكن فيما بعد ؟

سمعت أن محكمة لاهــاي الدولية قد أصدرت مذكرة إيقاف ضد القذافي : بتهمة جرائم ضد الإنسانية. وضعت أملي في قوّة شهادتي. ينبغي أن يتم الاستماع إلي. لا بد أن أبوح بقصتي، وأن ارفع دعوى ضدّ جلادي. أريد مشاهدته خلف القضبان وأرغب في مواجهة أخيرة معه وجها لوجه. وأن أنظر إليه في عينيه مبــاشرة وأسأله ببــرودة : لماذا؟ لماذا فعلت بي ذلك ؟ لماذا اغتصبتني ؟ لماذا احتجزتني،

ضربتني، خدرتني، شتمتني ؟ لماذا علمتني شرب الكحول والتدخين ؟ لماذا سرقت حياتي ؟ لماذا ؟ لماذا ؟.....

ولكن الآن هــا هو قد لاقى حتفه في 20 أكتوبر، قتلوه الثوار، بعد دقائق من خروجه من مخبئه في قنوات الصــرف الصّحي. يا لها من سخـــرية الـــقدر ، أن يكون مصيره كالجرذان أمام هؤلاء الذين كان يصفهم بالجرذان! رأيت وجهه مغطى بالدّم في التلفزيون، وجثته معروضة في حجرة تبريد في «مصراتة»، كقطعة لحم تالفة. ولا أدري أي المشاعر كانت أقوى، من ذلك المزيج الذي اجتاحني؛ إحساس عارم بالارتياح لهزيمته النهائية، أو الرعب من مظاهر العنف، أو الغضب الشديد لرؤيته وقد أفلت من المحاكمة. ما يمكن أن أؤكده هنا، هو أن الغضب الشديد دون أدنى شك هو الذي اعتراني. فقد مات دون أن يقدم كشفا بأفعاله وجرائمه إلى الشعب الليبي، الذي داسه أكثر من اثنتين وأربعين سنة، ودون الوقوف أمام العدالة الدولية، وأمام العالم، وخاصة أمامي أنا.

هكذا، أكون قلت كل ما لدي. كنت بحاجة إلى ذلك، بل كان ذلك واجبا. تأكدوا أن الأمر لم يكن هينا. كان لابد من مقاومة مشاعر الخوف والحياء والحزن والمرارة، والتقزز، والتمرد، المتصارعة في دماغي، والتي لم تتركني بـــسلام: يا له من غليان !.

في بعض الأيام، تمنحني كل هذه المشاعر قوّة استثنائية، وتعطيني نوعا من الثقة في مستقبلي، ولكن غالبا، ما يرهقني كل ذلك، ويغوص بي في بئر عميقة من الشجون والأحزان.

لقد أصبحت فتاة ضائعة. وأفسدت حياة عائلتي. فتاة مرشحة للقتل. في نوايا إخوتي. فشرفهم في الميزان. هذه الفكرة تجمد الدّم في عروقي : أن يذبحني إخوتي : حتى يثبتوا للناس أنهم رجال محترمون. فإن قتلي وحده ما سيكون من شأنه أن يغسل العار. فأنا نجسة. هـــالكة. ولا أحد سيبكي موتي !.

من جهتي. أنا أريد أن أعيد بناء حياتي في ليبيا الجديدة. لكنني أتساءل هل ذلك سيكون ممكنا ؟!

الفصل الثاني

التحقيق

1

على خطى ثريـــا

ثـــريـــا لا تكذب. هي تروي ما رأته وما عاشته وأحسّته، دون أدنـــى تردد في الإقرار بما لا تدركه، لا تفهمه، أو لا تعلمه. لا تحدوها أية رغبة في تهويل الأحداث أو تضخيم دورها. هي لا تعتمد التخمين قط. وعندما أطلب منها مزيدا من التفاصيل كانت غالبا ما تواجهني بالقول: «آسفة، ليس لدي أدنى فكرة. لم أكن أتواجد هناك». هي لا تبحث عن لقب الصادقة : بقدر رغبتها في أن نصدّق. وكان ذلك الالتزام حيويا بمعنى ما. فقد اتفقنا أنا وهي على مبدأ أساسي : الصمت أفضل من التخمين أو الكذب. فقد تطيح أقل مغالطة بمصداقية الشهادة برمتها. لذلك روت ثريـــا كل شيء مصححة والدها إذا ما لاحظت أدنى تدبير للأحداث في أقواله. أحيانا، وعند الحديث عن بعض المواقف مع القذافي، كانت تعتذر لاستعمال ألفاظ سوقية كانت تعتبرها مهينة. ولكن هل من بديل ؟ كانت تستمتع حين تلمح صعوبـــات في التــــرجمة : «أتســـاءل أي مفردة

ستستعملين للتعبير عن هذا! أنا لا أسهّل عليك مهمتك. أليس كذلك؟»

يـا لها من راويـة مميـزة ! لقد تقدمت للحوار بإرادة استثنائية، وشجاعة أبهرتاني. كنا نلتقي يوميا، في مطلع هذه السنة 2012، في شقتها بطرابلس حيث كانت تقيم مؤقتا. وبدرجة أقل كثيرا في غرفتي بالفندق. كانت تنغمس بشغف في حديثها. تغوص في المواقف وتحاكي المشاهد فإذا هي «سكاتشات» متتالية. مُشكِّلَةً الحوارات من جديد. مشيرة بيديها، رافعة صوتها، مقطبة حاجبيها. وكانت تنتصب أحيانا واقفة لتحاكي مختلف الشخصيات. من القذافي إلى مبروكة أو ... توني بلير.

كيف أنسى تأثري لرؤيتها وهي تعيش من جديد بعض المواقف العصيبة التي لم تتخلص بعد من بشاعتها ؟ كيف أنسى حزني لسماع يأسها المتفجر؟ كيف أنسى حيرتي عند تصور مستقبلها ؟ أو ضحكنا الهستيري أيضا عندما كانت، في ختام كل محادثة مطولة، تعدل التلفزيون على محطة للموسيقى المصرية، وتعقد بخصرها منديلا مزركشا بقطع معدنية لامعة، وتصرّ بكل إثارة وفتنة على تعليمي رقصة هزّ البطن ؟ «قفي مستقيمة آنيك. افتحي ذراعيك! ارفعي صدرك! ابتسمي بإغراء! هيا انطلقي! تمايلي! تأرجحي!»

تعكّرت علاقة ثريا بعائلتها مما أجبرها على المزيد من العزلة. لم تحبذ أن أقابل والديها مرة أخرى قبل مغادرتي طـرابلس. لحسن الحظ كنت قد قابلت والدها في يناير 2012. كان رجلا مربوع القامة، تلوح عليه ملامح الإرهاق.

كان يأتي لزيارتها مساءً، خلسة تقريبا، دون أن يُعلم زوجته. وكان ينظر إليها بحنان لا متناهي. وقال : «هي من كان يُضفي البهجة في المنزل منذ صغرها. كانت مهرّجة بالفطرة ! منذ يوم اختفائها، غرق المنزل في حزن لم يغادره أبدا». كان غاضبا من نفسه لأنه لم يكن متواجدا بسرت يوم زيارة القذّافي لمدرسة ثريا : «لو تعلمين كيف تخيلت مشهد باقة الورود، وكم كررته في رأسي مئات المرات ! أنا متأكد أن المتواطئين قد مرّوا بصالون الحلاقة فلاحظوا ثريا. أشك أيضا أن مدير المدرسة كان متواطئا مع جماعة القذّافي لكي يتم اختيار مجموعة من الفتيات اللاتي سيعجبنه بكل تأكيد. يكفي بعد ذلك اختلاق أيّ عذر لتقديمهن له. أنا على يقين الآن، في كل منطقة من ليبيا، كان للقذّافي عصابة من المجرمين للقيام بالمهام الوسخة».

كان يلوح بقبضته من الغضب ويهز برأسه، تائها في خواطره، في أسفه وأحزانه. لو كنت هناك، لما كنت تركت ثريا تغادر أبدا مع أولئك النسوة الثلاثة بمثل ذلك العذر الواهي : لا معنى لذلك ! عندما أخبرتني زوجتي، دون أن تجرأ على مدّي بالتفاصيل عبر الهاتف - فقد كانت ليبيا برمتها تعلم أنها تحت التنصّت - توجهت مباشرة من طرابلس إلى سرت، ووبختها بما فيه الكفاية. كان الجو فظيعا، انتظرنا ليلة، اثنين، ثلاثة، ثم جنّ جنوني. كنت أتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعني. كانت زميلاتها، وأساتذتها، والجيران، وزبونات صالون الحلاقة، كلهم يسألون : «أين ثريا ؟». هكذا عدت إلى طرابلس، واستطاعت والدتها أن تجيب : « ثريا عند والدها.»

رفع شكوى ؟ لمن ؟ لماذا ؟ لقد غادرت ثريا في سيارة تشريفات، محاطة بالحرس الشخصي للقائد. لم يكن أي احتجاج واردا. «من ذا الذي يفكر في رفع شكوى في الجحيم ضد الشيطان؟». انهار الوالدان عندما تلقيا تأكيدا بأن خوفهم الأكبر تحول إلى حقيقة. وأن القذّافي جعل من ثريا فريسته بالفعل. يشرح والدها : «كان البديل واضحا: العار أو الموت. لأن التنديد، والاحتجاج وتقديم الشكوى يساوي حكم الإعدام. لذلك دفنت نفسي بطرابلس ونسيت طعم السعادة إلى الأبد».

كان يتمنى أن يتم إنصاف ابنته. وأن تعود مرفوعة الرأس، «نظيفة الشرف» أمام العائلة الموسعة. ولكنه كان يعلم أن ذلك مستحيل : «كل من يحيط بنا كان يشك في أمر ثريا. وصار الجميع يعتبرني «لست رجلا». وهو النعت الذي لا يوجود لدينا أسوأ منه. والذي ينسحب أيضا على أبنائي. والذين أصبحوا متهارين، معقّدين، غير قادرين على تصور مخرج آخر للظهور كرجال حقيقيين إلّا بقتل أختهم! لم يعد لديها أي حظ في ليبيا. مجتمعنا التقليدي غبي وقاسي جدا. هل تعلمين ؟ رغم كل الوجع الذي قد أحسه أنا والدها، أحلم أن تتبناها عائلة أجنبية.

*

كان عليّ الذهاب إلى سرت، بلدة القذافي. كنت أريد رؤية العمارة التي ترعرعت فيها ثريا. صالون الحلاقة الذي تديره والدتها بنشاط. والمدرسة حيث وقعت حادثة باقة الورود. لم تكن ثريا متحمسة ولم أكن أظنها تريد

مرافقتي. لكنها كانت متفهمة. كانت هي نفسها تتساءل عما أصبح عليه معقل القذافي الموجود على بعد 360 كلم عن طـرابلس. كانت سرت في السـابق قرية صغيرة للصيادين. وكان سيد ليبيا يحلم بتحويلهـا إلى عـاصمة للولايات المتحدة الأفريقية. قبل أن تصبح في يناير 2011 مسرحا للمعارك الضارية والدموية. وللقصف الشديد من الحلف الأطلسي. ولم يعد الآونة الحديث عنها ممكنا إلا باعتبارها مدينة أشباح. متآكلة من الخوف، ومريضة بأحلام العظمة التي أعدمها الحاضر. بات واضحا أن القذّافي لم يُسْدِ لها خدمة بقراره اللجوء إليها في ساعة الحسم. جالبا لها طوفانا من حديد، وغبار، ونار...

كانت الطـريق طـويلة، ومضجرة جدا. كانت تمر عبر فضاءات صحراوية شاسعة حيث كانت تبرز تحت سماء نحاسية، قطعان خرفان أو بعض النوق الرمادية والشاردة. كانت بعض القطرات تتساقط أحيانا. فتنظف الزجاج الأمامي للسيارة. ثم تحركت الرياح، وحملت معها أعاصير رملية، استحالت معها قيادة السيارة. أشباح من البدو تقف على حافة الطريق ظهرت أمامنا فجأة، واليد تمسك بالوشاح الذي يغطي الوجوه. وكنا نخشى في أي لحظة الظهور المفاجئ للحيوانات. عند نقاط التفتيش، كان الثوار يرتدون غطاء واقيا للرأس ونظارات شمسية لتفادي الرمل، وكانوا يشيرون لنا بالمرور بإيماءة بسيطة بالكلاشينكوف. دون تشدد في التثبت من هويتنا. كان الطقس سيئا جدا للقيام بمثل هذه الزيارة. فريح الصحراء كما يقال تصيب بالجنـون. على أن الشمس سرعـان ما أخـذت في البزوغ

تدريجيا. وظهرت سرت، أو بالأحرى هيكلها عبر الأفق. صفوف من منازل قفرة، مدمرة ومنهوبة. بقايا عمارات، حيطانها مسودة ومحفّرة من أثر قصف الصواريخ وقذائف الهاون؛ كانت بعض المنازل والمباني خربة أو لنقل بالأحرى مفتتة. فقد كانت المعارك هنا يائسة ووحشية. بعيدا، كان الوضع يبدو أقل خطورة. كانت العمارات السليمة قليلة، لكن كنا نشاهد هنا وهناك، على طول الشوارع العريضة المصطفة بالنخيل، بعض الدكاكين المفتوحة. أفادني أحد التجار : «لقد عادت الحياة بسرعة. البعض فر طبعا ولن نراه مجددا، لكن 70 % من السبعين ألف من سكان سرت عادوا. يتأقلمون، ويصلحون، حتى لو كلفهم ذلك تكوم عشرة أفراد في الغرفة الوحيدة السليمة تقريبا من البيت. ما العمل؟».

كان الشارع الذي توجد فيه شقة عائلة ثريا في حالة جيدة. عمارات بيضاء مصطفة ومتشابهة، لا تتجاوز الثلاثة أو الأربعة طوابق، تُظهر قليلا من الندوب. سيارات بورش أعيد طلاؤها بالأخضر (لون يرمز لنظام القذافي بات محظورا في كامل البلاد ؛ ربما تم التخلي عن مخزون طلاء قديم) ومغازات ملابس، ومواد غذائية، وصيدلية ومحلات تجميل مفتوحة تحت الأقواس. في شارع مجاور، كان صالون والدة ثريا، وقد أصابته بعض الشظايا النارية. وكان الستار المعدني مسدولا حتى تصورت أنّ المحل مغلق. لكن أحد الجيران أفادني أن ذلك لحماية الزبونات من أنظار المارة؛ لأن الواجهة الزجاجية تحطمت ولم يتمكن أصحاب المحل من تعويضها. في الداخل، كانت هناك عاملة بصدد تسريح

خصـــال فضـــية لشعـــر زبونة شابة معقدة الهيأة. عاملة أخرى تقدمت ناحيتي مبتسمة وأخبرتني أنّ دفتر المواعيد محجوز إلى آخر النهار.

كانت هناك ثلاث نساء محجبات تنتظرن وتحملقن فيّ. ولم تكن حينها صاحبة المحلّ متواجدة. ألقيت نظرة على المكان محاولة التقاط أيّ تفصيل قد يذكّر بثريا. ولكن لم يكن على الحيطان السوداء والوردية أيّ صورة أو زخرفة تشدّ الانتبـاه. فقط بعض المرايا البيضاوية الشكل التي تمنيت أن أجد فيها خيالها.

*

أسرعت إلى المـدرسة وكـلّي لـهفة. «مدرسة الثورة العربيّة». مبنى ضخـم بنّي اللـون يبدو سليما أو حسن الترميم. تجاوزت الساعة الواحدة بعد الظهر وكان عشرات الأطفال: صبيان وبنات، يتزاحمون في الأروقة. صيحاتهم تدوّي في السلالم المطلية حديثا. في الخارج، تلاميذ آخرون تفرّقوا في الساحة الداخلية المعبّدة بألواح وردية والممتدة إلى قاعة رياضة وملعب. كانت الفتيات ترتدين اللباس الموحّد تماما كما وصفته ثـريّـا : سروالا وسترة سوداوين، مع وشاح أبيض يغطّي الشعر. فاجأني صغر سنّهم؛ لقد وصفت لي ثريّا مدرسة لا تستقبل إلاّ السنوات الثلاث من التعليم الثانوي، أي تلاميذ في سنّ ما بين الخامسة عشر والسابعة عشر. ترى هل كنت في المكان الصحيح ؟

طمأنني رجل ذو وجه شاحب، موسوم بشارب ضخم. وهو يشرح : «لقد دمّر الناتو مدرستين في مدينة سرت؛

استخدمتا لتخزين الأسلحة. فكان من الضروري اعتماد نظام المناوبة للتلاميذ : حتّى يتسنّى لمعظمهم الاستفادة من المباني السليمة. هكذا يكون في الصباح مدرسة. وبعد الظهر مدرسة أخرى. اتصلنا من هاتفه الجوال بمدير المدرسة الثانوية. الذي كان متواجدا في الصباح وغادر المكان. أتى في بضع دقائق ؛ كان طويل القامة ضخما تحيط بوجهه لحية كثيفة. وبدا باردا وقلقا. جلسنا في أحد الفصول الفارغة. وفسّر لي طوفان الصعوبات التي كان لا بدّ من مواجهتها حتّى يضمن العودة المدرسية لـ 913 تلميذا يوم 15 يناير. أي أسبوعين فقط بعد بقية المدارس بليبيا».

يعتبر ذلك إنجازا ؛ بما أنّ المعارك طالت أكثر مقارنة بالأماكن الأخرى. فقد تجند الأولياء بروعة. كان الكلّ كان على الأرض لإزالة الأنقاض. وإعادة تركيب الأبواب. النوافذ. والمرافق الصحية. وطلاء المبنى برمّته. فقد تعرض كافة التجهيزات المدرسية : من ميكروسكوبات. وأجهزة التلفزيون.وأجهزة الحاسوب. للسرقة. أمّا المكاتب والمكتبات والمخابر فقد نهبت بالكامل. وبسبب نقص المساعدات الحكومية. تجندت كل العائلات لتقديم الدعم.

كانت سرت مكدومة. منهكة. وشاحبة. ولكن لم يكن هناك أيّ داع لأن يدفع الموسم الدراسي الضريبة. كانت الأوضاع قاسية جدّا بما فيه الكفاية : «لا أحد يمكنه تصوّر درجة الصدمة لدى أطفالنا. بعض العائلات فقدت خمسة أفراد في المعارك الأخيرة. وكان واردا أثناء الدرس أن تصاب

بعض الفتيات فجأة بأزمات هستيرية، أو أن يغمى عليهنّ. إذ إنّ أيّ كلمة أو صورة من شأنها أن تفجّر شلالات من الدموع. ولم تعد المرشدة الاجتماعية كافية، نحن بحاجة إلى أطبّاء نفسانيين».

كانت المدرسة تشكو من نقص في عدد الأساتذة، فبعض المدرّسات اللاتي فقدن أزواجهنّ في معركة سرت، لا ترغبن في مباشرة الدروس أو أنهن لا يقدرن على ذلك. جزء من المواطنين قد اختفى، ولا أحد يعرف إذا ما ماتوا ؟ : «بل لقد غادروا»، ردّ ببساطة. فالمدير السابق مثلا، «غادر ليبيا ولا نملك أيّة أخبار عنه». من الواضح أنّه كان مناصرا جدّا للقذّافي، بحيث لا يمكن له أن يأمل في حياة دون متاعب. لهذا عيّن محمّد علي مُفتاح بديلا له. المدرّس المخضرم، والذي عين بالمدرسة منذ تسعة عشرة سنة، والذي كان يشعر أنّه قادر على تحمّل المسؤولية الجديدة. إضافة إلى ذلك وخلافا للإشاعات، أكّد أنّه لن يقع أيّ مساس بالبرامج المدرسية. فانتصبت واقفة. ألم يصرح وزير التربية الجديد، على العكس من ذلك، بضرورة القيام بثورة بيداغوجية كاملة، والعمل على إعادة هيكلة جميع البرامج، وإحداث لجنة خبراء تهتمّ بإعادة صياغة جميع الكتب المدرسية ؟ بعض الثوّار تحدّثوا أمامي عن بعض الانحرافات في البرنامج التعليمي كما تصوّره القذافي. دروس الجغرافيا مثلا تصوّر العالم العربي على أنّه كتلة واحدة، والخرائط تشير إلى أسماء المدن فقط، دون أن ترسم أيّة حدود لمختلف البلدان. كما كانت دراسة الكتاب الأخضر تستهلك عديد الساعات في الأسبوع وتمتد على

سنوات عدّة. وكان تعليم اللغات الغربية مثل الإنكليزية أو الفرنسية قد منع في مستهل السنوات الثمانين لفائدة لغات جنوب الصحراء مثل «السواحلية» و «الهوسا». أمّا عن تاريخ ليبيا فهو يبدأ مع العقيد القائد دون أدنى إشارة إلى الحكم الملكي لعائلة السنوسي قبل 1969. «تعليمنا ذو طابع علمي»، رد المدير بجفاء، «لذلك لسنا مهتمّين جدّا بالتغييرات. إضافة إلى أنّنا نتبع منهج تدريس مستورد من سنغفورة. أما بخصوص التعليم السياسي، فقد تم حذفه».

عندها طرحت السؤال الذي طالما أرقني منذ تواجدي بين حيطان هذه المدرسة. في شهر ابريل عام 2004، قام العقيد القذافي بزيارة المدرسة. وقُدم له باقات ورود وهدايا من طـــرف بعض التلميذات الجميلات، ثم تمّ اختـــطاف إحداهن بعد أن لمحها العقيد القائد، لتصبح جارية لإشباع نزواته الجنسية. هل لدى مخاطبي أي علم بذلك ؟

توهجت عيناه السوداوان جمرا. وما إن أنهيت سؤالي حتى صرخ : «هذا زيف ! هذا خـــيال ! هذه حماقة !». عفوا ؟. لكنه واصل : «ليس لقصتك أي معنى ! لم يكن العقيد القذافي يزور المدارس أبدا». كان مشمئزا ومغتاظا جدا. لكني تابعت بصوت هادئ : «لقد قابلت الفتاة وشهادتها جدّية. لقد قدّمت لي جميع التفاصيل»، لكنه تابع رافضـــا لما أقـــول : «قـــلت لك هذا كذب وبهتان». لقد أصبح مخيفا بصياحه المتكرر. ولكنني واصلت : «ليبيا برمتها اعتادت رؤية العقيد يزور المدارس والجامعات، وذلك حتى في خضم الثورة. كانت الصحف تنشر الصور

والتلفزيون يبث التسجيلات...». هنا قاطعني في غضب: «ليس في سرت... هذه كانت مدينته، مدينته ! التي عاقبونا بسببها بما فيه الكفاية ! وهو لم يأت إلى أي مدرسة بسرت بتاتا ! أؤكد لك ذلك !». تمنّيت لحظتها لو كانت ثريا معي، فتناطحه وتفحمه بدقة شهادتها. تخيلتها بعد ثلاثة أيام، حين سأنقل لها الموقف وأريها صورا للمدرسة، ستعلّق عليها بقوة ذاكرتها، وستكون مكبلة من الحزن قبل أن ينفجر غضبها. لذلك زاد إصراري : «كان للعقيد في هذه المدرسة أطفال لأبناء عمومته، أفراد من عشيرته. وإذا ما علمنا درجة اهتمامه بالتعليم الذي حدد بنفسه قوانينه، فإنّه ليس من المستغرب أن يؤدي لهم زيارة ودية...».

لم يهدأ محمد على مفتاح : «إطلاقـا ! هذه أكاذيب! قد يكون توجه إلى التلاميذ عبر تسجيل فيديو كنا نبثه على شاشة عملاقة، هذا كل ما في الأمر!». أدركت حينها بأنه لا جدوى من الإلحاح، وأنني لن أتحصل منه على أية إضافات. خاصة وأنه بدا لي فجأة من الخطر الإدلاء باسم ثريا - الغريب أنه لم يسألني عنه- ما من شأنه أن يعرض عائلتها إلى الخطر. لقد بات واضحا أن سرت لم تطوي الصفحة بعد.

كنت على وشك المغادرة حين لمحت فجأة في غرفة صغيرة تفتح على ردهة الطابق الأول مجموعة من المدرّسات الشابات. لا شك أنها فترة الراحة بين الحصص، وأنهن كنّ هناك لاحتساء الشاي، أو لوضع حقيبة أو للمزاح مع الزميلات. تسللت بينهن وسرعان ما أحطن بي.... وفي غضون لحظات، وما إن أغلقن الباب حتى تحولت الغرفة

الصغيرة الملآى بشعارات الثورة إلى قفص عصافير. كانت تتكلم جميعهن في الوقت نفسه، وتتنافسن في سرد الروايات. والذكريات والتعبير عن السخط، وإذا بدأت إحداهن الحديث. تقاطعها أخرى لتواصل، قبل أن تتدخل ثالثة بدورها صائحة : «انتظرن لدي ما هو أسوأ !». حتى أنني وجدت صعوبة قصوى في تدوين شهاداتهن المتدفقة كالسيل. اختطاف فتيات ؟ : «كانت سرت برمتها على علم بذلك!»، سرت المناصرة للقذافي ؟ حاولت جميلة. وهي شابة مكحولة العينين ومهذبة الحاجبين أن تفسر لي الأمر : «كان للقذافي تأثير كبير على أبناء مدينته. وعشيرته، وعائلته. وكانت المدرسة تُربّينا على تقديسه. ولكن كان الكل يعلم أنه كان منحط الأخلاق، وإنه لكاذب كل من ينكر معرفته السابقة لذلك». أقرّت زميلاتها الخمس الرواية في ضجة. مبديات اشمئزازا من أقوال المدير : «فرّ المدير السابق بعد أن كان ضمن المربع الأخير لمناصري القذافي. وللأسف للمديرين الجدد نفس التوجه. تماما مثلما هو الحال بالنسبة لمديرنا السابق : [المشرف على المدرسة التي وقع الحاقها بالمبنى نفسه بعد الظهر]. قبل أن نجبر الوزارة على إقالته إثر إعلامنا لها بأنه كان يواصل انتقاد التدخل الأجنبي ويسمم عقول الأطفال». وأكّدت إحدى الشابات أنها كانت تلميذة بالمدرسة الثانوية نفسها التي كانت فيها ثريا. وأنها شاهدت بنفسها القذافي «يتبختر» في قاعة الرياضة. ثم أشارت عبر النافذة إلى المبنى الذي يقع في الناحية الأخرى من الساحة. لم تكن تتذكر ثريا. ولكنها كانت جازمة : «لقد زار العقيد هذا المكان». كانت زميلتها ذات الوجه الضاحك. في حجابها الأحمر. قد استمعت

إليه منذ سنتين يلقي خطابا مملا بجامعة سرت: «عندما وصل، أغلق الحي، وتوقفت الدروس...وتوقف الزمن».

لقد أكّدن لي أن كل المناسبات كانت فرصة يغتنمها العقيد لمقابلة الفتيات. وكان يفرض نفسه لحضور حفلات الزواج في آخر لحظة : دون أن تُوجّه له الدعوة : «كان معظم الضيوف يشعرون بالفخر، وأضافت إحداهن. لكن عمومتي، رغم انتمائهم لعائلته، منعوني بصرامة من الظهور». كان دائما يستدعي التلاميذ لحضور المهرجانات التي ينظمها بكتيبة الساعدي حيث كان يقيم : «ذهبت مرة مع المدرسة ليومين متتاليين إلى هناك، ثم منعني والدي من العودة. كان مكانا محفوفا بالمخاطر. فسر لي أخي، إذا لم يأت الخطر من القذافي، فإنه آت من شلته، أو من القياديين، أو من الحرس، أو من أي جندي. كانت أخلاق القذافي معدية!». كان يتظاهر بالمرض حتى تأتي بعض الطالبات لمواساته، «كان عمري ستة عشر سنة وكنت في معهد الفكر الرائد عندما أعلن لنا أحد الأساتذة أن الأب معمر مريض. أرسلت لنا حافلة لتقلنا إلى الثكنة حيث استقبلنا تحت خيمته. كان يلبس جبة بيضاء وقبعة من القطن بنية اللون، عانقنا الواحدة تلو الأخرى : كنا خائفات ولم يكن يبدو مريضا على الإطلاق». مدرّسة أخرى كانت تذكر أنها سيقت من طرف مدرّستها إلى الكتيبة نفسها لتحية العقيد الشاذلي بن جديد، رئيس الجزائر : «كان من الضروري للقذافي أن يحاط بجو نسائي من الفتيات الشابات. كنا بالنسبة له وسيلة دعاية وإشباع نزوات».

وأخيرا روت لي إحدى المعلمات انه في يوم من الأيام، نظمت جماعة من أصل مصراتي حفلا ضخما لأداء البيعة للقائد. كان يعشق هذا النوع من التظاهرات بما أنه كان دائم القلق بشأن دعم مختلف القبائل له. وفي إحدى هذه الاحتفالات، لمح صديقة عزيزة لي. وفي الغد، توجه عدد من الحرس لجلبها من مدرستها. لكن المدير رفض متعللا بأنّ الوقت غير مناسب، إذ كانت بصدد إجراء امتحان. لكن في مساء اليوم نفسه، اختُطفت في حفلة زواج، واختفت مدة ثلاثة أيام، اغتصبها القذافي أثناءها. ثم إبان عودتها تم تزويجها إلى أحد حراسه الشخصيين : «والدها، وهو أستاذ، أخبرني ذلك بنفسه راجيا مني توخي الحذر».

ولمّا دق الجرس معلنا بدء الدروس، انصرفت المدرّسات بسرعة راجيات ألا أذكر أسماءهن. لا شيء بسيط في سرت. العديد من السكان يجترّون بمرارة انهيار مدينتهم. يملؤهم الحقد والتشاؤم، مقتنعين أن السلطة الجديدة ستنتقم منهم بسبب علاقتهم الدموية بالعقيد.

*

لم يكن السير على خطى ثريا بالشيء اليسير خصوصا أنني كنت أخشى جلب الانتباه لها ولعائلتها، أو إيقاظ غضب إخوتها والقضاء على مستقبلها في ليبيا. بات من الضرورة القصوى الحفاظ على سرية قصتها. فقط «حياة» ابنة خالتها التونسية، وحافظة أسرارها الوحيدة والوفية، بدت مضيافة وشاهدة على محاولات ثريا للفرار وللحياة، وللخروج من المشاكل العائلية. للأسف لم يكن

هناك مجال لأقابل الفتيات اللائي كن معها في باب العزيزية. الأولى أمل، متزوجة، ترجو أن نتركها وشأنها. الثانية أمل «غ»، والتي تعيش اليوم بين الجنس والخمر على ذكرى رجلها العظيم. تكره فكرة أن تشي به ثريا. سائق في باب العزيزية واثنتان من النسوة اشتغلتا بإدارة التشريفات. وفي خضم المحادثة، لم يتذكروا من ثريا سوى أنهم التقوا خيالها الهارب. فقط. قليل جدا من الأشخاص كان بإمكانهم المرور إلى الطابق الأرضي الكريه.

أخيرا، في باريس، قدم لي صديقها التونسي عادل بعض المفاتيح حتى أفهم جيدا فشل محاولتها الفرار إلى فرنسا. قابلته في مقهى في بورت دورليون. قصير وممتلئ، ذو شعر ممشوط إلى الخلف فوق وجه هادئ جدا، حدثني بحنين ورقة عن ثريا : «جاءت منكسرة، مضطربة، دون أدنى دراية بالعمل، أو المواقيت، والانضباط والحياة الاجتماعية، مثل الطفلة الصغيرة التي نسيت ما تعلمته عن العالم، أو العصفور الصغير الذي رغم حرصه على الطيران، يعود ليتحطم مرارا على زجاج النافذة». اعتنى عادل بها بقدر المستطاع وذلك باستضافته لها عندما لم يعد بإمكانها البقاء عند وردة. جاهدا أن يحصل لها على عمل - بما في ذلك دورة تدريبية صغير لدى صالون حلاقة-. كانت الفترة للأسف قصيرة جدا لأن ثريا لا تتكلم الفرنسية. كذلك قام بالإجراءات لدى محامية قصد تمكينها من بطاقة الإقامة، وسهر على تلبية حاجباتها طوال أشهر عدة : «كان من الصعب رؤيتها تتخبط وتفشل دائما. ضحية للوعود الزائفة من رجال همهم الوحيد استغلالها».

كان خطؤها بالطبع هو عدم إصرارها على تعلم اللغة الفرنسية إثر قدومها مباشرة. كـــان ذلك خطأ لقاءاتها الأولى. وردة وبعض العلاقات الأخرى في المطعم اللبناني، حيث ذهبت ذات مســـاء، والذي يتحـــول، منذ منتـــصف الليل إلى مطلع الفجـــر، إلى ملهى ليلي شرقي. كان من السهل عليها الحياة في جوقة باللغة العربية. لكن ذلك منع عنها كل اندماج في المجتمع الفرنسي، وكل إمكانية لإنشاء علاقات للدراسة أو للعمل.

في الواقع، لم تثابر ثريا. وقد كانت غير قادرة على النوم قبل الرابعة صباحا، أو الاستيقاظ قبل الساعة الحادية عشرة ظهرا، متمردة على أي انضباط أو تعليمات من أي كان، كأنْ لا أحد، بعد القذافي، يمكن أن يدعي الحق في ممارسة أي سلطة عليها. كان عادل الأكبر سنا بين أخوته الثلاثة، تدرب باكرا على لعب دور رب الأسرة بعد أن فقد والده مبكرا بقابس، كان قد تخلى عن دراسته لإعانة عائلته. فهاجر إلى باريس، وبعث مؤسسة صغيرة للبناء وتجديد الشقق، تعب جدا من أجل إنجاحها. وهو قد استقبل ثريا «كمولود جديد للعائلة»، كانت ضعيفة وتوجب عليه الاعتناء بها، في شيء من الـــغرام بطبيعة الحـــال. ومن لم يكن مغرما بثريـــا، وشعرها الأبنـــوسي، وضحكاتـــها المقهقهة ؟ لقد كانت متحررة ومتألقة جدا، كانت تغيظ بقية الفتيات لكنها كانت تحطم أرقاما قياسية في الشهرة بين جميع العاملين بالمطعم.

خلال النهار، كانت تدخن وتهاتف وتشاهد التلفزيون وتبكي أحيانا حين تكون فريسة لبعض الذكريات والأسئلة

والمخاوف. كان يبدو أنه بإمكانها أن تبوح بكل شيء لعادل الذي أخبرني أن في حديثها عن القذافي «مزيجا عجيبا من الحقد والغضب والاحترام». وقد تعترض ثريا عند ذكر آخر كلمة. ولكن لماذا نستغرب أن يكون هناك نوع من الاحترام ممزوج بالرفض والخوف تجاه من كان يملك، في هذه السن الحاسمة، الحق في حياتها أو موتها ؟

«أعلم أنها ربما كانت تحبذ أن أخصص لها وقتا أكثر وأن أرافقها خلال النهار وأجاريها في نسقها الليلي، دون أية قيود، لكن لم أكن أقدر على ذلك ! كنت منهكا ؛ فليس من السهل النجاح في فرنسا عندما تكون مهاجرا. هذا يتطلب رغبة وجهدا جبارا. ولم تكن ثريا تفهم ذلك، لم تكن مستعدة لفهم ذلك» . لذلك صار إنهاء التعايش معها ضروريا.

لم يهملها عادل حين وجدت عملا في حانة أولى، ثم ثانية. كان يزورها في حجرتها ويتسوق لها قبل زيارتها: «كنت ألاحظ جيدا أنها لم تتجاوز صعوباتها». لم يصدقها عندما أتصلت به لتخبره أنها كانت في طريقها إلى المطار لتستقل الطائرة إلى ليبيا. وقلت لها : «لن تفعلي هذا ؟ غير معقول !». لكنها اتصلت به مجددا بعد بضع ساعات من طرابلس، وقال لها : « ثريا ! لقد اقترفت خطأ جسيما».

لا أملك خيارا أخـر.

فلتتحملي إذا مسؤولية ذلك.

2

لـــيبيـــا، لـــيـــلى....
والعديد من الأخريات

كنت أود أن أحكي قصصا أخرى، أن أتحدث عن مآسي أخرى لفتيات مأساتهن أنهن اعترضن في يوم ما طريق «القائد» لتنقلب حياتهنّ في لحظة رأسا على عقب. كنت أودّ أن أبرهن أنّنا أمام نظام يتضمن تواطؤا ودسائس عديدة وممتدة في الزمن. ولكن لم يكن من السهل العثور على النساء المعنيات.

الـــعديد منهن فـــررن من ليبيـــا، خائفات عند تحرير طرابلس من فكرة اتهامهن بالتواطؤ مع القذافي. ألم يكنّ يقطنّ في باب العزيزية ؟ ألم يكنّ يرتدين الزيّ العسكري؟ ألم يكنّ يتمتّعن بامتيازات ضخمة مخصصة أساسا لشلة الدكتاتور ؟ ألم تكن هذه التسمية «بنت القذافي» : مقلقة؟ من دون شك، لم يكن الظهور اليوم على السطح من مصلحتهن، ومعظمهن لا يجرؤن على محاولة التبرير للثوار أنه لم يكن لديهن الخيار. أية رحمة يأملن من كنّ يوصفن

بعاهرات القذافي من طرف الشعب الليبي، الذي لم يكن يتصور لهن مصيرا غير السجن ؟ بعد أن قطعن منذ زمن بعيد كل أواصر القرابة مع عائلاتهن. حيث يحاول العديد منهن اليوم الارتزاق في تونس، ومصر، وبيروت بممارسة النشاط الوحيد الذي تعلمته لدى القذافي، والقادر على در الأموال.

أخريات، كن قد انصهرن في المشهد الليبي قبل الثورة، وغالبا بتزويج القذافي لهن قسرا بأحد حراسه كلّما ضجر منهن. أحيانا قليلة كنّ يتزوجن ابن العم دون إخباره بأي شيء، وذلك بعد أن يقمن بعملية جراحية لإصلاح غشاء البكارة. وأحيانا أخرى، تبقى هاته النسوة عازبات، وهي وضعية صعبة جدا في ليبيا ومحل كل الشبهات. وبما أن العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج ممنوعة بالقانون، فإذا ما ثبت أو اشتُبه أن لديهن عشيقا، كانت هاته النسوة عرضة للزج بهنّ في السجن أو في إصلاحية تحت سلطة الدولة؛ حيث لا يمكنهن المغادرة إلا إذا تعهّدن عائلاتهن بسَجنهنّ في منازلـــهن، أو إذا طلبهن أحد للـــزواج. ولكن في مجتمع محافظ كالمجتمع الليبي، من ذا الذي يجرؤ على الاعتراف بإقامة علاقة جنسية مع القذافي، حتى ولو كان ذلك تحت التهديد ؟ سيكون ذلك بمثابة الانتحار الاجتماعي.

هذا غير خطر القتل الذي يلاحقهن لو أنهن تحدثن، سواء من قبل ذكور العائلة الذين سيعتبرون ذلك عارا لابـــد من غســـله، أو من قبل الثـــوار، وعائـــلات شهداء الثورة المتعطشين للانتقام، وكذلك من طرف مناصري

القذافي الذين عرفنهن في باب العزيزية. والذين يخشون شهادتهن.

امرأة واحدة نهضت لتكشف عن كل هذا في أبريل 2011. وفي خضم المعارك. بمهابة. ومن تلقاء نفسها. كانت حارسة شخصية قديمة للقذافي. تبلغ اليوم 52 سنة من العمر. ظهرت على شاشة التلفزيون ببنغازي. واضعة نظارات كبيرة ومحاطة براية الثورة. لتروي مأساة اللاتي مثلها اقترفن. في السنوات 70. خطأ الانضمام إلى القوى الثورية معتقدات في صدق القائد. وكيف انتهكن واغتصبن لسنوات طويلة من قبله. كانت تتوجه إلى الكاميرا. تملأ الشاشة بأكملها. وتصيح أكثر مما تتكلم. متوسلة أنصار القذافي أن يستفيقوا ومتوجهة بالنداء إلى الشعب الليبي. والعربي. وإلى جميع العالم بأن يثأروا لهؤلاء النسوة المغتصبات. أذهل هذا الظهور التلفزيوني. وفي أوج المعارك. الرأي العام. لأول مرة يقدّم أحدهم لمحة عن الواقع المعيش «للأمازونيات». وينطق بكلمة «اغتصاب» : موجها أصابع الاتهام إلى الدكتاتور بعينه. ولى عهد النفاق ! استيقظ أيها الشعب الليبي ! ثم اختفت.

لم أستطع الاتصال بتلك المرأة إلا في أبريل 2012. كانت لا تزال تتمتع بنفس الروح القتالية. وقدمت لي بعض الأشلاء من حياتها الضائعة. اضطرتها التهديدات بالموت التي لحقت ظهورها في التلفزيون للهرب إلى مصر : حيث قدّمت للثوار الليبيين وللناتو كل المعلومات التي بحوزتها. ورغم أنهم قد حاولوا اغتيالها. ولكن يبدو أن لاشيء كان قادرا على إيقافها. كانت قد طلبت الذهاب إلى الجبهة

وحملت السلاح في سرت مقاتلة حتى نهاية المعارك. وقالت لي : «ذلك هو المكان الذي كنت أحس فيه بالحماية». لكن ذلك لم يجعل منها بطلة. فضيحة اعترافاتها المتلفزة خلف زلزالا في عائلتها. أجبر إخوتها، وقد طالهم العار وتلطّخ منهم الشرف، على بيع منزلهم. وصلتها للتو رسالة: «اسمك على القائمة السوداء. سنقتلك قريبا. الله، معمر، وليبيا، وبس».

مجموعة من النساء الأخريات – مرعوبات– قبلن أيضا أن يبحن لي بحقيقتهن. قابت بعضهن بنفسي لبرهة من الزمن، فيما أخريات، غير قادرات على مواجهة عيون أجنبية أو الحديث إليها عن قصة لم تُحك من قبل حتى للمؤتمنات على أسرارهن، فضّلن روايتها لسيدة ليبية كانت تدعم مشروعي، سامحات لها أن تطلعني مباشرة على شهادتهن، ومقتنعات بأهمية إصدار كتاب يتناول هذا الموضوع، شريطة ألاّ تُذكر أسماؤهن أبدا، أو يقع تقديم أي تفصيل يمكّن من التعرف على هوياتهن.

قالت إحداهن : «سأنتحر مباشرة إذا ما علمت أن زوجي أو أبنائي قد يكتشفون يوما ما هذا الماضي». وأنا على يقين أنها ستفعل. وإليكم إذن حكاياتهن كما رويت لي، دون رابط بينهن، كالمادة الخام التي لن تحصل عليها للأسف أية محكمة.

ليبيا

اقترحت السيدة التي ظهرت على شاشة التلفزيون أن أسمّيها ليبيا. هذا طبعا ليس اسمها الحقيقي. فالإدلاء به

كان بمثابة الانتحار. هي تودّ التعبير عن أملها في وطن تخلى عن عبودية القذافي. لقد قضت ثلاثين سنة عند الدكتاتور. قالت بهدوء : «عمر بأكمله ! حياتي... الضائعة». كانت لا تزال في المعهد ببنغازي عندما طلب منها بعض النشطين الذين يفوقونها سناً بقليل أن تلتحق بالحركة الثورية. كان ذلك في نهاية السبعينات، في الوقت الذي يؤكد فيه الفصل الثالث من الكتاب الأخضر الصادر حديثا «للأخ العقيد»: على دور المرأة وحقوقها في المجتمع الليبي. كانت الدعاية تنصبّ في كل مكان، تحث الفتيات على «التحـــرر من قيودهن». يجب على كل الفتيات أن يخدمن الثورة وأن يصبحن أفضل الحليفات لزعيمها. كان الاستقطاب من طرف اللجان الثورية يقدّم على أنه امتياز، وبوابة عبور إلى نخبة البلاد، مما جعل ليبيا تحس بالإطراء رغم إحساس والديها بشيء من القلق. على أية حال، لم يكن لديهما الخيار : «الرفض كان سيسوقهما إلى السجن». كانت الاجتماعات كثيرة، والخطابات مثيرة، وكان القذافي يظهر أحيانا ليغذّي حماس الفتيات المستعدات لأي شيء من أجل خدمة محدّثهم ذي المظهر الرسولي. اقترب موعد الذكرى العاشرة لوصوله للحكم، وكان يريده حدثا عظيما، يحضره العديد من رؤساء الدول في بنغازي. ستثبت النساء المحاربات أنهن رأس الحربة للثورة الجميلة.

تركت ليبيا المدرسة وانخرطت بقوة في اللجنة الثورية. تتدرب على الخطوة العسكرية وعلى قذف الصواريخ. وفكرت أن القذافي على حق حين راهن على النساء وعلى تعليمهن لكسر العراقيل أمام المرأة. حتى لو أغضب ذلك

الوالدين. إلى الجحيم أغلال التقاليد ! الحرية تُفتك ! ولا تمنح. كانت سعيدة أنها لم تعد تنام لدى عائلتها، وإنما مع رفيقاتها في مركز التدريب. في مساء الأول من سبتمبر 1979، وأثناء الاستعراض الكبير الذي كان يبث على جميع شاشات التلفزيون، تلقين خبرا مفاده أن العقيد يصر على تحيتهن. ابتهجن كثيرا، وتم أختيار عشرة منهن لمقابلته بمقر إقامته، حيث بدا جذابا ومعسول الكلام، قبل أن ينسحب إلى حجرته. حينئذ طلبت مؤطرات المجموعة من إحداهن، ذات الخمسة عشر ربيعا، أن تلحق به. ألبسنها الزي التقليدي مؤكدين لها ضرورة التودّد إليه وتمجيد الثورة التي قام بها. دخلت الصبية تملؤها السعادة، وخرجت كئيبة... والدماء شلال بين فخذيها. لقد أصاب المنظر مجموعة المناضلات الشابات بحالة ذهول.

استأنفت الحياة مجراها، وعادت ليبيا مجددا إلى عائلتها، ولكنها أصبحت أقل انضباطا في المدرسة، وتابعت بخوف متزايد اجتماعات اللجنة تحت قيادة ناشطات في الجامعة. مررن جميعهن على الأرجح بمخدع العقيد. وخلال أشهر طويلة، استُدعي العديد من رفيقاتها، الواحدة تلو الأخرى، للالتحاق بالقذافي في طرابلس، سرت أو مصراتة. يأتي سائق مباشرة لاصطحابهن في السيارة، وأحيانا في الطائرة، وكان ما يروينه حين عودتهن يزيد ليبيا كربًا على كرب. لكن ماذا تقول ؟ كيف الفرار ؟ جاء دورها ستة أشهر بعد الاحتفال بالفاتح من سبتمبر، أثناء زيارة القائد لبنغازي. ذات مساء، جاءت مناضلات لاصطحابها إلى مقر إقامته، جردوها من كل ثيابها، ودفعوها إلى غرفته

رغم بكائها وتوسلها : «ستقتلني أمي. الرحمة!». كان ينتظرها في بيجامة من الحرير، ثم اغتصبها دون أن ينبس بكلمة، قبل أن يطردها بضربات على الأرداف، وهو يقول: «أحسنت يا صبية!»، لم تخبر والديها، ولم تبد أي اعتراض لدى اللجنة الثورية، التي كان أعضاؤها، يوميا، يهددون بالسجن «المخرّبون» الذين قد يجرؤون على انتقاد القائد، «الصديق، الحامي، محرر جميع النساء». انعزلت ليبيا، وأصابها الاكتئاب، مسببة حيرة والديها اللذين ظنّا أنها حزينة أو مغرمة، فقررا تزويجها دون استشارتها. في أحد الأيام، وحين عودتها من المدرسة، اكتشفت أن حفلا يقام في منزلها، حيث احتشد الضيوف، وحضر المأذون، ثم قدّم لها عقد زواج : «وقّعي هنا !».

في الليلة نفسها، وحين اكتشاف الزوج أنها لم تكن عذراء، اغتاظ وقرر الطلاق. كان بإمكانه طردها، لكنه تفهم موقفها وانتظر أسبوعين. أحست ليبيا بالعار ولم تعد تحتمل أية نظرة تجاهها، مرعوبة لفكرة العودة إلى منزل عائلتها. لذا هاتفت...باب العزيزية. ألم يكن القذافي، بتشجيعه للفتيات على قطع أواصر القرابة مع عائلاتهن «المتخلفة»، يذكّرهن دائما بأنه سيكون متواجدا من أجلهن ؟. قالوا لها ببساطة : «استقلّي حالا الطائرة إلى طرابلس». واستقبلتها نساء في المطار، وأقلتها إلى باب العزيزية، إلى ما كانت ليبيا تصفه بـ«الحريم» الكبير، حيث وجدت مجموعة من النساء يتعايشن هناك في غرف مزدوجة أو فردية تحت رحمة العقيد، ورهن مزاجه المتقلب، وأحلامه الشبقية، وجميع أوامره. وأغلب أولئك

النسوة جُلبْن عبر اللجان الثورية الشهيرة، واغتصبن، ولم يكن لهن أي منفذ آخر للهروب من الخزي العائلي إلّا المكوث في خدمة القذافي الذي سيوفر لهنّ على الأقل الأكل، والمسكن، واللباس (الزي العسكري للحرس). لا شيء ممنوع في إقامتهن حيث الاستهلاك الفاحش للكحول والسجائر والحشيش. البرنامج هو نفسه على مدى الأيام والليالي : «نأكـــل، وننام، ونمـــارس الجنس». إلا عندما ينتقل العقيد إلى سرت أو إلى مدينة أخرى ؛ حيث يجبر البيت الصغير على مرافقته. أو عندما يسافر إلى الخارج حيث لم تكن ليبيا، ويا لا حسرتها، من المدعوات. «كان يخشى أن أغتنم الفرصة وأهرب». البعض فمن بذلك، ثم عُثر عليهن في تركيا، فجُلبن إلى البلاد، محلوقات الرأس، واتّهمن بالخيانة ثم عرضن بالتلفزيون على أنهن عاهرات يمتهنّ الدعارة، قبل أن يُعدمن. تعرف الإقامة يوميا مرور فتيات يأتين، فيقضين ليلة ثم يرحلن، البعض عن طوع وأخريات تحت الإكراه : «كان القذافي يضغط علينا لكي نجلب له أخواتنا، وبنات العم، وحتى بناتنا».

في أحد أيام سنة 1994، حذرت ليبيا إحدى النساء من نوايا القذافي بخصوص بنتيها الجميلتين جدا. من الصدمة، أسرّت الساذجة بذلك إلى القذافي فجن جنونه؛ لقد خرقت ليبيا قاعدة التزام الصمت ودفعت حياتها ثمنا لذلك. هربت، استقلت طائرة عسكرية إلى طبرق، ثم من هناك سيارة إلى مصر حيث قبض عليها لعدم امتلاكها التأشيرة، ولكن تمكّن بعض المعارضين الليبيين من تهريبها إلى العراق حيث مكثت أسبوعين، ثم سرعان ما التحقت باليونان

خوفا من حزب البعث. لكن شبكات القذافي توصلت إليها، وقامت بترحيلها إلى ليبيا، أين أودعت مدة سنة ونصف سجنا تحت الأرض، بإحدى الضيعات، قبل أن تعود إلى باب العزيزية وتمكث هناك حتى بداية ثورة 2011. كانت تقول عن نفسها : «الجارية العجوز جنبا إلى جنب مع المستعبَدات اليافعات». ستبقى عالقة إلى الأبد.

ليلــى

ليلى الآن في الأربعين من عمرها، ولديها الإحساس أنه تم إنقاذها. تزوجت ابن عمها عن حب وربت أطفالها وعاشت على هاجس أن يكتشف أحدهم يوما ما السر الذي قضى على شبابها. كانت تبكي حين روت قصتها وهي تصرح بذلك للمرة الأولى في حياتها.

كانت رفيقتها في المدرسة، في فترة المراهقة، ابنة أخ الصديق والعضد الأيمن للعقيد القذافي، ومن ساعده على تولي الحكم في انقلاب الفاتح من سبتمبر 1969. كانتا تنشطان معا في إحدى اللجان الثورية، وعندما بادرت صديقتها بتنظيم لقاء مع العقيد بمجموعة من التلميذات، كانت ليلى متحمسة. نقلت حافلة صغيرة الفتيات إلى باب العزيزية حيث استُقبلن ببهو كبير بالطابق الأول الذي كان حينها إقامة العقيد، والذي سيدمَّر جزئيا أثناء القصف الأمريكي سنة 1986. كان معمر القذافي يبدو جذابا وودودًا، كان مسترخيا، يأخذ الوقت الكافي للاهتمام بكل فتاة، طارحا أسئلة على أصل العائلة، والقبيلة، والمنطقة. كانت الفتيات تحت تأثير سحره.

بعد أيام من هذه الرحلة، أقبلت عاملة تبحث عن ليلى في القسم وأخذتها إلى مكتب المديرة التي أخبرتها بانبهار شديد أن سيارة من باب العزيزية تنتظرها أمام المدرسة. لم تفهم ليلى ما يجري. لكن لم يشكّك أحد في ضرورة مرافقتها للسائق. في البداية، انتظرت المراهقة لوهلة في الصالون، ثم قادها أحمد رمضان، السكرتير الخاص للقذافي، إلى مكتب القائد. كان يرتدي جبّة بيضاء، فأقبل للقائها، وأسبغ عليها عبارات المجاملة مثنيا على جمالها، ثم بدأ يلامسها ويتحسّس جسدها. ذهلت ليلى وتصلبت، ولما أمسك صدرها بكلتا يديه، جمحت، وصرخت، وانتفضت ثم هربت. كان أحمد رمضان ينتظر من الجانب الآخر من الباب فسألها ببرود : «هـل انتهيت ؟» كانت ليلى تبكي حين أضاف : «يجب توديع القائد قبل الـرحيل». وفتح لها الباب مجددا، فإذا بالعقيد جذل، ومنتصب القضيب. أعادها السائق إلى المدرسة، ولم يطرح الأساتذة أو المديرة أيّ سؤال، بل ظهرت لديهم بعض العلامات لشكل جديد من الاحترام.

في مساء اليوم نفسه، اتصل بها أحمد رمضان في المنزل: «إنّه لشرف عظيم أن يختارك القائد. كان بكاؤك سخيفا، لقد أراد أن يكون لطيفا معك». ولم تخبر ليلى والديها. وبعد أسبوع، أتت مجموعات من اللجان الثورية، وحاصروا المنزل العائلي، ونهبوه بالكامل بحثا عن وثائق خطيرة حسب ادعـائهم. وقد أهين والدها، وعُنّف وجُرّ على الأرض. كانت العائلة في حالة صدمة. ومن الغد، اتصل أحمد رمضان : «علمتُ ما أصاب عائلتك. لكن اطمئني،

سنحميك بما أنّك تشتغلين لدى القائد». أخبرها أنه أرسل لها السائق قريبا جدا من المنزل. شعرت ليلى أنّها وقعت في الفخّ. فاخترعت حجة لتبرر خروجها. ثمّ وجدت نفسها في باب العزيزية. وجها لوجه مع القذافي :

– رأيت ما حصل لعائلتك ؟ قد تتعكر المسائل أكثر. الأمر موكول إليك، تستطيعين تقديم النفع لهم. كما بمكنك أن تلحقي بهم ضررا كبيرا...

– ما الذي يجب أن أفعل ؟

– كوني مطيعة ! أنا أكاد أجزم أنني أثير غرائزك.

قدّم لها عصير غلال أجبرها على شربه. والتصق بها وقبّلها بشراهة ثمّ اختفى.

عـادت السيارة لنقلها بعد بضعة أيام. أدخلها أحمد رمضان لصالون صغير حيث بقيت تنتظر لساعات طويلة. بعد ذلك ساقها إلى مكتبة ليظهر القذافي أخيرا : «اخترت هذا الديكور خصيصا لك لأنني أعشق الطالبات والكتب». ومباشرة، طرحها فوق فرش كان على الأرض، واغتصبها. كانت الصدمة شديدة وعنيفة لدرجة أنها أصيبت بالإغماء. ولما استعادت وعيها، وجدته يشتغل على مكتبه، وانفجر ضاحكا : «ستجدين متعة في ذلك لاحقا !».

واصل دعوتها واغتصابها لمدة ثلاث سنوات : «أنا سيد ليبيا ! كل الليبيين ملكي، وكذلك أنت ! أنت ملك يميني، ويجب أن تعلمي بأن هناك سورة في القرآن تقرّ بأن للسيد الحقوق جميعها». تذكرت ليلى، ثلاثة أعوام من المعاناة القصوى. كانت تنطوي على نفسها، تهجر المدرسة، تعاقب وتعنّف في المنزل بسبب غيابها الذي لم يعد بإمكانها تبريره.

اتّهمها والداها بالمجون. لكن القذافي كان يكرّر لها : «كلمة واحدة منّي ولن ترى والدك مجددا!» ذات يوم، أخبرته بأن العادة الشهرية قد انقطعت عنها منذ مدّة. لم يمنعه ذلك من مواقعتها مرّة أخرى. ولكن بعد مدّة، قدّم لها أحمد رمضان مبلغا من المال واقترح عليها التحول إلى مالطا. كان المبلغ زهيدا، ولم يكن هناك شيء مرتّب مسبقا. كان عليها أن تعتمد على نفسها، وأن تجد فندقا ومستشفى. عندما أجهضت، قدّر الطبيب أن «حالتها سيئة جدا»، واقترح عليها القيام بعملية إصلاح غشاء البكارة بعد أيام. تمّ إنقاذها. وخلافا للعادة، لم يعاود باب العزيزية الاتصال بها أبدا.

هــدى

كانت هدى أيضـا، ولسنين طـوال، واحدة من بين عشيقات العقيد بالإكراه. لم تكن تقيم في باب العزيزية، لكنها كانت تُستدعى في أي وقت. كانت حياتها جحيما. كانت تبلغ سبع عشرة سنة في التسعينات، وتقوم بمراجعة الدروس أستعدادا لإمتحانات الشهادة الثانوية مع مجموعة زميلات اعتدن المراجعة معا، عند بعضهن البعض. في يوم ما، لمحتها سيدة كانت تزور أمّ الزميلة التي كن لديها، فأثنت عليها كثيرا، وقالت لهـا : «كـم أنت جـميلة!». انزعجت هدى كثيرا، وراوغت مخاطبتها المحدّقة بها. لكنها التقتها لاحقـا فجددت لها عبارات المجـاملة : «أعتقد أنّك رائعة. أنهي امتحاناتك بسرعة. عندي اقتراح لك». تضايقت هدى كثيرا وظنت أنّ محدّثتها تبحث لها عن زوج.

اعتقل شقيقها بعد ذلك بفترة وجيزة. كان يتردد بانتظام على المسجد. هو إذن محل شبهة بالتأكيد. واتصلت إثر ذلك السيدة الغريبة الأطوار قائلة : «أعرف أناسا بإمكانهم إطلاق سراح شقيقك. فلنلتقي. سآخذك إليهم». أقلّتها في السيارة وأدخلتها إلى ساحة باب العزيزية. لقد اعتادت السيدة المجيء على ما يبدو، في حين كانت هدى مندهشة. تساءل رجل في المكتب الأوّل : «أهذه هي الجديدة ؟» تلقّت هدى سؤاله كإنذار بالخطر، لكنها لم تكن تتصور ما سيحدث لها. قدم إثر ذلك أحمد رمضان: «ها هي إذن الفتاة التي وقع شقيقها في ورطة ! هيا اتبعيني!». قادهما إلى مكتب كبير حيث ظهر فجأة معمر القذافي وهو يقول : «شقيقك خائن ! أتمنى أنك ثورية حقيقية، وأنّك لن تصبحي مثله!». ثم اقترب منها ومرر يداه على كامل جسدها، ثم عانقها وألصق جسده بها: «سأفكّر في حل لمشكلة أخيك لأنّي أعتقد أنّك رائعة». قبّلها من رقبتها، وحاول الإمساك بثدييها، ثم أخرج إيره. انهارت الفتاة، وبجانبها كانت السيدة تجلس القرفصاء وتربّت على وجهها : «أفيقي ! إنّك سخيفة ! هذا سّيدك! إنها فرصتك!». اقترب القذافي ليلمسها من جديد، فقاومت وأطلقت عقيرتها بالصياح. عندئذ أمسكها من ملابسها وألقى بها بعنف في زاوية الغرفة، ثم أحكم قبضتيه بشراسة على السيدة الأخرى، وواقعها بسرعة. فاصفا التلميذة بنظرة مليئة بالوعيد : «في المرة القادمة سيكون الدور عليك !».

في السيارة التي أقلّتها للعــودة، كانت هدى مصدومة جدا، ولم تقدر على التفوه ولو بكلمة. فسّرت لها مرافقتها: «للسيد جميع الحقوق علينا، سيضاجعك، ويطلق سراح شقيقك،وتستطيعين حينها الحصول على منحة جامعية».
لم تخبر هدى والديها بما حدث لها، لقد كان ذلك مستحيلا. لكن عندما صفعتها والدتها وقد تملكها الغضب من تأخيرها، ردّت باقتضاب ودون أي تفاصيل : «لقد قبضت علي الشرطة واستجوبتني بشأن أخي».

مرّت أيــام ثلاثــة، ثم هاتفتها السيدة، وقالت لها : «لا أستطيع الذهاب معك إلى باب العزيزية، ولكن سيارة تشريفات ســتأتي لتقلّك، فكــري في شقيــقك»، وجدت هدى نفسها إذن أمام أحمد رمضان يستجوبها بخصوص أخيها ويدوّن أقوالها، طمأنها ذلك، ربما لم تكن محاولتها دون جدوى، ولكن كان يجب رؤية القــائد مرة أخرى.
دخلت مكتبه : «هــل كنت تتصــورين أننا سنطلق سراح خــائن بهذه الســهولة ؟ أنت تحلمين ! ذلك ليس بالشيء الــبسيط، إضافة لكونك عنيفة وستصرخين مجددا إذا لمستك».

– كلاّ، لا أود إغضابك، لكن متى يمكن لأخي مغادرة السجن؟

– لن تصرخي ؟ هل تعديني بذلك ؟

وبحركــات ســريعة، جرّدها من ثيابها، وطرحها على الأرض بجانب المكتبة، واغتصبها، ثمّ ابتعد دون أن ينطق بكلمة، لم يأت أحد لرؤيتها أو يهتم لمصيرها، ولم تكن

تعرف كيف الخروج. فتملّكها الرعب ومكثت طوال الليل في المكتب. وجدها أحمد رمضان في الغد وقادها إلى غرفة صغيرة في الطابق السفلي، وما إن داعب النوم أجفانها حتى التحق بها القذافي. فاغتصبها مجددا وعنفها، وعضّها! نزفت بغزارة، وبقيت محتجَزة ليومين دون أكل أو شرب. في اليوم الثالث، أرسلها أحمد رمضان إلى منزلها وأخبرها أنّه سيعاود الاتصال بها.

فزع والداها من الهيئة التي كانت عليها ابنتهم حين عودتها إلى المنزل. لقد كاد القلق يدمرهما وهما يكتشفان ابنتهما في حالة يرثى لها. لم تكن هدى ترغب في الكلام، ولكن أمام ضغط الأسئلة، همست أنها كانت في قسم الشرطة. تملّك الذعر العائلة التي تصورت أنه من المؤكد أنّ لذلك علاقة بالابن الموقوف. فأحاطت بها تواسيها، وأصرت على نقلها إلى المستشفى. فحصها الطبيب، ثم سألها :

– لقد تم اغتصابك.

– نعم، ولكن أتوسل إليك ألّا تخبر والديّ.

– يجب تقديم شكوى.

– كلّا، مستحيل.

– هذه علاقة جنسية خارج إطار الزواج. القانون يجبرني على إبلاغ الشرطة.

– هل تريد أن تلقى حتفك؟...

لم يتركها القذافي في سلام. تحمّلت لسنين طوالا أوامره. جنونه. عنفه، وتخيلاته الشبقية. لم تقدر على التخطيط لأي مشاريع. وعاشت منزوية خائفة من انكشاف أمرها. اشتبه والداها أخيرا في أمرها. إذ لم تعد سيارات التشريفات تأتي لنقلها سرّا كما السابق. كان القذافي يشترط حضورها أثناء جميع خطاباته، واكتشفت هدى أثناءها ثلّة من النساء اللاتي كنّ مثلها. كنّ يتبادلن النظرات دون أن يتحدثن. كيف سيطرحن الموضوع ؟ من منهنّ محل ثقة ؟ طلب منها القذافي ذات يوم، في إطار الإعداد لحدث شعبي، أن تهرول تجاهه وتقبّله أمام عدسات الكاميرات. تظاهرت بالمرض... فاتصل بها ليلا، وهددها مشترطا عليها ملابس معينة، وجاهزيّة مطلقة. أصابها الاكتئاب وفقدت لذة العيش. بعد عدة سنوات تعرفت على رجل أحبته فجنّ جنون القذافي. لكنها تزوجت بحبيبها، ورفضت منذ ذلك الوقت الذهاب إلى باب العزيزية. رغم الأوامر والمخاوف. سيبتسم لها الحظ، فإن الكثير من العرسان - ممن لم يختبرهم سيد ليبيا بنفسه ليحلوا محله لدى محظياته - لم يعمّروا حتى موعد زواجهم من حبيباتهم.

زوجة الجنرال وإبنته

سيكون الحديث، هذه المرة، عن ابنة جنرال كشفت أمرها إلى صحيفة أسبوعية. هي «ليبيا الجديدة»، والتي أكد لي رئيس تحريرها، محمود المصراتي، صحة شهادتها. كان القذافي يستفسر دائما عن الوضعية العائلية لأتباعه وعن أناقة زوجاتهم. فعلم أن لإحدى جنرالات جيشه زوجة

بالغة الجمال. هل هو من أصدر الأوامر بنفسه ؟ أم أن الفكرة جاءت من مبروكة ؟ ولكن الذي حدث أن ثلاثة من حارساته ذهبن ذات عشية إلى منزل الجنرال، وسلّموا زوجته دعوة إلى حفل نسائي تنظمه في مساء اليوم نفسه صفية فركاش، زوجة العقيد. بدا الجنرال حذرا. فلم يصل إلى مسامعه خبر هذه المبادرة، ولم يكن يحبذ فكرة ذهاب زوجته إلى باب العزيزية. اتّصلت أحد الحارّسات برقم ما، ثم سلمته الهاتف. كانت مبروكة على الطرف الآخر من الخط. والتي أخذت تقول له : «هذا شرف عظيم يكرمك به العقيد! وهو الدليل على أنه يدرك درجة ولائك له، ويعتبرك ثوريا حقيقيا. ستكون حفلة رائعة، حصريا للمتزوجات». اطمأنّ الجنرال وسمح لزوجته بالذهاب، لكن إثر عودتها، بدت غريبة وغامضة. تقول ابنتها : «كان يبدو على أمي شيء من الانكسار». ثم تتالت الدعوات، وخاصة في فترات غياب الجنرال. وبعد عدة أشهر، عادت الزوجة بمفاتيح شقة جميلة، وأعلنت أنها «هدية» من زوجة العقيد، مؤكدة أنهما أصبحتا صديقتين حميمتين. غيرت العائلة محل سكناها، وتحسنت ظروف العيش بدرجة واضحة. الحياة حلوة بأموال باب العزيزية. لكن ذات مساء، أقبلت مبروكة واثنين من النسوة حاملات هذه المرة دعوة من عائشة، البنت الكبرى للقذافي، إلى بنت الجنرال. شحبت الأم وحملت يديها إلى وجهها. بدت مرعوبة، في حين كانت ابنتها في قمة السرور : «الليلة ؟ بكل سرور ! يبقى المشكل الوحيد أنني لا أملك فستان سهرة!». ابتسمت مبروكة، ثم استدارت وأشارت إلى حقيبة. «ستجدين في هذه الحقيبة كل ما يلزمك لتكوني في أبهى حلة». ارتدت الفتاة الفستان

بأناقة. وتزينت، ثم رافقت مبروكة دون أن تفهم لماذا ودّعتها أمها دامعة العينين. بدا الجنرال نفسه مرتبكا. سيتضاعف ارتباكه عندما ستعترف له زوجته باكية أن دعوات صفية كانت غطاء للقذافي. وأنّ الأموال، والهدايا، والشقّة لم تكن إلّا مكافأة لعلاقة جنسية إجبارية. ثار الجنرال، صرخ، وقرر الذهاب فورا إلى باب العزيزية. لكنه انهار أرضا، ضحية جلطة دماغية، ونُقل إلى المستشفى.

في تلك الأثناء، استغربت ابنته ظهور القذافي بالصالون حيث مكثت طويلا، فسألته وهي تبتسم : «أين عائشة»؟ فأجابها ببرود : «أنا عائشة!». ودون أن يحاول إغراءها، ولا حتى التظاهر بذلك، اغتصبها وعنفها وأهانها مرارا وبقدر المستطاع. ولم تغادر باب العزيزية إلّا بعد أسبوع لرؤية والدها يحتضر في المستشفى. سيسهّل موته الأمور، عندما أصبحت مبروكة تتصل بانتظام لاستدعاء البنت. كانت تطلب من الأم إعدادها حسب ذوق العقيد وطلاء أصابعها بالحنّاء، وهي تقول لها :

«تعرفين ما يجب فعله!»

*

الشهادات عديدة، وليس بإمكان المجتمع الغربي تصوّر تكلفة هذه الاعترافات. ليس بمعنى الصدمة الشديدة، التي كانت نفسها في كل مكان، ولكن بمعنى ما يمكن أن تواجهه أولئك النسوة وعائلاتهن من مخاطر. إنّ الفوضى التي تعم ليبيا – الملآى بالأسلحة – ووطأة الشعور الديني يقصيان حاليا كل نقاش هادئ حول الموضوع. ذلك ما

يفسر أنه رغم قواعد الصحافة الأساسية التي تشترط التعريف بالمصادر، فقد قبلت احترام طلبات معظم النساء المذكورات في الكتاب والحفاظ على سرّية هويتهن.

3

الأمـــازونيات

ساهمت حارسات العقيد القذافي، اللاتي كانت الصحافة العالمية تسميهن بـ«الأمازونيات»، بصورة كبيرة في صنع أسطورته، وشهرته الإعلامية. حيث كان منظرهن من حوله يعلق بالأذهان، أكثر حتى من أزيائه الغريبة؛ والتي ما فتئت تزداد غرابة في المدة الاخيرة، أو نظّارات «الروك ستار» الشمسية السوداء التي لا تفـارق عينيه، وشعره الأسود المنفوش، ومحياه المجعد كوجه مدمن كوكايين رغم حقن البوتكس، ورغم طبقات المكيـاج التي تحـاول إخفاء ما أفسده الدهر. وكن يتبعنه في كل مكان، في أزياء عسكرية متباينة الألوان، والتفصيلات. بعضهن تحمل السلاح، بينما لا نرى أي سلاح لدى البعض الآخر. وقد انسدل الشعر على الكتفين أو لُفّ بعنـاية داخـل قبّعة، أو طاقية، أو كاسكت، أو عمامة : غالبا ما كن في مكيـاج كامل، ويتزين بأقراط في الأذنين، وقلائد عليها صورة العقيد، وينتعلن

الأحذية العسكرية، او المدنية ذات الكعـــاب العـــالية. وفي بعض الأحيان نراهن في أحذية ناعمة.

كان القذافي يحتاجهن لإثارة الانتباه، وليعطي لنفسه هالة من الأهمية، حيث كنّ نقطة جذب لعدسات المصوّرين، ومثار افتتان لرؤساء الدول والوزراء، الذين يكونون في استقباله على سلم الطائرة، أو عندما يستقبلهم في خيمته بباب العزيزيّة. ولم يخف وزير الخارجيّة الفرنسيّ الأسبق رولان دوما بهجته بأن تحرسه، هكذا، «فتيات في منتهى الجمـــال ؛ وهن يمتشقن الســـلاح». أما ابتسامات الرئيس الإيطالي سلفيو برلسكوني الشبقة، فقد كانت تعكس مدى ارتياحه لوجودهن حوله. ولكن رسالة القذافي، من وراء ذلك، كانت شديدة الالتباس. لقد كان يسعى دون شك لتأكيد «تميزه» على الصعيد العـــالمي، فقد كان العقيـــد، المهووس بالعظمة واستفزاز الآخرين، يولي أهمية قصوى لصــــورته، وما تتطلبه زياراته الخاطفة وخطاباته من إخراج مسرحي. فهو يريد أن يكون «فريـــدا»، لا يشبهه أحد، ولا ينافسه أحد، ولا أن يُقارن بأحد، حتى أنه كان يمنع في ليبيا أن يبـــرز أي اسم آخر غير اسمه : (فليس ثمة من كاتب أو موسيقار، أو تاجر، أو اقتصادي ولا ســـياسي) ليبيّ استطاع أن يفرض نفسه في عهده. وكان يحرم على المعلقين الرياضيين في القنوات الليبية ذكر أسماء اللاعبين، والاكتفاء أثناء نقل المباريات بالإشارة إلى أرقام قمصانهم. وبالتالي فإنّ فكرة لفت أنظار العالم بأسره، إليه باعتباره رئيس الدولة الوحيد الذي يتكون حرسه الشخصي بالكامل من النساء ؛ كانت ترضي ذاك الطموح.

من ناحية أخرى، كان توظيفه للنساء لحراسته، تجعله يبدو متوافقا مع ما يدعو له من أفكار تقدمية بشأن حرية المرأة. وأنه لم يتقاعس في تطبيق أفكاره التي دار حولها عدد لا يحصى من المؤتمرات ومن الخطابات ! والدروس الموجّهة إلى الغرب وإلى العالم العربي بكامله ! فقد كان جد حريص على تأكيد هذه الفكرة : العقيد القذافي «المناصر الحقيقي للنساء». وقد حرص خلال كافة تنقلاته الرسمية، سواء داخل ليبيا أو خارجها، على بـــرمجة لقـ ا، بذاته مع مختلف المنظمات النسائية ليشدّد على هذه الرسالة.

في الواقع، كان العقيد القذافي قد طرح بعض من ملامح وجهة نظـــره التقدمية بشأن المـــرأة، في الجزء الثالث من الكتاب الأخضر الشهير، والتي تتحدث عن (المساواة بين الجنسين، ومكافحة التمييز غير المبّرر، وضمان الحق في العمل للجميع : شرط أن تحترم «أنوثة» المرأة...) ولكن خطابه ازداد راديكالية بسرعة كبيرة، وسيغير رأيه بالنسبة للنقطة الأخيرة، حتى إنه أصدرا قرارا بتأسيس أكـــاديمية عسكريّة للنساء عام 1979. وبعد ذلك بسنتين، وبمناسبة الاحتفـــال بتخرج أول دفعة من صفوفهـــا، ذهب للقول: «إن هذه الأكاديمية، الفـــريدة في العالم، تـــؤسس لمفخرة عظيمة، وإن جرأة الشـــابات الليبيات اللاتي كن ينتسبن إلى الأكاديمية بأعداد غفيرة، تمثل الـــدليل الساطع على انقلاب العقليات». وكان لابدّ من المواصلة !.

في هذا السياق، سينهض القذافي يوم الفاتح من سبتمبر عام 1981، لإطلاق دعوة مذهلة مفادهـــا : إن «الرجال والنســـاء في الأمّة العربيّة خـــاضعون لمحـــاولة استعباد،

ولكن داخل الأمة العربيّة خضعت النساء، في الحقيقة، لسلطة قوى الاضطهاد والإقطاع والاستغلال. ونحن ندعو إلى ثورة لتحرير نساء الأمة العربيّة وهذه قنبلة ستزلزل المنطقة العربيّة كلّها وتدفع سجينات القصور والصفقات إلى الثورة على سجانيهن ومستغليهن ومضطهديهن. ستجد هذه الدعوة، بلا شك، أصداء عميقة وستكون لها انعكاسات على الأمة العربيّة كلها وعلى العالم. اليوم ليس يوما عاديا ولكنه بداية النهاية لعصر الحريم والرقيق وبداية تحرير النساء في الأمّة العربيّة». وكانت النساء المسلحات تبدو، وفق هذا المعنى، كما لو كانت أجمل زهرات الثورة. وبالتالي أن يعهد إليهنّ أمر حراسته وضمان أمنه : يؤسس بالأحرى لأكثر من مجرد معنى رمزي في هذا الاتجاه. بل ذلك يعكس عمق ايمانه... بقضية النساء. ووفق هذا التصور على كل حال، كان تفسير الغرب لتمسّك القذافي بالحرس النسائيّ.

يا لها من سخرية !

وأخيرا بزركش التفاف الأمازونيات حول العقيد لحراسته، الصورة التي يروج لها عن نفسه «كمعبود النساء». وبالتالي لإطلاق العنان لمختلف التصورات، والخيالات بشأن علاقته بهن. في الواقع كان سيناريو الحرملك الشرقيّ أقرب لتصوير علاقة العقيد بحارساته. أي بعكس خطاباته التقدمية بشأن حرية المرأة وتحررها. خاصة مع غياب سيّدة ليبيا الأولى صفية فركاش : التي كان قد تزوّجها سنة 1971 (بعد زواج وطلاق خاطف) وهي أمّ سبعة من أولاده، من المشهد العام. ففي سياق هذا الحرملك،

تجد كلّ هؤلاء الشابّات رهن خدمته، ورهن إشارته. وهن مستعدّات لأن يفدينه بحياتهن بكل شجاعة ...إي أن خطاب نصير المرأة ومحررها، قد شابه هنا... لنقل الكثير من التشويش.

ولكن من هؤلاء النســاء اللاتي كانت تحيط بالقذافي مرتديات الزي العسكــري، حــارساته المقرّبات. والواجهة البراقة التي يطل منها على العالم ؟

إن ما حكته لنا ثريــا، يمثل تفنيدًا جارحًا لكل الأوصاف المدحيّة لهذا الحرس الذي يفترض أنّه متمرّس ومتقن لجميع تقنيات القتال. ألم تجبر على ارتداء الزي العســكري غداة اختطافها مبــاشرة ؟ ألم تُدمج أوتوماتيكيا في هذا الجهاز الذي اشتهر بكونه من النخبة، وتؤمر عند تنقلات القائد وسفراته، بأن تُقلّــد سائر الحارسات، وتمثل، مثلهنّ، دور الحارسة المنهمكة في مراقبة كل ما يدور حول القائد، لأن حياته رهن يديها في تلك اللحظة ؟. كانت ثريا تقول وهي ترفع عينيها إلى السماء : «يا للسخــرية!». يا له من تعدّ على الوظيفة !

في الواقع إن المراقب لتصرفات الأمــازونيات اللاتي كن بصحبة العقيد عند زيارته لبــاريس في ديسمبر 2007، سينحو بالأحرى إلى تأكيد تهمة «التحــايل على المهنة» من طرفهن : حيث كن يقفن أمــام عدســات المصورين على سطح قارب سياحي. وهنّ يضحكن مثل تلميذات المدارس الإعدادية. قبل أن يذهبن للتسوّق في متاجر فوبورغسانت هونوري والشانزليزيه. كلاّ. إنّ هؤلاء الفتيات

لم يكنّ خريجات الأكاديمية العسكريّة. بل، لقد كنّ بالأحرى عشيقات القذافي، ومتعه الـــجنسيّة. محظياته أو جواريه. يقول سيد قذّاف الـــدم ابن عمّ الـــقذافي، والذي شغل في عهده منصبا في الجيش الليبي، من سجنه بمصراتة : «لقد كان منظرهن يقرفني».

البحث في هذا الشأن في طرابلس بدأ صعبا، فلم يكن أحد يرغب في الخوض في موضوع هؤلاء الحارسات الشهيرات. لقد اختفين مع العقيد. تلاشين ! ولم يعد ذكرهن يثير إلاّ الانزعاج والازدراء. كان أول مكان قصدناه لتقصي أمرهن هو وزارة الدفاع الليبي، والتي لن يكون الـــولوج لداخلها ممكنا إلا بعد الدوس على سجّاد تتوسطه صورة القذافي. السيد أسامة الجويلي؛ أحد قادة ثوار الزنتان، والذي عين وزيرا للدفاع بعد مقتل العقيد، أوضح لي بهذا الشأن؛ «لقد أثر وجودهن حوله تأثيرا بالغ السلبية على صورة الجيش الليبي. يا للعار! ويا للصفعة الموجهة إلى العسكريين الحقيقيين، أولئك الذين كانوا يملكون فكرة نبيلة عن مهنتهم، وعن شرف الدفاع عن بلادهم!».

وواصل : «كان القذافي يضعهن في المقدمة لجلب الأضواء ولتلميع صورته، ولكنهن لم يكن عسكريات. كان الأمر مجرد كذبة كبيرة. وهو في أثناء ذلك كان يدمّر جيشه. لقد كان الأمر بالنسبة لنا خارج القدرة على الاحتمال..... وانتهيت من طرفي إلى كره هذه المؤسسة. وقدمت استقالتي في أول فرصة سنحت لي. إلى أين كنا نتوجه ؟ كيف كان ممكنا أن نحمل هؤلاء النسوة اللاتي كان يُلقى بهن في عالم الرجال، على محمل الجدّ ؟ من كان يستطيع أن يصدق ولو لظل

لحظة أنّه يعهد إليهن بحمايته بالفعل ؟! في الواقع لم يكن لهن أكثر من دور استعراضي. أو للترفيه عن المحيطين به، أو لكي يملاء بهن أوقات فراغه. لقد كان ذلك مقرفا».

ردّة الفعل نفسها نجدها عند رمضـــان علي زرموح، رئيس المجلس العسكري بمصـــراتة، ثالث أهم مدينة في ليبيا. وهي بالتأكيد إحدى أكثر المدن تعرضا لعصف الحـــرب. والذي كان قد استقال بـــدوره مبكرا جدّا من جيش القذّافي ؛ رغم رتبة العقيد التي بلغها. وهو أيضا كان يندّد «بالمسخرة»، و«المسرح المثير للشفقة»، ليس فقط فيما يتعلق بالحارسات الشخصيّات، ولكن كذلك بكل المجندات. وهو يشدد في هذا الـــصدد ؛ «أؤكد لك أنهن فتيات مسكينات فقد كنّ يصلن فجأة إلى صفوفنا، مشحونات بخطابات هذا السافل ؛ الذي كان يجعل منهن مجندات لذر الرماد في العيون أمام العالم، إنما في الحقيقة كل ما يريده منهن هو إشباع رغباته الشخصية ! لذلك هن لم يحصلن على تعليم عسكري حقيقي، ولا على تدريب كاف يؤهلهن لخوض غمار العمل العسكري، وفي كثير من الأحيان تكون الفتاة قد شقت عصا الطاعة على أهلها، لأنهم رفضوا السماح لها بالالتحاق بالكلية العسكرية. فإنه يصعب في الواقع على الأهل السماح لبناتهم بولوج عالم الرجال هذا، على هذا النحو ؟ وفي ليبيا ! يالها من نقمة!. لذلك نحن نعتبرهن بالأحرى ضحايا، بينما كان هو يعتز بنشرهن حوله ؛ عشيقات، ودمى غير قادرات على حمايته، وكان يجب أن يقف وراءهن بالضرورة حراس حقيقيون من رجالاته».

كانت هذه الأحكام الراديكلية، يشترك فيها كلّ العسكريين والثوار الذين أمكن لي أن أحاورهم. فهل وراء ذلك نزعة ذكورية ؟ ثمة شيء من ذلك بلا شك. فاندماج نساء ليبيات في الجيش لم يكن يلاقي على الإطلاق القبول الحسن في صفوف العسكريّين، أو لدى المجتمع التقليدي الليبي. يجب أن نقول إن العقيد القذافي كان قد حرق المراحل في بلد كانت فيه النساء، زوجات وأمهات، سجينات البيوت. فهو انطلاقا من سنة 1975، كان قد نادى بمفهوم «الشعب المسلّح» ودافع عن فكرة أنّ السلاح لا ينبغي أن يظل حكرا على جيش نظامي مآله الزوال، بل ينبغي أن يوضع بأيدي كل المواطنين والمواطنات الذين ينبغي أن يدرّبوا على السلاح في الحال.

في سنة 1978، أصدر قانونا يتعلق بالتدريب العسكري الإلزامي، والذي يجب أن يخضع له كل الشعب، بما في ذلك طلاب المدارس والمعاهد، أولاد وبنات. كانت تلك في الواقع ثورة صغرى؛ حيث كان من الضروري أن ترتدي الفتيات، أمام ذهول أوليائهن، الزي العسكري ويتلقين التدريب العسكري على يد مدربين من الرجال. بهذا الخصوص سيصرّح العقيد في أحد خطاباته : «إن زيّا قتاليا ترتديه امرأة؛ أكثر قيمة من كساء من حرير ترتديه بورجوازية جاهلة، حمقاء، سطحيّة وغير واعية بالتحديات التي تواجهها هي نفسها، والتي يواجهها بالتالي أبناؤها». وفي سنة 1979 أسّس الأكاديمية العسكرية للنساء، وأرسل إلى مدارس البنات حشدا من المروجين للالتحاق بالسلك العسكري، ممن يملكون قدرة خاصة على الإقناع، وذلك لتحريض البنات

على الالتحاق بهذه الأكاديمية. كان يجب التحرك بسرعة: فالنساء المحرّرات والمسلحات سيؤسسن لواجهة دعائية استثنائية له. أما البرامج المقترحة فكانت: ثلاثة أشهر من التدريب لكي تتخرج برتبة جندي، للملتحقات بالأكاديمية بعد الشهادة الإعدادية؛ وسنتان من التدريب لكي تتخرج ضباط صف للملتحقات بعد الشهادة الثانوية.

وأخيـــرا، جاءت في عام 1981، فكـــرة حركة «الراهبات الثوريات»؛ والتي كانت مفتوحة لجميع النساء، مدنيات وعسكريـــات؛ لتؤسس لـــ«نخبة النخبة». ولكي يتم قبول المرأة فيها، ينبغي أن تكون مستعدّة للزهد في الزواج وتكريس حياتها، كل حياتها، للدفاع عن أهداف الثورة دون سواها، وبالأحرى أن تكرس نفسها للقائد. تلك كـــانت «الفنتازيا» الكبرى للعقيد القذافي. ولهذا نجده قد نهض بنفسه، في خطاب ألقاه يوم 13 فبراير عـــام 1981، أمام رائدات الحركات الثورية النسائية، للتحريض على هذا الخيار. حيث قال: بعد التطرق لنموذج الراهبات النصرانيات: «اللاتي يرتدين اللباس الأبيض، رمز النقاء، واللاتي يكرسن حياتهن للمسيح، مثلهنّ الأعلى»، وفي نبرة مستنكرة: «لماذا تترهبن النصرانيات وأنتن تفضلن الجلوس متفرجات؟ هل الراهبات النصرانيات أعظم من الأمة العربيّة ؟». وأضاف: «وعبر نكران الذات تصبح الراهبة الثوريّة مقدسة، نقية، وترتقي فـــوق مرتبة الأفراد العـــاديين، لتكون أقـــرب إلى الملائكة».

لم أتمكن من مقابلة أي من الراهبات الثوريات: فهن، ومنذ عهد القذافي، كنّ قد انصهرن في المجتمع، ولم ينجح

أحد في تقدير عددهنّ. وغني عن الذكر بأنه ليس ثمة اليوم إي إمرأة تقول عن نفسها إنها راهبة ثورية. ولكنني بالمقابل تمكنت من مقابلة ضابطتين برتبة عقيد ؛ كانتا قد استجابتا في صغرهن لنداء القائد، والتحقن في حماس كبير بالجيش الوطني. إحداهن، التحقت بالثوار ضد القذافي، وهي اليوم قد استعادت احترامها لبدلتها العسكرية، ودورها كضابط في الجيش الليبي الحر، وذلك بعد أن كانت قد فقدت كل إيمان بدورها في هذا الجيش في عهد القذافي. والأخرى موجودة في السجن حاليا، في انتظار محاكمتها بتهمة جرائم القتل أثناء الحرب الأهليّة، والتي تتنازعها الآونة مشاعر الحنين والغضب.

لقد تطلب إقناع العقيد فاطمة بالحديث إلينا أياما عدّة. لم يكن لديها، مبدئيًا ما تؤاخذ نفسها عليه. ولكن، لقد كانت عسكرية، وكغيرها من المجندات، ضحايا التاريخ، صدقت لوهلة برسالة القائد. وصار قدرها أن تواجه عدم تقبل الليبيين، رغم كل الحملات التعبوية من طرف نظام العقيد، للنساء المجندات. وهم، منذ ثورة 2011 صاروا يعبرون بوضوح عن نفورهم منهنّ، لذلك لم يعد الأمر سهلا بالنسبة إلى سيئات الحظ الناجيات من عهد القذافي، واللاتي صرن يتجنبن اليوم أن يتصدرن المشهد. ومع ذلك فإن العقيد فاطمة كانت ترفض فكرة أن تستبعد النساء نهائيا من الجيش، وأن تستغلّ تجاوزات القذافي ومغالطاته لإقصائهن. ففي ذلك ظلم وإهانة في آن. على إن العقيد فاطمة، قد قبلت أخيرا أن تفتح قلبها لنا، وجاءت يقدها المياس، في إحدى الأمسيات الطرابلسية لغرفتي بالفندق،

متلفّة في معطف أحمر، يعلوه وشاحا أسود اللون يغطي رأسها في أناقة. كانت متوترة بعض الشيء، لكن المكان بدأ لها هادئا ومحايدا، مما ساعد على أن تأخذ راحتها في الحديث، وباشرت بالقول : «بعد زمن الادعاءات، حان زمن الحقائق».

«كان المجنّدون الذين جاؤوا إلى معهدي في نهاية السبعينات قد سيطروا على عقلي : فالفكرة التي يقدّمونها عن التطوّع بالجيش كانت من البريق إلى حدّ أنني لم أعد أرى مستقبلي إلاّ في الجيش. فلا شيء أكثر إثارة للحماس من فكرة الدفاع عن الوطن: رجالا ونساء؛ متحدين وعلى قدم المساواة. فيا لها من فكـرة مثيرة...وثوريّة! خاصة وأنّهم كانوا يستشهدون بنموذج الثورة الجزائرية التي شهدت بطولات العديد من الفتيات أمثال جملية بوحيرد، ممن خاطرن بأنفسهن كلّ المخاطرة كضابطات ارتباط، ومقاتلات، من أجل تحرير الوطن. لقد كن بطلات رائعات، نساء رفعت الرأس. وكنت أحلم بأن أقوم بدور مماثل». وكان التدرب العسكري في المدارس قد اكتسب منذ فترة قريبة أهمية بالغة، من تمارين رياضية، والتدريب على الأسلحة، وندوات، واختبارات. وكانت فاطمة تتفانى في ذلك كلّ التفاني، وهي مقتنعة بأنها تشارك وفق هذا الانخراط في تطبيق فكرة «الشعب المسلّح»، الذي ينادي به القذافي، بينما كان أهلها معترضين على فكرة فرض الزي العسكري «الرجالي» على طالبات الثانوية، الأمر الذي لم يكن مقبولا في المجتمع الليبي. تقول فاطمة: «لم يكن المجتمع الليبي جاهزًا، ولكن نحن الشباب وقعنا في الفخ. ثمّ عندما

صارت الخدمة العسكرية من جديد إلزامية، وصار على كلّ مواطن ليبي أن يخضع لعدّة أسابيع في السنة للتدريب العسكري. كان علينا أن ننخرط جميعًا في المشروع».

هكذا صار لكل ليبي بطاقة عسكرية. الامر الذي انتج نوعا من السوق الموازي، تدور فيه تجارة هذه البطاقات، والتي كانت تسمح، في الواقع، للثريات بأن يفلتن من التدريبات، ولكن فاطمة كانت تجهل هذا الامر في حينها. التحقت فاطمة إذن سنة 1980 بالأكاديمية العسكريّة بطرابلس، ضمن طالبات الدفعة الثانية. هذه التي ضمت في حينهـا فتيات عربيـات أيضا : من مصر، ومن لبنـان، ومن الجزائر ومن السودان. وكان الأساتذة المسؤولون على التعليم ما يزالون أساسا من الرجال. وكان المنهج الدراسي على درجة من الجدية : من ذلك التدريب على استعمال التواصل بتوظيف إشارات مورس، وعلم الخرائط. كذلك السكرتارية،والتكنيك العسكري،واستعمال السلاح. بالإضافة إلى التطبيق الميداني والقيام بالمناورات الحربية. بما في ذلك المناورات الليلية، أو أثناء العواصف. «ولكن كان كل ذلك يسعدنا!» تشرح العقيد فاطمة، وتواصل: «لقد تحولنا إلى نقطة جذب للعالم بأسره. وكانت فرق التلفزيّون تأتي إلينا من كلّ حدب وصوب. وكنا في الواقع نكاد نطير من الفرح. لقد أصبحنا نحن المستقبل ورائدات الحداثة!». وبطبيعة الحال، كان كل خطاب من خطابات القذافي يثير حميّة النساء أكثر. لقد كان البطل الوطني في أعينهن، ولم يكنّ يشكّكن في أنه بالفعل يسعى إلى تغيير حياة الليبيات، وأن بعضهن قد تصل يومًا بفضله إلى مرتبة الجنرالات.

ثم كان يوم الاحتفال بالتخرج، وضرورة الاستعراض العسكري، بتلك الخطوات المنسقة التي تدربت عليها الفتيات ألف مرة.... «لكنني كنت جد منهكة، حتى أنني لم أستطع متابعة خطاب القذافي حتى النهاية!». ولكن لم يمرّ شهر على تخرج فاطمة حتى تراجعت أوهامها. «لقد اكتشفتُ أن الأمر برمته كان مجرد خدعة. ولم تكن تلك الوعود إلاّ أكاذيب. فقد كان القذافي يكره جيشه بالذات. ولم يكن ينتظر شيئا من النساء بطبيعة الحال. ليس أكثر من منظر خلفي، يساهم في صنع «أسطورة» القذافي.... ويضمن له لفيفا من العشيقات من حوله».

عيّنت الضابط فاطمة مسؤولة عن التدريب العسكري بالمدرسة المجاورة لباب العزيزيّة. ولكن حتى هذه المهمة لم تتمكن من القيام بها، وذلك لأن مجموعة من «طالبات المدرسة من زمـرة القـذافي» : تكفّلن بذلك بكـل غرور. «كنت أرتدي البدلة العسكرية في البداية، ورتبة ضابط صف أعـلى الكتفين... لكنني اكتشفت على الفـور أنني لا أملك أي نفوذ». نُقلت فـاطمة بعد ذلك إلى مكـاتب قيادة أركان الجيش، وكان يأتيها السائق كل صباح ليأخذها للعمل. ولكن لم يكن لها أي دور، وظلّت تتقاضى راتبا زهيدًا. «هكذا شيئا فشيئا اخذ الإحساس بالمرارة، يطفو على كل أحلامنا، نحن خريجات الأكاديمية. حيث اكتشفنا أن دراستنا لم تكن إلا نصبًا، وانطفأ كليا في أعماقنا ذلك الحماس لخدمة الوطن، وكنا نقول في أنفسنا : لقد خسرنا حياتنا!. من طرفي توقّفت عن ارتداء الزي العسكري، بل نسيت كليا رقمي العسكري الشخصي، وفقدت رشاقتي،

وتبخر كل ما كنت قد تعلمته في الأكاديمية، ولم أعد أعرف حتى تفكيك الكلاشنيكوف!». آه، بطبيعة الحـــال، لو أنه تم اختيارها ضمن الحارسات الشخصيات للعقيد، لكانت فاطمة حصلت على بعض الامتيازات، في السفر والراتب تحديدًا. ولكن كان ينبغي أن تكون طويلة القامة، جميلة، طويلة الشعر... وأن تروق لدائرة القذافي الضيقة، أو للقائد نفسه. كما كان شأن سالمة ميلاد الحاضرة على هذا النحو في حكاية ثريا، والتي لفتت انتباه العقيد عند إحدى زياراته إلى مدينة زليتن، مسقط رأسها. «حارسات القذافي الشخصيات لم يكنّ يشكلن جهـــازا حقيقيا. ليس أكثر من خليط من الفتيـــات من القـــوات الخـــاصة، ومن الحرس الثوري، ومن مدرسة الشرطة، ومن الأكاديمية العسكرية، ومن الراهبات الثوريات و... العشيقات العرضيات. كان القذافي يوظفهن كما يشاء، ولم يكن لأي واحدة إمكانية الـــرفض، أو التظلم. ولقد عرفت بعض البارعات منهن كيف تستفيد من الوضـــع، وحصدت الهدايـــا والسيارات والمنازل. ولكن أرجوك، انسي ما يتم الترويج له باعتبارهن جهازا عسكريا من النخبة ! لقد كان الأمر سخيفا، فحرسه النسوي كان مجرد لوحة استعراضية. كان القذافي يحرص على أن يدرج فيها بعض النساء السود ليثبت أنه لم يكن عنصريًا، وليستفيد من الانفتاح على أفريقيا. أما الحراس الحقيقيون الساهرون على أمنه الشخصي، وأغلبهم من سرت، مسقط رأسه، فلم يكونوا يظهرون في الصورة».

كانت فاطمة تؤكد في تأثر أنها رأت الثورة تتصاعد ضدّ القذافي في بداية 2011. وكانت قد التحقت بها رسميا

يوم 20 مارس واضعة كلاشنكوفها «تحت تصرف الثوار». ولكنها بقيت داخل النظام. تتقصى أكثر ما يمكن من المعلومات. وتوزع المناشير في مكاتب الجيش : «لم يكن الفرار خيارًا، وإلا لكنّا أهلي وأنا اليوم في قبر جماعي». لقد أصبحت عضوا في التنظيم العسكري الذي يقوده عبد الحكيم بالحاج، قائد المجلس العسكري بطرابلس. وهي تقول إنّها استعادت نشاطها وإيمانها بعملها. ولكنها تعرف أن الأمر يحتاج لكثير من الوقت، حتى يتم إصلاح ما أفسده العقيد، وتسترد النساء حاملات الزي العسكري ثقة أهل البلد.

في سجن الزاوية، وهي مدينة ساحلية صغيرة تقع على بعد خمسين كلم من طرابلس، التقيت بالضابطة الأخرى. كانت ترفض في البداية أن تذكر لي اسمها، ثم بعد نهاية الحوار، ألقت به إلي، بطريقة غير متوقعة بالمرّة، دليلا على الثقة وعلى سبيل الهدية : «حسنا، اسمي عائشة عبد السلام ميلاد، وداعًا!». كانت الزنزانة، التي تقع في آخر ساحة صغيرة، مطلية بالأصفر. لها بباب حديدي يغلق بمزلاج ضخم، ونافذة موصدة بإحكام، وكانت مجهّزة بمكانين للنوم : فراش موضوع بشكل مباشر على الأرض، وآخر على سرير معدني متهالك. كان هناك كذلك مصباح خافت الإضاءة يتدلى من سلك كهربائي على حائط جانبي. بينما وضع جهاز تدفئة كهربائي صغير في ركن الغرفة. تعلوه مغلاة للماء الساخن لإعداد الشاي. وكان وجود سيدتين في تلك الغرفة الصغيرة قد فاجأني في البداية، وظننت أنني أمام سجينتين. ولكن المرأة المتكورة فوق السرير.

والتي كانت تبدو : بعينيها الغائرتين، ووجهها المنهك، أكثر بؤساً. تبين لي أنها الحارسة. وأنها تفضل مشاركة سجينتها الغرفة - في السجن- بدل النوم في سيارتها. كما كانت تفعل منذ أكثر من خمس سنوات، لأنه كما تشرح : «لا أحد كان يرغب في تأجير سكن لامرأة وحيدة، ومسكينة!».

وكانت السجينة، بالمقابل،في حالة صحية حسنة للغاية. طويلة القامة، هيفــاء، وكان شعرهـــا ملفوفـــا في عصبة جميلة، كانت يعطي بهاء مضافا لوجهها اللطيف. كان لها شامة على الخدّ الأيسر. وكانت تلبس في أناقة رياضية قميصا فضفاضا مخططا، تحت ثوب متناسب أسود اللون من القطيفة. وبينما جلست القرفصاء على فراشها بعد أن استقبلتنا، أبدت موافقتها على سرد تفاصيل حياتها المهنية، ولكنها كانت حريصة على أن تكون الأمور واضحة منذ البداية : لقد كانت عسكريّة-محترفة - «وعن اختيار!» - ولكنها لم تكن قد انتمت «لزمرة» القذافي، ولا لحارساته الشخصيات على الإطلاق. فإذا ما اتضحت هذه النقطة، كان بإمكانها أن توضّح أنها كانت مغرمة بفكرة الالتحاق بالجيش منذ صغرها، وكيف تفاعلت مع وفد الجيش الذي جاء لمدرستها بمدينة سبها، عاصمة الجنوب الليبي، وأحد أهم مناطق نفوذ قبيلة القذافي، وذلك لتحريض الفتيات على الالتحاق بالجيش. هكذا التحقت بالفعل بالأكاديمية العسكرية نهاية ديسمبر 1983. ومثل أغلب الطالبات كانت تنتمي إلى عائلة كبيرة العدد (تسعة أبناء)، ذات دخل جد متواضع، متحفظة كل التحفظ على التحاق إحدى بناتها بالجيش وارتداء الزي العسكري، وهي تشرح بهذا الخصوص:

«كان علينا جميعًا أن نعاند أهلنا لدخول الكلية العسكرية. ولكننا فعلنا ذلك بكل سعادة! فإن الشعب المسلح ينبغي أن يكون نصفه من النساء، وإلا فإن المفهوم سيفقد معناه؛ لأن نصف الشعب مكون من النساء. وهو الأمر الذي يعني بالنسبة لنا إن القذافي صار يثق أخيرا في الفتيات، ويدفع بهن خارج أسوار البيوت!».

لقد تمكنّت، في الوقت نفسه، من اجتياز الامتحان في شهادة التمريض ومن التخرج من الأكاديمية، سنة 1985، وانتدبت في الجنوب مسقط رأسها لتشرف على التدريب العسكري في مدارس البنات، وقد ارتقت بسرعة سلم الرتب العسكرية. وعند عودتها إلى طرابلس بعد عشرين سنة، انضمت إلى قيادة الحرس الثوري ؛ وهو جهاز مخصّص لحماية القائد، ووجدت نفسها مكلفة بأن تختار باستمرار... أجمل بنات الحرس الثوري لينضممن إلى الحارسات الشخصيات للقذافي. «وكانت تلك مسؤولية كبيرة ! فهن من كن سيبرهنّ للعالم بأسره على أنّ المرأة الليبيّة كانت مسلحة ومحترمة. هن من كنّ سيقمن بدور السفيرات ! ما كان لي أن أخطئ!» ؛ إذن كانت تختارهن «مدهشات». ولكن ما معنى ذلك ؟ هل يجب أن يكن «ذوات كاريزما»؟ أم جميلات؟ «لم يكن الأمر كذلك. كنت أريد أن يكون لهن حضورا، وأن يفرضن أنفسهن. وكنت أفضّل أن يكنّ طويلات القامة، أو كنت أفرض عليهن أن يلبسن الكعاب العالية». وهي تشرح أن الفتيات كن يحلمن بأن يقع عليهن الاختيار، بل هن يطلبن منها أن تعطي لهن الفرصة للولوج يومًا لعالم الأضواء. «وكان يمكن أن يقلب ذلك حياتهن

رأسا على عقب، خاصّة إذا لم يكن عسكريات محترفات. حيث كن يرافقن القائد في السفر، فيقبضن مبالغ مالية هامة. إذن صدّقيني من فضلك بأنهن لن يقصرن في بذل قصارى جهودهن ليكن في المستوى. تجميل ولباس رائع ... لقد كن على يقين بأنّ كلّ آلات التصوير ستكون مصوبة نحوهن».

ولم تكن العقيد عائشة تريد الحديث عن علاقة القذافي مع حارساته الشخصيات. إن هذا موضوع سرّي للغاية. كانت تنجز عملها باقتراح الفتيات الجميلات وينتهي الأمر. وما كان يحدث لهن بعد ذلك لم يكن يعنيها. ولكنني كنت أصرّ على السـؤال : «ألم يكن معلومًـا لـدى الجميع أنّ العقيد كان يتخذ منهن سريعا عشيقات»؟ ولكن عائشة كانت تلتزم الصمت حيال هذا السؤال، وتقطب على الفور وجهها. كانت ترفض كذلك أن تتطرق لشخصيّة مبروكة، الوحيدة التي لم تكن ترتدي اللباس العسكري عندما تكون خلف العقيد. ولكن الجميع يعرفون أهميتها في تنظيم الحاشية النسائيّة. «لا أرضى أن يتم مقارنة دوري بدورها. فراتبي المتواضع، والذي لا يزيد عن 832 دينارا شهريا [ما يقارب 500 يورو]، يدلّ على أنّه لم تكن لي علاقة بزمرة الحارسات الشخصيات وشغلهن!». وبحركة غريبة، انتزعت فجأة قرطا صغيرا كان يثقب أذنها؛ وناولتني إياه قائلة : «هل ترين ؟ ليس حتى من الذهب! حارسات كثيرات صارت لهن ثروة ضخمة. أما أنا فلا أملك شيئا!».

ولا حـتى الحـريّـة.

كانت لا تخفي إخلاصها الثابت لقائدها، ولجيشها أثناء الحرب الأخيرة. وإنها قد نفذت الأوامر بدقّة ووقفت في وجه الثوار. «كانت تلك مهمتها»، كما ترى، وهي لا تشعر بأي ندم حيال ما قامت به في هذا الصدد. مدير السجن، أحد رموز ثوار مدينة الزاوية الذين وقفت في وجههم العقيد عائشة، والذي دعاني بعد انتهاء زيارتي للسجينة، لزيارة متحف شهداء الزاوية، والذي يضم صور الدمار وما خلفته الحرب من آثار مريعة، كان يملك وجهة نظر مخالفة تماما. فقد كان يتهمها بأنها قامت بتعذيب مساجين الحرب، بل قامت بنفسها بقتل الكثيرين منهم بعد التعذيب. وإذا كان الثوار قد أفرجوا عن أغلب الجنديات، فإن عائشة، التي ألقي عليها القبض يوم 21 أغسطس، ستنتظر طويلا حتى موعد محاكمتها.

تقول نائبة وزير الشؤون الاجتماعية، نجوى الأزرق، المكلفة بهذا الملف : «إنّ وضعية النساء العسكريات في عهد القذافي كانت محزنة ومَرَضية، فقد كانت الأكاديمية العسكرية مجرد حيلة من طرف القذافي ؛ ليتمكن عبرها من الوصول إلى النساء، ثم عندما صارت لديه شيئا فشيئا وسائل أخرى للحصول عليهن، لم يعد يهتم بهذه الكاديمية، وتراجع أداؤها كثيرا في المدة الأخيرة». ومع ذلك، فإنّ النظام، وعندما صار في ضائقة حربية أمام تقدم الثوار، لجأ إلى تعبئة العديد من الجنديات، والزج بهن في معاركه ضد الشعب الليبي، وقد كنّ حتى ذلك الحين مهملات ومحجوزات في الثكنات، فبعضهنّ أرسلن للقتال مع جحافل المرتزقة، والتي كان من بينهم كذلك نساء،

والبعض تم توزيعهن، أثناء حصار طرابلس، على العديد من الحواجز الأمنية في المدينة. وذلك لمراقبة الهويات ومحتوى السيارات، أو وضعهن في موقف مخجل لتنظيم طوابير الانتظار الطويلة للتزوّد بالوقود، وصفاراتهن بين الشفاه. إنهن دمى القذافي، ورموز نظامه، يبغضهن السكان ويحقد عليهن الثوار. منهن من فرّ، ومن قبض عليهن أو بلّغ عنهن. أو أنهن دفعن ثمن التحاقهن بالثورة من حياتهن، أو وقع اغتصابهن. ومنهن كذلك من جيء بهن في مجموعات إلى أماكن قريبة من خطوط المواجهة لإشباع رغبات «ذكور الكتائب». إن قدر الغالبية من حارسات القذافي أن يظلّ مصيرهن مجهولا. وبعض الجثث التي عُثر عليها تحت أنقاض باب العزيزيّة تشير إلى إن الكثير منهن قد تمت تصفيته في شهر أغسطس. في السويعات الأخيرة من حياة النظام، ففي لحظة التفكك والهروب اليائس للقائد؛ صرن عديمات الجدوى.

4

الحيــوان الكـــاسر

لم يكن بإمكان الدكتور فيصل الكريكشي أن يتخيل على الإطلاق ما اكتشفه، نهاية شهر أغسطس 2011، وهو يسيطر مع عدد من الثـــوار على جــامعة طرابلس. فهذا الأستاذ الجامعي وطبيب النساء الخمسيني، والذي درس الطب في إيطاليا، ثمّ الدكتوراه في المعهد الملكي بلندن، الهادئ والمتّزن، لم يكن يجهل، مع ذلك، فساد النظام الجامعي، وشبكات الرقابة والوشاية التي ركزتها اللجان الثوريّة، وجهاز الدعاية الهائل الذي كانت تشكله مختلف الكليات. وكان يعـــرف أن ذكرى المشـــانق التي نُـــصبت للطلاب في الساحات العامة عام 1984 لا زالت حيّة عند السكان. وكان يعي أن أي مسيرة جامعيّة لم تكن ممكنة دون البرهنة على الولاء المطلق للنظام. فلم يستغربْ إذن وهو يكتشف، ذات ليلة من القتال المكثف حول الحي

الجامعي، سجنـــا غير منتظر ؛ كانت توظف فيه الحاويات كزنزانات جماعية. ومكتبـــا لمدير الاستخبارات الرهيب: عبد اللّه السنوسي، حيث امتلأت أدراجه بالمعلومات حول عشرات الطلبة والأساتذة. مع قائمة بأشخاص ينتظرهم الإعدام. ولكن ما عثر عليه صدفة، وهو يفتّش زوايا الجامعة بحثا عن قنّاص محتمل، وراء أبواب شقة سريّة تقع تحت «المدرج الأخضر» ؛ الذي كان معمر القذافي يلقي فيه محاضراته التعبوية، كان يتجاوز أسوأ كابوس.

كان هناك دهليز يقود إلى قاعة استقبال فسيحة مليئة بمقاعد وثيرة من جلد بني. ثم رواق يؤدي إلى غرفة نوم بلا نوافذ، مُـــلبّـــسَة بكسوة خشبية. والتي كانت مجهزة بسرير كبير يتسع لشخصين. ينتهي اللحاف الذي يغطيه إلى سجّاد رخيص مشجّر، والذي كانت تعلوه وسادتان صغيرتان. فوقه السرير كان هناك قنديلان تنبعث منهما أنوار برتقاليّة باهتة. وكان ملحقا بالغرفة حمام كبير. وهو ما بدأ غريبا- في بناية مخصصة للدراسة وتعليم الكتاب الأخضر- فالمكان أشبه بمسكن رجل عازب. ولكن الغرفة الموالية هي التي أذهلت الزائرين، وجمّدتني عندما أمكن لي أن أستكشف بدوري المكان. ففي مقابل الغرفة، كان هناك باب ضخم يفضي إلى قاعة للكشف الطبي، مجهزة تجهيزا كاملا بكل ما يتعلق بأمراض النساء والولادة... ولم يستطع الدكتور الكريكشي، رغم كونه في منتهى الرزانة، أن يخفي اشمئزازه فقال لي -هذا الاختصاصي الشهير في طب أمراض النساء، والذي تم تعيينه رئيسا للجامعة بعد الثورة- : «كيف يمكن للمرء أن لا يكون مصدومًا أو متأثرا؟

لا شيء. لا شيء على الإطلاق يمكن أن يبرّ وجود مثل هذه التجهيزات. فإن كان يُخشى أدنى طارئ، فإنّ مركز التوليد وأمراض النساء بالمستشفى الطبي، يبعد مسافة مائة متر. فلماذا إذن ؟ ما هي الممارسة غير القانونية والمنحرفة التي كان يتمّ إخفاؤها هكذا عن الأنظار ويواصل : «أنا أتوقّع فرضيتين لا غير: إما عمليات إجهاض، أو عمليات إعادة تركيب غشاء البكارة، أي كل ما هو ممنوع في ليبيا. ودون أن أنطق بكلمة «اغتصاب»، أجد نفسي مقادا لتصور وجود سلوك جنسي مقلق، وراء ذلك».

كان يتكلم بصوت منخفض، وهو يزن كل كلمة، فهو يعي فظاعة ما اكتشفه. وقد اعترف لي هو نفسه أنه كان الطبيب الرسمي لابنتي الـقذافي، عائشة وهنـاء : كان يقرّ في ابتسامة حزينة : «لقد جعلني ذاك في وضعية غريبة. فقد كانت عائلة القذافي تحترم كفاءاتي، ولم أكن أطلب أي شئ آخر. وأحيانا كانت الفتاتان تعبّران عن استغراب أبيهما من أمري. ألا يطلب سيارة ؟ منزلا ؟ لا، لا أريد أي شيء. لا شئ على الاطلاق!». لقد كان يعرف شهوة معمر القذافي للفتيات، وكان قد سمع بما كان يسميه «اللمسة السحرية». تلك اليد التي كان يضعها على رأس طرائده لينبّه إليهن حارساته الشخصيات. في الجامعة كان الدكتور الكريكشي يدرّس مادة النظم العائلية، وكان يخصص فصلا لدراسة مفهوم «التابو- أو المحظور» كلّ سنة، وهو يؤكد في هذا الصدد إن سلوكيات القذافي الجنسيّة : كانت من أكبر «التابوهات» في البلد، ولا أحد كان بإمكانه أن يجازف بالتطرق للموضوع، أو أن يحذّر الطالبات، أو أن يقوم

بتشكيل فرقة لحماية البنات. كان الجميع يفضّل تجاهل الموضوع. أمّا ضحايا هذا الوحش الكاسر، فلم يكن أمامهن إلا الصمت، أو مغادرة الجامعة سرّا.

كان تقدير عدد اللاتي دُعين إلى باب العزيزيّة، أو اللاتي تم استدراجهن إلى الجناح الرئاسي المخفي تحت المدرّج الأخضر أمرا مستحيلا. وقد أخبرني الدكتور الكريكشي، يوم اكتشافه المرعب، إنه وجد في الشقة ثمانية أو تسعة فيدوهات تحتوي على صور حيّة للاعتداءات الجنسية التي ارتكبها القذافي هناك. ولكنه اعترف بأنه أتلفها على الفور. وكنت مذهولة. أتلفت ؟ ألم تكن أدلّة كان من المهم الاحتفاظ بها ؟ ولكنه أجابني : «ضعي نفسك في السياق. كانت الحرب ما تزال قائمة. ولم أكن أستطيع أن أضمن أن لا تقع هذه التسجيلات بين أياد غير مسؤولة أو مؤذية. وأن لا تكون موضوع ضغط أو ابتزاز. كان همي الأوّل حماية الفتيات». إنه ردّ فعل غريب، ومسؤولية ثقيلة. ألم يكن من الأولى أن يتولى القضاء قرارا كهذا ؟ ورغم إنّ الكشف عن وجود شقة سرّيّة للقذافي في وسط الجامعة نفسها، كان قد سبّب صدمة في الحي الجامعي، إلا أن الألسن لم تكن، مع ذلك، طليقة. كان الجميع يذمّ الدكتاتور، وكانت ملصقاته المعروضة تداس باستخفاف. ومع ذلك، فإن الطالبات المحجّبات كن يتجنبن الحديث معي كلما حاولت أن أعرف المزيد عن الموضوع. ولم يستغرق كثير وقت؛ حتى عاد نحوي الطالب الذي كنت قد كلفته بسبر آراء طلبة الجامعة حول الموضوع، وهو يقول : «أعذريني، لن أستطيع مساعدتك. إن الموضوع بالأحرى من أكبر

التابوهات». ولكن، ورغم كلّ ذلك ! ثمة بالضرورة شهود. بعض الناس الذين يكونوا قد لاحظوا ما يدعو إلى الريبة، أو سمعوا بفتيات تعرضن لمضايقات ! ألا يوجد أحد ينهض لكشف المستور عن بشائع هذا النظام ؟ في الواقع لم أجد إلا شاب واحد، هو رئيس تحرير جريدة «ليبيا الجديدة»؛ الذي تجرأ على كسر جدار الصمت. وسرد لي قصة أحد صديقاته مع القذافي : «كانت من عائلة ريفيّة من منطقة العزيزيّة، وكانت قد جاءت لتدرس الطب بطرابلس. في أحد زيارته إلى الجامعة، وضع القذافي يده على رأسها. وجاءت حارساته في اليوم التالي إلى مقرّ سكناها، لإعلامها بأن القائد كان قد اختارها لتنضم للحرس الثوري. وعندما رفضت بدأت التهديدات تنهال على شقيقها، الأمر الذي دفع الفتاة للخضوع والذهاب لمقابلته، فاغتصبتها، واحتجزها لمدّة أسبوع، قبل أن يخلي سبيلها وفي يدها مبلغ كبير من المال. ومقابل مشاعر الخزي، والعار الذي لحق بهم جراء ذلك، رفضت العائلة عودتها للبيت. وباتت عودتها للجامعة مستحيلة، فانتهت الفتاة إلى الضياع. وهي اليوم تعمل فيما يفترض في تجارة السيارات، ولكني أعلم إنها في الواقع، تعيش ببيع جسدها».

نسرين ذات السحنة المضيئة، والشعر الطويل المفتول المسترسل على الكتفين، والخطاب المثقف، لم تكن مندهشة. ورغم أنها قد ترعرعت في ليبيا، في إطار عائلة بورجوازية، ووالدة أوربية، كانت على يقين أنه يستحيل عليها أن تعيش في سلام في اجواء نظام القذافي الخانقة والفاسدة، وإن أي صيرورة ناجحة لحياتها لا يمكن أن

تتم إلا إذا سافرت للدراسة في الخارج. قالت لي ذات مساء : «كنا أبعد ما نكون أن نتخيل إمكانية حدوث مثل هذه الاغتصابات. وذلك رغم أن مجون أولاد القذافي، ومجون أزلامه. كان معروفا للجميع. غير إن هذا الفساد «الجنسي» صار كسيف مسلط على رأس كل فتاة. والذي قد يهبط عليها في يوم أو آخر. حيث ما انفكت زمرة نساء باب العزيزية تجوب الاحياء الجامعية. وتتربص في دورات المياه؛ حيث كانت الفتيات تتمهل في ترتيب أنفسهن وإعادة زينتهن. فيتدخلن في الحديث ويسارعن بتقديم العروض، بما في ذلك العروض الماليّة». على إن ظلال باب العزيزية ليست وحدها ما كان يخيم على الجامعة، بل إن الجامعة بكاملها كانت تسبح في جوّ من الابتزاز الجنسي.

فكم من فتاة رسبت في الامتحان لرفضها محاولات الأساتذ للتقرب منها ؟ وكم منهن، بعد أن تحصلن على درجات رديئة ظلما، تجد الأستاذ يقترح عليها دروسا خصوصية ؟ بل إن بعض الشباب قد يدفع بخطيبته لأحضان أستاذه حتى يحصل الخطيب على شهادته، وهو الشرط الذي يجعله أمامها ليتمم زواجه منها. وأحيانا بعد أن يورط الخطيب خطيبته في هذا الفخ، لا يتردد في التخلي عنها بعد حصوله على شهادة التخرج. لقد أصبح الجنس هنا عملة رابحة لشراء كل ما يحتاجه الشخص، أو للحصول على الترقيات. أنه أداة لتأكيد السلطة. فقد بات واضحا إنّ سلوك العقيد كان معديا. «فعصابته كانت تعمل بالطريقة نفسها. والنظام كان فاسدا حتى النخاع».

هذا مـــا يؤكده الدكتور الكريكشي مذهـــولا من طبيعة تلك الشبكة المنظمة التي اكتشفها وهو يتسلّم مقاليد الجامعة. والتي كانت على درجة من التنظيم والتراتبية، والموزعة إلى فروع وأقسام، وجواسيس مزروعين في جميع الكليات والإدارات، والتي ترتبط بشكل مباشر مع المسجل العام للجامعة ؛ الذي يرتبط بدوره مباشرة بباب العزيزيّة. أما مهام عملها ؟ فهو اختيار أجمل الطالبات اللاتي ينبغي الإيقاع بهن، بأية ذريعة، في شباك القائد... ثم زمرته.

ويتم إغراء الفتيات وفق هذا السيناريو للحصول على درجات عالية في الامتحانات، أو شهادات التخرج، أو تعيينهن في مناصب محترمة، أو الحصول على منح دراسيّة، كل شيء كان متاحًا لهن شرط أن يبدين لينا وانقيادًا. ويمكن أن تتجاوز الهدايا بالطبع، الإطار الدراسي، بحيث يمكن أن تحصل الطالبة على جهاز آيفون أو آيباد، أو سيارة، ومجوهرات ... ويمكن أن تطير قيمة الهدية عاليا للمرغوب فيهن أكثر، وهُـــنّ في الغالب لسن الأقل فقرا.

«إنه قـــانون الصمت، فلا أحـــد، على الإطلاق ينهض للتبليغ عند حادثة اغتصـــاب»، يؤكد الدكتور الكريكشي، غير إنه تمكن رغم ذلك، من رصد مجموعة من الحوادث، تكشف عن تلك الممارسات الجارية، منها متعلقة بطالبة كانت قد وجدت نفسها، وقد قامت بإجراءات التسجيل في كليّة الطب، وقد نسبت إلى سلك المهن شبه الطبيّة، «كان ذلك غير مفهـــوم بالنظـــر إلى درجاتها الممتازة»، وعندما طلبَتْ توضيحات من المسجل العام للجامعة، وعدها بإصلاح الخطأ شرط أن تذهب إلى «الريقاطة»،

المدينة السياحية الواقعة على شاطئ البحر، حيث كان كبار موظفي النظام، وبصورة خاصّة أبناؤهم ينغمسون في أجواء الخلاعة القصوى. كانت طرابلس كلها تعرف ذلك، تلك منطقة انعدام الحقوق أو بالأحرى كلّ الحقوق. رفضت الفتاة العرض، وبالتالي كان مصيرها : وطوال عامين، الحصول على أدنى الدرجات في كلّ امتحاناتها. هل تتخيّلين الضغوط أنا نفسي من كتب، أخيرا، طلبا لإدماجها من جديد في دراسة الطب. وبلغت السلطة الجديدة خمس شهادات أخرى لفتيات تثبت هذا الفساد الكريه للنظام.

ستحتفظ الشقة المقامة تحت «المدرج الأخضر» بأسرارها إلى الأبد. وثمة، فيما يبدو، أماكن أخرى تردّد عليها القذافي : حيث كانت قد هيئت له المخادع. فهو يحتاج بصورة مستمرة لأكثر من شريك جنسي، من الرجال ومن النساء، وهو يفضل الفتيات العذراوات، بل يجب أن يُجلب له أربع عذارى، على الأقل، في اليوم، كما تؤكد لي خديجة، الطالبة المغتصبة ؛ والتي كانت قد بقيت سنوات عديدة بباب العزيزيّة، مرغمة على الإيقاع برجال آخرين من رجال النظام، وهو الأمر الذي أكد بشأنه الشاب فيصل، الذي كان من بين المجموعة التي كانت تحت تصرف العقيد في باب العزيزية، بعد أن أجبره، وقد أنجذب القذافي لوسامته في أحد زياراته للجامعة، على الالتحاق بفريق الخدمات الخاصة، وترك دراسته في كلية الحقوق. حيث تطرق لحاجة القذافي لأربع عذارى للصحافة البريطانية، موضحا، «كن يدخلن غرفته، فكان يقضي منهن وطره ويخرج،

كما لو كان ببساطة، يتمخّط». وكان الشاب، وهو الآن في الثلاثين من عمره، يشدد على غجرية القذافي، المستهلك الأكبر للفياغرا، ويؤكد على أنّ نساء عديدات: «كن يذهبن مباشرة من غرفته إلى المستشفى». ضحايا تمزّق داخلي. وهذا ما نشهد بشأنه ثريا، وما سيؤكده لي العديد ممن التقيت بهم، لم يكن القذافي شبقا فقط، ولكنه كان كذلك، ساديًا وفي منتهى الوحشية.

كانت المدارس والجامعات تمثّل إذن بالنسبة إليه بؤر طبيعيّة «لهذا اللحم البشري»، والتي هي في تجدّد دائم. في هذا الخصوص، كان القذافي قد لاحظ هدى بن عامر؛ والدة هناء، ابنته «بالتبني» والتي هي في الواقع، ابنته الشرعيّة، في جامعة بنغازي. هذه التي ستتحول إلى واحدة من أشهر النساء المحيطات بالقذافي، والتي ذاع صيتها على المستوى الوطني عندما خرجت مهتاجة من بين الحاضرين لعملية تنفيذ حكما بالشنق على شاب معارض: كانت تجري في الساحة العامة، لتجذب، بكل قواها، رجلي الرجل المعلق بالمشنقة وتعجّل بموته. إنه عمل وحشي كانت قد استحقت بموجبه كنية «هدى الجلاّد» ؛ لأنّ المشهد كان قد بثه التلفزيون الوطني على الهواء مباشرة. وما فتئت بعد ذلك تجاهر بتعلقها بالنظام، ووقفت في وجه مظاهرات أبريل الطلابية، ودعمت القمع ووشت بالمعارضين وتعقبتهم، وشنت حملات «التطهير» على رأس اللجان الثورية. ويشرح لي أحد زملائها الطلبة ؛ وهو يتذكر ؛ «لم نر فتاة بمثل تلك الفظاظة، ولا بمثل تلك الوصولية، أو تلك الوقاحة على الإطلاق ؛ لقد كانت تتكلم

في هدير مريع، وتواظب على اجتماعات زمرة النظام حتى ساعات متأخرة من الليل، وهي ما تنفك تبشّر بخطاب القذّافي: مهدّدة المنشقين بتصفيات جديدة». وبعد مشاهد الإعدام لم تكن تكف؛ مدعومة من العقيد، ومتحدثة باسمه عن توسيع نفوذها. حيث كان دورها في البداية ما يشبه الإشراف على الجامعة التي تنتمي إليها. حيث قامت بإقصاء كل الأساتذة والطلبة ؛ الذين كانت تعتبرهم بعيدين عن أرثوذكسية النظام. بعدها اختفت من بنغازي فترة من الزمن، وذهبت للعيش عند العقيد. وانضمت إلى حرسه الشخصي؛ قبل أن تعود أكثر نفوذا من أي وقت مضى، ومرتبطة ارتباطا وثيقا بالقذّافي الذي سيقرر تزويجها، ويكون وكيلها في عقد الزواج. وسيعيّنها في وظائف هامة منها: محافظ بنغازي، ورئيسة البرلمان العربي، ورئيسة ديوان المحاسبة. ووزيرة.... لقد صارت من أغنى النساء في ليبيا، ولكن دون شك أبغضهن عند سكانها. وهي اليوم سجينة بطرابلس - منزلها ببنغازي أحرقه الثوار منذ الأيام الأولى للثورة- وقد اعترفت لسجّانها بأنها أجبرت على ترك الصغيرة هناء المولودة - وفق نسخة مصورة من جواز سفر صادر في 2007، كانت بين يدي- في 11 نوفمبر 1985، من علاقتها بالقذّافي. والتي جاءت صفية -الزوجة- يوما للبحث عنها بدار الأيتام بطرابلس من أجل تبنّيها.

كلّ الأماكن التي تتردّد عليها النساء يمكن أن تكون نقاط تزويد للقائد، بما في ذلك السجون. حيث شوهدت إحدى حارساته الشخصيات وهي تلتقط صورا لحسناوات سجينات. وكانت قاعات الحلاقة والتجميل مصدرا مفضلا

تواظب جالبات «الطرائد» على زيارته. كما كانت حفلات الزفاف مصدرا آخر. حيث كان القذافي مولعا بالتردّد على هذه المناسبات التي ترتدي فيها النساء أجمل حليّها. وإذا لم يستطع الذهاب إلى هناك بنفسه، فهو يرسل مبعوثيه إلى المكان، ثم يقضي وقتا رائقًا في مشاهدة ما التُقط بالمناسبة من صور وتسجيلات.

في هذا الصدد، أكد لي مصوّر من طرابلس، إنه كان يحتاج لخلق مائة عذر كل مرة حتى لا يسلم إلى باب العزيزية نسخ تسجيلات الزواج المصوّرة التي كانت تطلب منه. وتؤكد لي بعض الفتيات عدولهن من تلقاء أنفسهن عن الذهاب إلى بعض تلك الحفلات المقامة في فنادق طرابلس الكبرى، خوفا من أن يتم تصويرهن، ولفت نظر العقيد أو زمرته إليهن بعد ذلك. ويعيش أغلب أولياء الأمور في هذا القلق، ويشددون على بناتهم : المحرومات أصلا من العلاقات الاجتماعية، ضرورة العودة مبكرا من الحفلات والعروض. خاصة إذا كانت تدور في باب العزيزية. لأن مقر إقامة العقيد، مع أنها محمية كالقلعة؛ كانت محل استقبال دائم للوفود المدرسية ولصغار المناضلين. هذه اللقاءات التي تؤسس لفرصة سانحة لسيد المكان لتصيد فرائسه.

وكان القذافي لا ينفك يطلب من العاملين معه، وسائقي سيارات باب العزيزية، أو حراسه، ومن الجنود..... أن يسمحوا له بالتفرج على الأفلام التي يتم تصويرها لحفلات الزواج التي تدور في إطار عائلاتهم. في البداية، كان هذا، وقد بدأ الطلب وكأنه اهتمام من طرف القائد بأمرهم، مصدر اعتزاز للبعض. ولكن الأمر صار يقلق الجميع بعد

ذلك. فإذا ما أعجبت إحدى المدعوات «الأخ العقيد»، فسيطلب من صاحب الفيلم أن يأتي بها إليه، سواء كانت أخته، أو ابنة عمه.... وليكن ما يكون. أما إذا كانت العروس هي التي تروق للقائد ؛ فإن صاحب الفيلم لن يعلم بذلك إلا بعد فوات الأوان. فالعقيد سيتصرف لإبعاده من منزله بتكليفه بمهمة رسمية، ويستغل الفرصة لاستدعاء الزوجة، أو زيارتها زيارة غير «ودية» في بيتها، وتكون مقاومة المرأة له طريقا إلى اغتصابها. فكم من حكاية مرعبة رويت لي؛ تتعلق بهؤلاء الحراس الذين جنّ جنونهم من الغضب، ومن الغم والغيرة، بعد اعتراف عرائسهم بما فعله معهن العقيد. على أن كل من حاول الانتقام لشرفه، وسعى لتصفية حسابه مع العقيد، واجه أوامر القذافي بقتله على الفور. العديد منهم شُنقوا، وبعضهم قُطعوا إربا إربا، واثنان منهم شدّت أطرافهم إلى سيّارات تسير في اتجاهات متعاكسة. وقد عرض المشهد المصور على الحراس المنتدبين حديثا حتّى يعلموا ما تكلفهم خيانة سيد باب العزيزية.

هذا ؛ وقد استهدف هذا الـشبق الرئـاسي ؛ العديـد من الممرضات والمعلمات ومربيات الأطفال كذلك. وقد روت لي مديرة دار حضانة بطرابلس كيف إن إحدى أجمل الموظفات عندها، تم اختيارها من طرف ثلاثة أمازونيات، لتقديم باقات الـورود، مع مجموعة من الفتيات، سـاعة استقبال وفدا من جنوب إفريقيا في المطار ؛ وقد طلبن منها أن «تتجمّل بشكل جيّد». وبعد ذلك بأيام جئن في طلبها على متن حافلة صغيرة، توجهت بالمجموعة فيما يفترض نحو المطار. غير أن الطريق الذي حادت نحوه

الحافلة. لم يكن ذلك المؤدي لمطار طرابلس، بل كان في اتجاه باب العزيزية. على أن المفاجأة كانت بالأحرى محط اغتباط من المجموعة. فليس كل يوم يمكن أن نقابل القائد. هذا الذي استقبلهن بسرعة. وألقى بالمناسبة كلمة ترحيبية مرتجلة. بعدها : وبينما كان الجميع يلتحق بالحافلة، وجدت مربية الأطفال نفسها محشورة في غرفة صغيرة مجهزة بحمـــام، حيث أخذت ممرضتان عيّنة من دمها في لمح البصر. إذاك ظهر القذّافي من جديد، ولم يعد يبتسم. كانت نواياه واضحة كل الوضوح. ففزعت الفتاة وأخذت تصرخ : «أتوسّل إليك لا تـلمسني. أنا من الجبل، وأنا مخطوبة». فأجابهـا الـقذّافي : «أمامك الخيار إما أن أقتله، أو أتركك تتزوجينه وأمنحك منزلا. على أن تكوني لنا معا».

*

أحد المعاونين المقربين من الدكتاتور، والذي كان يعمل إلى جانبه بشكل يومي، ولكن لم يكن له سلطة القرار، انتهى - ولكن بكثير من التحفظ!- إلى قبول الحديث في هذا الموضوع. فقد كان ينفي في البداية معرفته بأيّ شيء يتعلق بما كان يسميه «الحياة الخاصة للأخ القائد». ويقول بأنه كان يرفض دائما أن يتدخل في ذلك. «لم أكن أتواجد هناك في المساء، وأقسم لكم أن قدميّ لم تطأ الطابق السفلي، على الإطلاق».

كان في الواقع في هذه الجملة اعتراف ضمني : بأن ذاك المكان كان موضع المخــاطر جميعها. ولكن سرعـــان

ما أخذت الثقة تتأكد شيئا فشيئا فيما بيننا، مع وعدي له بأن لا أذكر اسمه. وانتهى للتطرق إلى قسم «القوّادة»، المكلفين بـــ «تلبية الحاجيات الجنسيّة» للدكتاتور. وهو يشدد بشأنهم : «متملقون، في منتهى الوضاعة، والدناءة، كانوا يزحفون أمامه، ويتقاتلون لتلبية رغباته حتى قبل أن يطلبها». ولخّص الوضع في كلمات : «يمكن أن نصف معمّر القذافي بالمهووس جنسيّا، فهو لم يكن يفكر حقّا إلا في ذلك». وهذا الإدمان «المرضي» كان يقوده إلى تحليل كلّ شئ من خلال مؤشر الجنس. «لقد كان يحكم ويذلّ ويستعبد ويعاقب عن طريق الجنس». وكان له نوعان من الطرائد : أولهما «الطرائد السهلة». ومن المستحسن أن تكون في مقتبل العمر، ومن الطبقات الشعبيّة. وكانت تلك هن قوته اليومي. ولا يشكل الحصول عليهن في ذاته رهانا خاصا. واللاتي كان يمكن أن يفوض بشأنهن ما كان يسمّى بقسم «الخدمات الخاصة». وهو ما يشبه قسم المراسم، وتشرف عليه،في السنوات الأخيرة، المرعبة مبروكة الشريف، التي جاء ذكرها مرات عديدة في شهادة ثريا. وكان يأخذ هؤلاء الفتيات في أكثر الأحيان بالقوّة – فقلة قليلة تمّت استمالتهن بوجه خاص. وكن يتباهين بأنّ القائد «افتض بكارتهن» – وكان يستطيع أن يكافئ بلا حساب من كان قد رضي عنها، ومن كانت تقبل بالعودة أو بتجنيد فتيات جديدات. ثمّ ثانيهما الأخريات اللاتي كان يطمح في الحصول عليهن واللاتي كان إخضاعهن والسيطرة عليهن يمثل تحديّا شخصيّا بالنسبة للعقيد. لقد كانت هؤلاء يمثّلن غنيمة خارقة للعادة.

وحتى يحصل على ذلك كان يتحلى بالصبر. ويلجأ للتفكير الاستراتيجي. ويوظف إمكانيات ضخمة. من ضمن هؤلاء نجمات المجتمع بالطبع : من مطربات وراقصات وممثلات وصحفيات بالتلفزيون... من الشرق الأدنى ومن الشرق الأوسط. وكان بإمكانه أن يرسل طائرات إلى أقصى العالم ليستدعيهن، ويغمرهن بالمال وبالجواهر. حتّى قبل أن يصلن. هؤلاء يرضين نرجسيته : إذ يقول : «بإمكاني أن أحصل عليهن جميعا». ولكن لم يكن ذاك أكثر ما يهمّه. بل إن ما كان يستفز غروره بحق هو أن يحصل على بنات أو زوجات الشخصيات النافذة. أو بنات وزوجات معارضيه: ولو لساعة أو لليلة أو لبضع أسابيع. ولم يكن الرهان في ذاته إغواء المرأة. بقدر ما كان إذلال الرجل المسؤول عنها من خلالها : «وليس ثمة أكبر من هذه الإهانة في ليبيا». أي أن يتمكن من الدوس عليه وتدميره. أو في صورة ما إذا لم يبادر بكشف السر. التأثير عليه وامتصاص قوته. وتدميره نفسيا على الأقل.

ويحلل المعـــاون الســـابق للعقيد الأمـــر : «هذا البدوي المولود تحت الخيمة. والذي كان طوال طفولته قد عانى الفقر والاحتقار. لم يكن يحركه إلا الظمأ إلى الانتقام. لقد كان الأغنياء يرعبونه وقد سعى إلى تغغيرهم. كما يكره الأرستقراطيين والناس المرفّهين منذ صغره. الذين كانوا يمتلكون ما لا سبيل إلى أن يمتلكه هو: الثقافة والسلطة وحسن الخُلق. وعاهد نفسه على أن يذلهم. وكان ذلك يمر بالضرورة عبر الجنس». كان يستطيع أن يرغم بعض الوزراء والدبلوماسيين والعسكريين رفيعي الرتب على

إقامة علاقات جنسية معه. «ولم يكن أمامهم الخيار. فرب امتناع كان ثمنه حكمًا بالموت. والعملية التي كان يظهر من خلالها هيمنته المطلقة ؛ كانت على درجة من الخزي بحيث لا أحد يستطيع أن يشتكي منها، ولا أن يتباهى بها يوما». وكان يطالب أحيانا بأن يسلموه زوجاتهم، أو يتدبر أمره للإيقاع بهن. فيستدعيهن في غياب أزواجهن، ويزورهن بنفسه متسببا في خجلهن وفزعهن، وهو أمر متوقع. كان يبدع من أجل الحصول على بناتهم. وقد يكون ذلك عملا طويل النفس ؛ الـــوقت الذي يتطلبه جمع ما يتعلق بهن من صور ومعلومات، ومعاينة أذواقهن وعاداتهن وأوقات خروجهن، والاقتراب منهن ثم تطويقهن والالتحام بهن بفضل حارساته الشهيرات وبفضل «كبيرة القحاب» مبروكة. كان يُقال لهن إن القائد معجب بهن، ويتم إغراؤهن بالمال وبالسيارات الفاخرة، وبشهادة التخرج كطبيبة إن كانت طالبة طب، بل بعيادة في المدينة إن كن يحلمن بالاستقرار. كل شيء يغدو ممكنا.

ثم يا له من ظفر عندما يحصل عليهن بين يديه. أخيرا! ويا لها من سلطة نهائية على آبائهم.

5

سيد الكــون

وعلى رأس طرائد الدكتاتور الفاخرة : «والفرائس النفيسة» التي كان يشتهيها، تأتي زوجات وبنات الملوك ورؤساء الدول. فحينما تعذر على معمر القذافي أن يصبح؛ كما كان يتمنى، «ملك ملوك إفريقيا»، اقتصر حلمه على الحصول على زوجاتهم على الأقل، والتي تضمن له التفوق عليهم جميعا. ولكن في هذا الميدان بالذات، لم يكن اللجوء إلى الضغط، أو الـقوة واردا عــلى الإطــلاق. بل كان لا بد من الكياسة والدبلوماسية واللباقة، وإنفاق الأموال الطائلة. وقد فهمت عدد من الزوجــات بسرعة فائقة، أنهن كن يستطعن أن يحصلن على كل ما يبتغينه من القائد، بحيث أنهن لم يترددن في طلب اللقاء به، من أجل الحصول على دعمه لهذا المشروع أو ذاك، لبناء مستشفى او مؤسسة أو غير ذلك. وكان ينفق بلا حساب، ويتدبر أمره بالطبع ليستفيد من ذلك. بعض بنات الرؤساء الأفارقة

المتحررات أكثر من الليبيات ؛ والمتعودات على عيشة البذخ، كن يعملن على أن يستدعيهن إلى طرابلس، ولم يكن يترددن في أن يطلبن من «بابا معمر» تمويل عطلهن، ودراستهن، أو مشاريع شركاتهن ؛ كإنشاء شركة لإنتاج البرامج التلفزيونية، على سبيل المثال، ومكتب القائد... ثم غرفته كانا مفتوحين أمامهن. وقد دخلت ابنة رئيس سابق للنيجر بصورة دائمة، في دائرة حياته الخاصة. وما انفكت تظهر في رفقته أثناء العديد من الزيارات الرسمية. ولكن القذافي كان يحب فكرة أن يغامر، وأن يغوي الزوجات رغم أنف الأزواج وبحضورهم. وكانت مؤتمرات القمة العالمية الكبرى، تتيح له الفرصة ليستخدم جميع مواهبه.

أحد أهم الشهادات بهذا الخصوص، كانت من موظفة مخضرمة بالمراسم، عملت سنوات عديدة في مصلحة التشريفات التي تخص القائد، والتي حددت معي موعدا في قاعة شاي بحي راق بطرابلس. كانت إحدى الصديقات قد حدثتها عن البحث الذي أقوم به، وكانت موافقة على المشاركة بكل ما لديها من معلومات. كان ذلك غير منتظر بالمرة بعد تتالي الرفض الذي واجهني! كانت جد رقيقة، ونشطة في حماس استثنائي، ولم تكن ترتدي الحجاب. كانت في منتهى الجرأة والودية في آن، قالت لي في نبرة صاحب قضية ؛ «إني أشعر بأن ضرورة الحديث إليك واجب وطني. فأنا لم أستطع المشاركة في الثورة ولا حمل السلاح ضد القذافي، وأقسم لك أنني تمنيت ذلك. على إن اللقاء بك، والمساهمة في كشف حقيقة هذا النظام هي طريقة للمشاركة في الثورة». هي أيضا تبخرت أوهامها،

حسب اعترافها. منذ تطوعها في مصلحة التشريفات. وفقدت هي أيضا كل أوهامها في القائد. وفي الدوافع التي كانت تحركه. كانت قد تصورت في البداية أن عملها في المراسم سيتيح لها الفرصة لخدمة الوطن، وأنها تجهد من أجل هدف كبير يحمله صاحب رؤية نزيه. فإذا بها تكتشف نظاما للمناصب والمدائح والإغواء الجنسي، يقضي على القناعات كلّها. لقد حاولت أن تحافظ على اتزانها، وأن تتصرف بطريقة يكون فيها عملها خُلـوًا من المآخذ. ولكنها لم تكن تحتاج إلى وقت طويل حتى تكتشف أن هوس القذافي بالجنس كان يدنس مجموع النظام، ويمكن أن ينسف كل التنظيم الدقيق لقمم رؤساء الدول، وزياراتهم الذي كانت مصلحتها مكلفة بها. وما لبثت أن ثارت : «كان يلعب بالنار، وكان يهدد الحدث الدبلوماسي بلا انقطاع». لقد استهزأ بكل الأعراف الدولية. «من ذلك قصته مع زوجة إحدى رؤساء الدول، التي رافقت زوجها في زيارة رسمية لليبيا. وباعتبارها تولي اهتماما خاصا بالمدارس والعملية التعليمية، كانت مهمتنا أن نعد لـها برنامجا يستجيب لانتظاراتها. فحددنا لها جملة من المواعيد والزيارات لتقابل رموز التعليم في البلد والإطلاع على مختلف المرافق التربوية....لكنه لم يتوان في نسف البرنامج الذي أعد بعناية. فقد جاءت سيارة من باب العزيزية في طلب السيدة : من أجل محادثة خاصة مع القائد. محادثة! لم يكن لذلك بالطبع أي معنى. ولكني سرعان ما فهمت. كان من الأفضل نسيان البرنامج التربوي. وقد تلقت المرأة في الغد حقيبة تضم 500.000 دولار نقدا. وعقدا ضخما من الذهب والألماس.

وفي نوفمبر 2010 تاريخ انعقاد قمة إفـــريقيا والاتحاد الأوروبي بطرابلس، وكان قسم من مصلحة التشريفات قد كلف باتخاذ ما يلزم لاستقبال عقيلات رؤساء الدول، وتنظيم مختلف الأنشطة التي من شأنها أن تروق لهن وكان ملف صغير قد أعد بشأن كل واحدة منهن، متضمنا صورتها وسيرة ذاتية لها، وعُينتُ مرافقة خاصة لخدمة كل سيدة ترافقها في جميع تنقلاتها. ويوم وصولهن تقدمت مبروكة الشريف إلى مكتب مدير المطار حيث كانت قد جمعت الملفات، وفحصت صور الضيفات، وتوقفت عند إحداها. كانت صاحبة الصورة تتميز بشعر كثيف مذهل، وقالت لي : «صوري لي نسخة من ملفها... للقائد».

مر اليـــوم الأول وفـــق ما هو مبرمج له. وقد استقر كل وفد في مقر إقامته. وفي الغد تلقيت مكالمة من مبروكة وهي تقول لي: «تعالي معي لتوزيع الهدايا». استقليت معها السيارة التي أخذت تدور على مختلف الفنادق والإقامات الفاخرة ؛ حيث قد استقرت مختلف الوفود. هنا اكتشفت موظفة المراسم : وهي مذهولة فخامة الهدايا، أكثر من اكتشافها لبعض الزوجات : «كنت أعتقد أنني سبق أن رأيت أشياء كثيرة و لكن هذه... لا أكاد أصدق بصري!. ما كنت أتصور وجود مثل هذا النوع من القلائد الفاخرة؟»، لكن مبروكة ردت بلهجة ملغزة : «ماذا لو رأيت ما اشتريناه للمرأة صاحبة الصورة...». وبالفعل، عندما قدمت علبة الحلي لعقيلة رئيس الدولة الإفريقية هذه ؛ المعروفة بذوقها الرفيع وأناقتها الصارخة حملق الجميع بأعينهم. فقد كان عقد الألماس مذهلا : «لم أكن أعرف أن هذا يمكن أن

بوجد. إنه.... مثل عقد من الخيال». همست مبروكة: «القائد يود رؤيتك». وافقت المرأة على الفور. وأقيمت مأدبة عشاء رسمية كبرى ليلا بفندق ريكسوس ؛ وهو من أكبر فنادق طرابلس. كان القذافي يتصدر المائدة التي كانت في شكل مستطيل ناقص الضلع. وقد أحاط به رؤساء الدول. وكانت طاولات دائرية ثلاث تضمّ النساء. وعلى سبيل الصدفة ! كانت مبروكة قد جلست بجانب الزوجة المتألقة. وبعد العشاء بينما كان الجميع ينهض، أمسكت بها من يدها وتصرّفت حتى تكون في طريق القائد الذي توقف بالطبع وحياها بكثير من الإطراء؛ وعند الساعة الثانية ليلا كانت مبروكة تتصل بموظفة التشريفات، وتسألها :

- في أية ساعة تقلع طائرة هذه المرأة ؟

- على الساعة العاشرة.

- سأرسل لك سيارة. تدبري أمرك حتى تكون على الساعة التاسعة بباب العزيزية .

- هذا ممّا لا سبيل إليه. عليّ أن أدير سفرات جميع الوفود غدا صباحا، عندي بالفعل مشاغل أخرى تنتظرني.

- لا بــأس. سأتكفــل أنا نفسي بالموضوع. ولكن اعملي على تأخير الطائرة.

وعلى الساعة العاشرة كان الزوج ينتظر زوجته في قاعة استقبال المطار. وعلى الساعة الحادية عشرة. كانت لم تحضر بعد. ولا حضرت عند منتصف النهار. كان إحساس موظفي التشريفات وإحساس الوفد بالحرج ظاهرا للعيان.

وصلت الزوجة على الساعة الواحدة والنصف مرحة، مبتسمة وسحاب تنورتها ممزّق من جهة الخاصرة.

في مناسبة أخرى أقامت صفيّة زوجة الدكتاتور مأدبة غداء كبرى لزوجات الرؤساء، في مطعم دائري فاخر يقع في الطابق الخامس والعشرين من برج طرابلس، الذي يطل على البحر بكامله. ونحو منتصف الليل، وقد انتهت الجلسة، غادر موكب السيارات المكان؛ لاصطحاب كلّ سيّدة إلى مقر إقامتها. ولكن إحدى السيارات انفصلت فجأة عن الموكب. وقد أعطيت أوامر لسائقها بالتوجه في سرية نحو باب العزيزيّة.

لم يكن أحد في الفندق قد أعلم بالأمـــر. وكان الوفد المرافق للسيدة في حالة انفعال وتوتر، وكاد مدير المراسم التابع للوفد أن يصاب بسكتة دماغية. وكان يصيح في المنظمين الليبيين : «إنها فضيحة»، وهو لا يتوقف عن السؤال : «أين السيدة الرئيسة ؟ كيف تستطيعون إضاعة زوجة رئيس دولة في الليل ؟» حاولوا طمأنته بالقول : إن الأمن مستتب بطرابلس ولا يعدو الأمر أن يكون ظرفا طارئا. ولكنه كان فزعا والهاتف بيده لا يدري من يُعلم بالحادثة وقد جزع جزعا شديدا. وفضل موظفو التشريفات الليبيون التواري عن الأنظار لافتقارهم إلى الحجج. كانوا يشعرون بالخجل أمام هذه الوضعية، ولكنهم على الأقل لم يكونوا قلقين بشأن المكان الذي كانت توجد فيه الزوجة. وعلى كل حال فقد عادت على الساعة الثالثة والنصف صباحا.

حكـايات أخـرى عديدة رويت لي بالتفصيل تخص قرينات رؤساء دول، ولكن أيضا وزيرات من بلدان أجنبية، وسفيرات، ورئيسات وفود، وحتى إحدى بنات ملك العربية السعودية: الملك عبد الله. كان القذافي مستعدا لكل شيء حتى يحصل على هذه الأخيرة. إنه الانتقام الأكبر بعد نزاع خطير مع أبيها الذي كان إذاك وليا لعهد المملكة. كل الإمكانيات كانت قد وضعت تحت تصرف وسيطة لبنانية حتى تأتيه بالفتاة. ولكن عندما تعذر عليها -اللبنانية- الوصول إليها، لجأت إلى إقناع فتاة مغربية : عاشت في العربية السعودية، بأن تنتحل شخصية الأميرة، والتي تلقت مقابل لقاء يتيم مع القذافي، مبلغا معتبرا من المال، أي إنه لغروره قد غُر به.

أحيانا كنت أحس في النظرة المتوهجة لمحدّثتي، وكثيرين غيرها، الإحساس نفسه بالضّيق الذي كنت أجده في البداية عند ثريّا : ولسان حالها يقول : هل ستصدقني؟ هل تستطيع أن تصدقني؟ فكل هذا خارج عن نطاق العقل، أو التعقل. كنت أسجل المعلومات دون تعليق. أطلب من وقت لآخر بعض التوضيحات، أو التواريخ. وكانت تقدّم لي ذلك، وهيّ تترجاني أن لا أذكر الأسماء. معظم الحكايات ستتأكد على كل حال عندي، بعد ذلك، عن طريق شخصين آخرين، وهما مترجمان يعملان في المصلحة نفسها. وعناصر من السلطة الحاليّة.

وأخيرا نجد أن الطرائد الأكثر جذبا للقذافي، هي تلك المحرمة عليه فيما يفترض. فهو يشعر بأنه يملك الحق في كل شيء وكل شخص : عشيقات وزوجات أولاده وأبناء

عمّومته. والإشاعات في هذا الشأن لا حصر لها. أحد زعماء الثوّار أكّد لي رصده شخصيّا اعتراف زوجة أحد أبنائه، وهي الآن بالخارج، والتي توضح : «إنها تشعر بالغثيان» من الأخلاق «المنحطّة» لهذه العائلة، وتعترف بأنّها كادت تستسلم مرارا لمطالب العقيد القذافي الضاغطة جدّا للنوم معها.

في هذا السيـاق أعلنت الصفحة الأولى من صحـيفة ليبيا الجديدة بتاريخ 28 فبراير 2012 عن حوار لافت، مع أحد أبناء العمومة المقرّبين جدّا للقذّافي. ففي بلد كانت الصحافة فيه مكمّمة على الدوام، وحيث لا زال الحديث في مسائل الجنس من «التابوهات» الكبيرة، كان هذا المقال على درجة من الإثارة. وفيه يندد ابن عم القذافي في حوار معه بالسجن، بالاغتصاب الوحشي الذي تعرضت له زوجته من قبل العقيد. «الاغتصاب، الذي تعمّده رجل لا دين له ولا ضمير......لا لشيء إلا لاستعمال المرأة من أجل «إذلال» زوجها. اغتصاب يرتكب مرارا وتكرارا، فيما يقول، بينما كان هو نفسه قد أبعد من منزله لمهمات عسكريّة».

وهو الاغتصاب الذي قاد زوجـته : «حبه الكبير»، إلى الإسراع في قطع كل علاقة بعشيرة القذّافي، وطلب الطلاق على الفور، والقبول على عجل بمنصب في الخارج من أجل أن تنقذ نفسها، ومن أجل أن تحمي ابنتها لأنها لم تكن ترغب في أن «تلدغ العائلة من الجحر مرتين». لقد كانت المفردات عاطفيّة واللهجة حزينة، بصورة مدهشة بالنسبة إلى رجل معروف بنزواته من كل نوع وبشربه من

القائد. يشرح في المقال عما فعل العقيد بزوجته: «كان يأكلها مثل طعام ساخن، حتى كرهت أنها امرأة».

انطلقت، إذن، بسرعة إلى سجن الهدى بمصراتة. لقد كانت التهمة على غاية من الخطورة، ولأول مرة، فيما أعلم، يجازف رجل من «العائلة». نجحت زوجته السابقة، في نحت مسيرة في الدبلوماسية الليبية بالأمم المتحدة، وظهرت بمظهر المدافع العنيد عن العقيد. بالمخاطرة بنفسه في حقل مليء بالألغام كهذا. ففي سنوات سابقة، كانت غضبة ابن عمّ القذافي آخر ضد العقيد، وللأسباب نفسها، قد أدّى إلى إعدامه على الملا، إعداما عسفيا مرعبا. أدخلوني إلى غرفته الموجودة في قسم التمريض بالسجن. كانت عبارة عن مستودع للحقائب، وعلب كرتون، وكتب، وأدوية، ومقعد دوّار في زاوية. ابن عمّ القذافي كان يستقبل زواره وهو على سريره، ملفوفا في جلابة بنيّة، ومتمدّدا على جنبه، تسند يد ممتلئة رأسه المتزنّر بعمامة ذات شرابة زرقاء، واليد الأخرى مغموسة في صحن من التمر والفواكه الجافة الأخرى. ذقنه غير محلوقة. العين مخاتلة. كان يذكرني بباشا في لوحة شرقية. منهك ومنهار. وكان يبدو، وهو المولود سنة 1948 أكبر من عمره بكثير. ويعاني من شلل جزئي. ولكنه لا يبدو متضايقا من وضعه، وهو يؤكد على الاحترام الذي كان يعامل به، ويسعده أنّ له متّسعا من الوقت، هكذا، لكتابة رواية ثالثة.

بدأت اللقاء، إذن، بالحوار الذي جرى مع الصحيفة الليبية، وأنا أبدي ابتهاجا بأن رجلا من السراي، مثله، يساهم في جلاء الحقيقة حول جرائم الدكتاتور الجنسيّة.

لكنه أحسّ بالضيق....حكّ حنجرته، وحرّك رأسه ليزيح شرّابة مزعجة أفلتت من العمامة. وألقى نظرة تائهة قائلا: «انه سوء فهم. أنا لم أقل هذا».

فقلت : «عفوا» ؟

قال: «أنا لم أتحدث أبدا عن جريمة جنسية».

– قد لا تكون عبارتك ولكنك وصفت مناورات القذافي لاستبعادك في الوقت الذي كان يرغم فيه زوجتك على.........

– زوجتي السابقة كانت وفية لي على الدوام. عرضي نقي.

– ليست هي من كان موضع اتهام. إنه القذافي الذي تتهمه بـ.........

– ترهات ! سأقاضي الصحيفة التي اختلقت هذه الأشياء. لا أحب أن يذكرني التاريخ في علاقة بهذا الملف، ولا يجوز أن ينتقد بعضنا بعضا وسط العائلة الواحدة.

ظل جامدا. يستحيل إثارة الموضوع مجددا. فظللنا حينئذ ندور حول الموضوع. لا مجال عنده لتجريم ابن عمه : «نحن لا ننبش قبور الموتى. الله وحده يحاسبهم»، ولكنه كان منشغلا جدا بأن ينفي عن نفسه كل تواطئ؛ كان عليه أن ينأى بنفسه. «كمثقف ليس بإمكاني أن أؤيد بعض التصرفات». ثم بعد ذلك بقليل قال : «كبدوي أرى أنه كان يهزأ بقيمنا». وأخيرا : «كعسكري، ساهمت في تشييد ثكنة الساعدي سنة 1979 حيث ضريح والدي؛

كنت أشعر بالرعب من أن يفسد المكان. وهو يأتي بكل هؤلاء النساء. كان ذلك يغرقني».

في اليوم التالي لهذا اللقاء أسرعت إلى مقر الصحيفة التي نشرت حديثه عن اغتصاب القذافي لزوجته. واكتشفت أن الرجل قد اتصل بهم بالفعل من سجنه منزعجا كل الانزعاج من ردود فعل عائلته المبالغ فيها حول المقال. ولكن رئيس التحرير تمسك بكل ما جاء فيه مؤكدا أنه لم يكن يفعل غير تثبيت ما كانت طرابلس تعرفه منذ مدة طويلة. بقية الحوار ؛ (المتعلقة بموضوع أخر مختلف تماما)، نشرت على كل حال في عدد أخر من الصحيفة مع صورة ابن عم القذافي وسط الصفحة يتكلم في آلة تسجيل محاوره. نعم. كانت اعترافات ابن العم بكاملها مسجلة.

6

منصور ضو

الصور الوحيدة المتوفرة له تعود إلى يوم إلقاء القبض عليه، يوم 20 أكتوبر 2011، في نفس الوقت الذي قُبض فيه على القذافي. فِلْمٌ قصير صوّره بعض الثوار بهاتف محمول في جو من الفوضى. يظهر فيه منصور وهو شاحب مرهق، أشعث، كث شعر الرأس واللحية، وجرح تحت عينه اليمنى تسبب له فيه لا شك شظايا مفرقعات. هروبه المحموم مع القذافي، وقد كان رئيس جهاز أمنه، انتهى بمجزرة عند أبواب الصحراء. كانت صور مرعبة لرجل مهزوم.

كان قد أصر على البقاء إلى جانب الدكتاتور إلى النهاية. وغادر معه باب العزيزية على عجل عندما سيطر الثوار على طرابلس، وتوجهوا في البداية إلى بني وليد، حيث ودع القذافي عائلته الكبيرة، قبل أن يعاود الاتجاه غربا نحو سرت، ليختبئ في منازل عادية، مفتقدا بسرعة لكل

الوسائل. فلا كهرباء ولا أكل في المدينة. وقد ضيق الثوار عليه الحصار. لذلك قام بمحاولته الأخيرة للفرار. التي أوقفتها قاذفات الناتو عند السحر. وبشكل قاطع. كان منصور أحد القلائل الذين بقوا على قيد الحياة من بين أولئك الذين شكّلوا مربّع الأوفياء الأخير. وهو من بين أهم الذين اعتقلتهم السلطة الجديدة. إلى جانب سيف الإسلام القذافي. كان اسمه يختزل كل الرعب الذي كان يرعاه النظام طيلة عقود. وهو المسؤول عن الأعمال البربرية المرتكبة في بلاده في المدة الأخيرة - من اغتصاب. وتعذيب. وإعدام- بهدف قمع الثورة. ليبيا بأسرها تترقب أن يقدم لها كشفا بالحساب. ولكن منصور ضو لا يتكلم. أو على الأقل كان هذا ما حذرني منه إبراهيم بيت المال. عضو المجلس العسكري بمصراتة. ومسؤول السجناء العسكريين. الذي سمح لي بمقابلة السجين.

عندما اصطحبه الحارس. يوم السبت 10 مارس إلى قاعة الجلسات الكبيرى بمبنى الجيش الوطني بمصراتة. كان يبدو بالأحرى. مرتاحا. كمن كان يقصد نزهة -سترة رياضية كاكي. وقلنسوة من الصوف تغطي كامل رأسه- وقد هذّب لحيته: التي غزاها الشيب. بينما كان يرسم ابتسامة باهتة على شفتيه. وقد قبل مبدئيا. أن أحاوره دون أن يعرف الموضوع. لعله كان يرى في ذلك تسلية ما في أيام عزلته الطويلة. «لقد أقمتُ أربعة مرات في فرنسا - بادرني بالحديث - كانت أيام ممتعة». طيب. ولكننا لسنا هنا لتبادل الكلام المعسول. أجبته أنني أقوم بتحقيق. حول موضوع محرم حسبما يشاع. وهو الجرائم

الجنسية للعقيد القذافي. وكنت أودّ أن يخبرني بما يعرفه بهذا الصدد. «لا شيء. قال لي. أنا فرد من عائلته. وواجبي احترامه. وبالتالي لا سبيل إلى طرح هذا الموضوع. كنت أنأى بنفسي عن النظر إلى تلك الوجهة. فإن ترك مسافة كافية كان هو السبيل الأسلم للمحافظة على احترام نفسي. كنت أحمي نفسي».

– كنت تعلم على الأقل أن القذافي كان يستعمل العنف الجنسي ضد مئات من الشبان والفتيات ؟

– أنا لا أنفي ولا أؤكد. لكل امرئ حياته الخاصة.

– حياة خاصة ؟ هل يمكن الحديث عن حياة خاصة، إذا كانت العلاقات الجنسية تتم تحت الإكراه. والذي ما كان ليتم لولا تواطؤ أطراف متعددة. ومساهمة مصالح الدولة ؟

– بعض الناس كان لديهم علم بذلك. أما أنا فلا.

– هل كنت تعلم أن شابات صغيرات كن محتجزات في قبو مقر إقامته؟

– أقسم أنني لم أنزل مرة واحدة إلى الطابق الأرضي. أنا ضابط. وأنتمي إلى أعلى الرتب العسكرية في الجيش. لقد ناقشت رسالة دكتوراه في موسكو حول القيادة العسكرية. كان الجميع يرتعد خوفاً عندما أزور الثكنات. لقد عرفت دائماً كيف أفرض احترامي : خصوصاً من خلال ابتعادي عن كل ما تتحدثين عنه.

«كـل ذلك» ؟ مـا الذي كان يقصده ؟ بدا فجأة غير مرتاح. لا شك أنه كان ينتظر أن أسأله عن قضايا الحرب،

عن المرتزقة. ولكن الأكيد ليس عن النساء. بات الطريق وعرا. وأخذ ينحو أكثر للحذر.

– كيف كان ينظر قائد عسكري كبير مثلك، إلى قائده وهو يصل محاطا بحرسه النسائي لمقابلة رؤساء الدول الأجانب. وأغلبهن لسن أكثر من عشيقات. ويفتقدن لأي تجربة عسكرية ؟

– لم أكن مسؤولاً عن تنقلاته. وكنت أرفض مشاركته فيها. وخلال الفترة القصيرة التي توليت فيها قيادة كتيبة حماية القائد. أقسم لكم إن فتيات «الجهاز الخاص» ذاك، لم يكنّ موجودات.

– ألم تكن تشعر بالإهانة أمام تلك المهزلة ؟

– ما الذي كان بوسعي قوله ؟ لم أكن احتكر التصرف في الجيش الليبي. وحتى إن كنت منزعجا لم يكن بوسعي فعل أي شيء. وعلى أية حال. فإن النساء لم يُخلقن للخدمة العسكرية. هذا منافٍ للطبيعة. ولو سألوني رأيي لما كانت هناك أكاديمية عسكرية نسائية في ليبيا على الإطلاق.

– أكان القذافي يؤمن بتلك الأكاديمية حقاً عندما أنشأها عام 1979 ؟

– ربما. ولكن الأكيد أن هذه الأكاديمية هي التي أعطته فكرة استخدام النساء بشكل مختلف.

ضحك ونظر باتجاه قائد السجن. الذي انضم إلينا، لعله يظفر لديه ببعض من تواطأ ذكوري. من نوع : أنتَ تعلم ما المقصود بـــ«استخدام بشكل مختلف». عندها

سألته عما إذا كان يعرف النساء الحارسات اللاتي حدثتني عنهن ثريا، وخصوصاً سالمة ميلاد، ذات البنية الضخمة، والتي كانت تتمشق المسدس بشكل دائم، وتسهر على أمن القائد، وترافقه مثل ظله في كل تنقلاته، تكوي ملابسه و... تعذب الخادمات الصغيرات ؟

لم يتردد في الرد بأنه بالتأكيد يعرفها، بل إنه اعترف ببعض الخبرة التي حصّلتها في الأكاديمية العسكرية، ولكنه لم يستسغ المكانة الخاصة التي كانت لها عند القذافي: «أتعلمين أن ذلك كان يصدمني، بل إنني كنت محرجا إزاء تلك العلاقة الحميمة. ما الذي تظنينه بي ؟ بل وصل بي الأمر الى الصراخ رفضا لهذه الامتيازات، ولم أكن أسمح لها عندما كانت تحت إمرتي بارتكاب أقل خطأ». ذات يوم كنا في مهمة في الكفرة جنوب البلاد، وقد وبخّتها على جهاز الاتصال الداخلي. رصد القذافي المكالمة وتدخل غاضباً : «لا تتحدث معها إطلاقا بهذه الطريقة!، سترى ذات يوم سأعينها جنرالا وستكون رتبتها أعلى منك!».. في تلك اللحظة شعرت بالدم يغلي في شراييني، وأجبته : «حتى لو عينتها جنرالا، فستبقى في نظري مجرد سالمة ميلاد». ولكن الذي حصل أن كل أجهزة شبكة الاتصالات التي كانت في حينها مربوطة على الموجة التي كنا نتحدث عليها، سمعت هذا الحوار. لقد شعر القذافي بالإهانة، كيف يمكن التجرأ على التحدث بهذه الطريقة مع قائد الجيش؟!. فأرسل طائرة خاصة لإحضاري الى طرابلس وسجنني ثلاثين يوما، ثم التفت الي وسألني : «ما رأيك؟ هل هذا يظهر لك أن لدي قيما وأخلاقا وخطوطا حمراء؟».

7

المتواطؤون، والموقعون بالطرائد

وعودة إلى طرابلس ؛ هذه المدينة العجائبية، العصرية، والعتيقة في آن، والتي تبدو كعروس محتارة، أضاعت طريقها، وقد شوه محياها زخم من معمار منفلت، ومرور مرتبك، حتى أنها صارت تختنق بمن يخترقها، ولكن أليس لأن سحرهـا مخفي ؛ تغلق عليه أهدابهـا ؟ نعم، هذا هو الأمـر دون أدنـى شك !

ففي المدينة القديمة، التي تلفها أسوار محصنة كجوهرة محمية، نجد الأسواق التراثية بمخزونها الخرافي، والأبواب الخشبية الخلابة؛ الرائعة النقش لمنازل المدينة البيضاء، والتي تعود إلى العصر العثماني، والمساجد الاستثنائية الهندسة.والقصور السرية..أما في وسط طرابلس فثمة الكثير من المعمار الإيطالي الذي واكب فترة الاحتلال الإيطالي للبلد. كما تنهض ساحة الشهداء رمزا عملاقا لمكان اللقاء

والمرح ولعب الاطفال أمام البحر. ولكن في هذا الشتاء القارص، لعام 2012، لم يكن همي سحر هذه العاصمة العصبية، المتكاسلة إلى ساحل البحر المتوسط، دون أن تعيره اهتماما، حيث اكتفيت بأخذ تاكسي منهالكة، تطرز زجاجها الأمامي بعدد من الثقوب ؛ تركتها عيارات نارية أثناء الحرب. بينما لم يعد ممكنا فتح بابها، إلا بمساعدة السائق من الداخل، هذا الذي لم يكن يكترث لهذا الحال الذي آلت إليه سيارته.

وفي اندفاع مجنون غاص بنا وسط الازدحام، دون أن يلتفت لأولويات المرور ولا لقواعده، ودون أن يتوقف عند الإشارات الضوئية. وبينما أستمر يـردد أنـاشيد الثورة مع الراديو ؛ لم يقل لي ما إذا كان يعرف مكان العنوان الذي أقصده. واكتفى بأن قال لي يحفزني بيده على الصعود: «يلا يلا».

لكنه ما فتيء يتوقف ليسأل عن طريقه. ويعود أدراجه، وعندما اكتشف – بفرح كبير – أنني فرنسية. أخذ يصرخ وهو يرسم علامة النصر : «شكراً ساركوزي». كنت أبتسم وأرسم مثله إشارة النصر بإصبعي، وأخذ يشرح: أن تدخل «الناتو» لدعم الثـورة يلزم علينا عـرفاناً بالجميل إلى الأبد.

كان الشتاء قاسياً على سكان طرابلس.ومعظم مشاريع البناء الخـاصة والعـامة استمرت معطلة، حيث بقت الرافـعات منصوبة في السمـاء بدون حـركة، وكأنها أذرع حزينة تبتهل السماء. كما تضررت العديد من القطاعات

الاقتصادية بشكل كبير، على النحو الذي خرج معه العديد من العاطلين عن العمل إلى الشوارع،.... يبحثون عن أي عمل ؛ في انتظار أن تعود الأمور إلى نصابها. كما يماطل الثوار في ترك ثكناتهم، التي قاتلوا في صفوفها. فهم لا زالوا يحنون إلى تلك اللحظات القوية التي صهرتهم، ولازالت نشوة النصر تعتمر في قلوبهم، مترددين وفق هذا المعنى بشأن أفق مستقبلهم، أو تحديد ما سيقدمون عليه في المدى القريب.

لقد بدأت الأصوات تعلو منددة بغياب شفافية السلطة الجديدة،أي المجلس الوطني الانتقالي،الذي لم يتم الكشف عن كل أعضائه، وأيضاً للتنديد بعدم فعالية الحكومة المؤقتة. وكان يرتفع من وقت لآخر الحديث عن نوايا انفصاليين في الشرق، ونزاعات يقودها أنصار القذافي في الغرب. ولكن في طرابلس، حيث تم هـدم صـرح باب العزيزية كلياً ؛ تمهيدا لتحويل المكان – ذات يوم – إلى حديقة عامة كبيرة، يبدو أن الوقت قد توقف، وفقدت المدينة البوصلة. وأكثر من ألتقي بهم كانوا لا يعرفون ما يجب عليهم فعله.

عندما اتصلت ببعضهم، اكون قد حصلت على رقمه من بعض الأصدقاء. كانت ردة الفعل الأولى تعكس ذلك القلق: «من أعطاك اسمي، من أين حصلت على رقمي؟»، «لماذا تتصلين بي ؟»، «لا علاقة لي بهذا الموضوع، لا تذكري اسمي على الإطلاق ! لا يحق لك أن تدمري حياتي!». وأحياناً، كان الرعب يأخذ شكل الغضب المرفق بالتهديدات. بطبيعة الحال كنت أتمكن في أغلب الأحيان من طمانة الشخص،

بعد التشديد على أنني لن أذكر أسمه، وتكرار الوعود بعدم كشف الأسرار. الكثير من المواعيد، التي حصلت عليها بعد جهد جهيد، كانت تلغى في اللحظة الأخيرة، أو تؤجل دون ذكر أي تفسير. أحد القادة المفترض أن يأخذني لمقابلة شاهد أساسي، اختفى ولم يعد يرد على مكالماتي الهاتفية. وقيل لي إنه نقل إلى مستشفى في طرابلس، ومن ثم إلى تونس، حتى أنهم قالوا مرة لي إنه مـــات، لكي لا أتصل ثانية. وشاهد آخـــر سافر فجـــأة. والثالث مريض.ولكن، ورغم انني قد تأكـــدت من صحة كـــافة المعلومات التي ذكرتها ثريا والفتيات، بشأن عمليات الخطف، والحجز، والاغتصاب، ومسرحية الحارسات الشخصيات للقذافي، وذلك الدفق الدائم من الشبان والشابات ؛ الذين يدفع بهم إلى غرفة القذافي، السادي، المهووس بالجنس، بقي علي أن أفهم كيف كانت تعمل تلك الشبكات التي كانت توفر للقذافي يوميا، حاجته من ذلك «اللحم الطري»، وعلى مدى سنوات وسنوات؟!

ما يمكن أن نجـــزم بشأنه في هذا الصـــدد، أن هولاء المتواطئين ؛ كانوا منتشرين دون شك في كل مكان، ومن المؤكد أن هناك رجالا يشاركونه في ذوقه تماماً، ويعرفون أن مده بما يشتهي، تؤسس للطريقة التي تضمن لهم رضاه، وتسمح لهم بالتالي بالحصول على الامتيـــازات. وهناك بعض النساء اللاتي مررن بسريره، وأصبحن على وعي بأنهن من خلال تزويد القائد بالفتيات، سيكون بمقدورهن شق طريقهن إلى الثروة : وثمة منهن وزيرات، وشرطيات، ومدرسات، وموظفـــات مصـــارف، وكـــوفيرات، وموظفات

في الفنادق، وفي السياحة، والأعمال. ولكن، أفضل هؤلاء المتربصين دون شك هم مجموعة من المقربين من القذافي، ممن كان لهم دور استثنائي في هذا السياق.

من هولاء كان هناك شخصان، ما فتيء أسمهما يتردد خلال مختلف المقابلات التي أجريتها وأنا أحضّر للكتاب، هما : عبدالله منصور الرئيس السابق لجهاز المخابرات الداخلية،وهو مقرب جداً من العقيد، وعلي الكيلاني، وهو ضابط سابق في الجيش. وقد عُرف عن كلاهما ولعهما بالشعر، وكتابة كلمات الاغاني. وقد اشتغلا كمدراء فنيين ومنتجي أعمال فنية، كما أدارا كلاهما تباعا الإذاعة والتلفزيون الليبي، أكبر أبواق الدعاية للنظام. وكانت علاقاتهما بالوسط الفني تتيح لهما الوصول إلى عشرات الشباب والشابات الأبرياء الذين يطمحون للعمل بعالم الفن والتلفزيون. هكذا كان كل «كاستينج» لتجربة القدرات المهنية، يشكل مناسبة لاقتناص فريسة جديدة من بين هؤلاء تقدم للدكتاتور. وسرعان ما تكشف اللقاءات التي كان يجريانها في الفنادق الفاخرة، والتي يتقمصان فيها في العادة أدوار الرجال المحترمين، عن طبيعة دورهما كصائدي طرائد للعقيد.

وكانت لهما الاتصالات مع مغنيات وراقصات وفنانات من المنطقة العربية. وكانا يجدان ألف حجة لتوجيه الدعوات لهؤلاء لزيارة القذافي، من بينها تنظيم السهرات والحفلات، وخلافه من التظاهرات الفنية. في أحــدى المرات أعجب القذافي بمذيعة صغيرة تقدم برامج خاصة بالأطفال على قناة «إم بي سي». فما كان من عبد الله منصور إلا أن

اتصل بإدارة القناة، ووجه الدعوة للمذيعة إلى ليبيا بحجة أن الحكومة تـــريد تكريمها على قدراتها المهنية الكبيرة. كذلك حاول منصور جذب صحافية لبنانية أيضا لفتت نظر العقيد، فأرسل لها الأموال لإقناعها بالمجيء إلى طرابلس، بعد أن أوهمها بأن شركة إنتاج تلفزيونية لمشاريع فنية (وهمية) بانتظارها.

وغني عن القــول إن القذافي كان يرصد أموالا خرافية لمثل هذه الخدمات، والتي كانت توضع تحت تصرف عبد الله منصور، الى جانب طائرة خاصة. وكان لمنصور شبكة في العديد من الدول العربية، في مصر، ولبنان، والأردن، وتونس، وكانت العمولات كبيرة للغاية، خصوصاً إذا ما أعلن القائد عن ارتياحه للخدمات التي أشبعت رغباته.

في الـــدول الأفريقية كان العقيد يُشغل شركات مختصة بالخدمات الدبلوماسية، وعددا من الشخصيات المحلية، بهدف تنظيم الحفــلات واللقاءات الخاصـــة : التي كان يحرص على أن ينعم بها خلال زياراته الرسمية الى تلك الدول، وكان يحرص أن تكون المؤسسات التي تعنى بشؤون المرأة، على رأس تلك اللقـــاءات، وذلك لصـــون سمعته كـــ«بطل» مدافع عن قضايا المـــرأة. وكان لا يتردد في تغيير بروتوكول الزيارات الرسمية، والدينية : مثل ما حدث بمناسبة الاحتفال بالمولد النبـــوي الشريف في تومبوكتو عام 2006، واغاديس عام 2007، وذلك لفرض مثل هذا النوع من الاجتماعات، والتي تشكل له مناسبات للحصول على صديقات «وفيات». وكان لا يتأخر عن توزيع الهدايا والميداليات التي تحمل صـــورته، بالإضافة إلى الـــقلائد

النفيسة من الـــذهب والألماس. وعلى هذه الصديقات الجديدات أن يتحولن بدورهن الى شبكة معنية. تنظم له اللقاءات اللاحقة. والتي كان يحبها استعراضية وصاخبة. وأن يتربصن خـــلال المؤتمرات. والأعياد. والاحتفـــالات. والمهرجانات. وعروض الأزياء وحفلات الزواج بالشابات الصغيرات؛ ودعوتهن لزيارة ليبيا.

كان الامر بهذه البساطة. فسمعة القذافي في البلدان الأفريقية أنه «غني وكريم، ورائع». كما أن أمر الحقائب الممتلئة بالأموال، التي يحلم بها الجميع. والتي تتكدس في مقر إقامته.صار معروفا. مثل خطاباته المعادية للأميركيين، أو ملابسه الغريبة. وبالتالي كان الجميع يرى أن تكرر الدعوات لزيارة العقيد مسألة جد عادية. ألم يكن يسوق ليبيا على أنها جنة النساء ؟ قال لي شاب ليبي درس في نيجيريا. بهذا الخصوص : انه كان يلتقي أحياناً في المقاهي والملاهي؛ مجموعة فتيات من نيجيريا ومالي. وهن على جناح من الفرح والترقب : لأنهن سيسافرن في اليوم التالي الى طرابلس.

وقـــال : «هن لا يخفين أنهن ذاهبـــات لمقابلة العقيد، بل هن يحمدن الله على هذا الحظ. فإن بابا معمر : كما يسمونه. يحب إسعاد الفتيات الشابات. ويدعوهن الى قضاء العطلة في بلده، وهن يسألني : ألا ترى أنه الرجل الاكثر اهتماماً بالنساء، من بين كل رجال العالم!».

حقيقة هذه الرحلات «الاستطلاعية»، سترويها لي فيما بعد «فاطمة» الموريتانية. كان قد ربطني بها صديق تارقي.

ووافقت من طرفها على اللقاء دون أدنى شروط، وهو الأمر الذي كان له قيمة خاصة بعد سلسلة الرفض التي واجهت مواعيدي الأخرى. هكذا التقيت بها في بهو فندق كورانتيا الفخم، رشيقة، تمشي الهوينا، شامخة الرأس في اعتزاز، وهي تلقي بابتسامة عريضة ومرحبة. وقد لاحظت على الفور، من خلال تلويحها بالسلام للعاملين بالفندق؛ أنها تعرف المكان جيدا.

كانت عاصفة من البرد القارص قد اجتاحت طرابلس في تلك الايام، مع ذلك كانت فاطمة، مكتفية بوشاح موريتاني خفيف، وجميل، بيضاء البشرة، في السادس والثلاثين من عمرها ؛ عرّفت بنفسها ؛ إنها موريتانية من النيجر، وإنها تعيش منذ عشرين شهرا في طرابلس بفضل معمر القذافي. وعندما سألتها كيف وصلت إليه ؟ اجابتني وهي تضحك؛ «المسألة في غاية البساطة. كانت عندي صديقة نيجيرية متزوجة من تارقي، كان على علاقة بمبروكة، والتي اقترحت عليّ عام 2003 زيارة طرابلس مع أربع من صديقاتي. العرض كان مغريا : بطاقة طائرة، إقامة في فندق خمس نجوم، السياحة في ليبيا على نفقة الحكومة، ومصروف جيب.. من يرفض مثل هذا العرض ؟ ماذا كنت ستفعلين لو كنت مكاني؟ بالتأكيد كنت ستقولين نعم من دون تردد، وبسعادة كبيرة؟».

أسعدني كثيرا أنها أجـــابت عن ســـؤالها بنفسها، لأن «النعم» التي توقعتها من طرفي، لم تكن بالضرورة أكيدة، وواصلت كلامها : «هذه الدعوة بالنسبة إلي كانت هدية من السماء. هكذا وصلت الى مطار طرابلس مع صديقاتي. كان

جلال(الشاب المغرم بثريا ضمن فريق الخدمات الخاصة) بانتظارنا. وقادنا الى فندق المهاري 5- نجوم- الذي كان يديره لفترة نوري المسماري. وقد سلم كل واحدة منا ظرفا يحتوي على 500 دينار (300 يورو) لكي نذهب ونتسوق. قبل أن يبدأ برنامج الزيارة السياحي. وبعد عدة أيام طلب منا أن نرتدي ملابس أنيقة لأننا سنذهب لزيارة بابا معمر. وقد جاءت بالفعل سيارة باب العزيزية. وأقلتنا». تتبعها سيارة حراسات كما تشدد فاطمة : «وهذا كان يشير الى أننا كنا ضيفات مهمات».

قادتنا مبروكة الى صالون في منزل القذافي. الذي وصل وهو يرتدي ملابس رياضية حمراء. كان بسيطا. اهتم بكل واحدة منا سأل عن أهلها. عن اسمها عن قبيلتها. عن لغتها وعن وسائل تسليتها ؟. «هل تحبون ليبيا. آه أتمنى لو أن العالم بأسره يعشق ليبيا». قال العقيد. كان في غاية اللطف والمرح. وفي لحظة من اللحظات التفت الى مبروكة وقال لها سيكون مفيدا لو أن فاطمة تعمل معنا. لأنني لاحظت انها تتكلم العربية. والتارقية. والسواحلية والفرنسية....وهذه المسألة مهمة بالنسبة لنا.. لقد بدت لي مبروكة منزعجة، وغيورة. ولكنها قالت : «نعم». ثم عدنا الى الفندق ونحن نكاد نطير من الفرح : لأن بابا معمر اهتم بكل واحدة منا. وقد استمرت تلك العطلة ثلاثة أسابيع. كان جلال والسائق خلالها تحت تصرف المجموعة طوال الوقت. قبل أن يغادرن بحقائب مثقلة بالهدايا..

تؤكد فاطمة أنها لم تر القذافي ثانية خلال هذه الزيارة. ولكنها سرعان ما عادت الى طرابلس مع مجموعة أخرى

من الفتيات. بينهن فتاة من مالي وصفتها بـ «القنبلة»، والتي كانت على درجة من الفتنة والغجرية والدلال. كان قد لاحظها نوري المسماري من قبل : أثناء أحد رحلاته الأفريقية. وأرسل لها طائرة خاصة لتأتي بها إلى العقيد. وأضافت فاطمة : «كانت هذه الفتاة المالية ترتدي ملابس جد ضيقة» و«تي شرت» من دون كم يلتصق بجسمها. وكان ذلك يتسبب لنا في كثير من المشاكل في شوارع طرابلس. لكن القذافي كان يحب هذا : كان مجنونا بها وكان يستدعيها باستمرار. وعندما كنت انتظر في الصالون مع مبروكة في الوقت الذي كانت معه في غرفته. خرج وقال لمبروكة «اهتمي جيدا بضيفاتي». وكان هذا يعني أعطيهن الهدايا والأموال. وهي تؤكد في هذا الصدد إن جلال كان يغدق عليهن بالهدايا : ساعات رادو، تيسو... وغيرها من الماركات. إضافة الى الأساور والأقراط الذهبية. وعقود الذهب. مع صورة القذافي محاطة بألماس. وتضيف، «وعند مغادرتنا: كانت تُوزع علينا ظروف بها مكافآت مالية. تتراوح بين ألفين إلى عشرين ألف دولار. حسب الضيفات اللاتي كنت أرافقهن الى طرابلس».

فاطمة هنا لا تقول كل شيء فيما يتعلق ومهمتها بالتحديد. وكانت تتهرب من الإجابة عن عدد من الأسئلة بإطلاق ضحكة رنانة. وكانت تقول : «نحن الموريتانيات موهوبات بالعلاقات العامة والتجارة». وبالنسبة الى هذا التعريف يحمل أن تكون موهوبة «كمحظية». أو كصائدة فرائس ؟

ويبدو أنها قد ساقت الى القائد مجموعات كبيرة من الفتيات من عدة دول. وآخر مرة اصطحبت 17 فتاة من نواكشوط للمشاركة في الاحتفالات بمناسبة المولد النبوي. وبانت علاقتها بباب العزيزية معروفة من الجميع. بحيث أصبحت تلعب دور الوسيط بين الوزراء والسفراء ورجال الأعمال الأفارقة، وبين باب العزيزية. وهي تقول بهذا الخصوص : «مبروكة كانت تهتم بنساء وبنات الرؤساء الأفارقة اللاتي يردن رؤية القذافي. أما أنا فكان حقل نشاطي أوسع بكثير». وتقول من ناحية أخرى: «إن كرم العقيد على درجة من الاتساع حتى إنه يطال الجميع. وهو بدون حدود. وأن الفنادق الطرابلسية الكبرى من المهاري لكورنتيا دائما مليئة بالنساء، من كل مكان. ومن كل الاعراق، التي تنتظر موعدها مع العقيد». على أنه من الواضح انها أصبحت، أكثر من ذلك، مقربة جدا من العقيد، فلقد رافقته الى سرت وبنغازي عبر الصحراء، وكانت تحضر الاحتفالات بالعيد الوطني، وعلى علاقة بزوجته وابنتيه عائشة وهناء: «التي كانت تقف دائما خلف شقيقتها الكبرى» : تشرح فاطمة. لقد كان لها مع ليبيا «ذكريات جميلة. وأعمال مزدهرة». حسب تعبيرها.

ويبقى سائقو باب العزيزية في طليعة من يشهد على هذه الزيارات النسائية. وأحد هؤلاء السائقين، واسمه حسين، كان يعمل في جهاز البروتوكول، أكد لي ان أساس عمله تقريبا كان أن يقود الفتيات من فندق المهاري الى.... المطار. وقال : «كن يأتين من كل البلدان والاتجاهات، من مدن ليبية، ومن لبنان، والعراق، ودول خليجية، ومن

البوسنة، وصربيا، وبلجيكا، واسبانيا، وإيطاليا، وفرنسا وأوكرانيا..... كانت أعمارهن لا تزيد على العشرين عاما. وكن في غاية الجمال حتى من دون ماكياج. وكان بينهن قاسم مشترك، وهو : الشعر الطويل».

ويُخصص لكل الضيفات شخصا من البروتوكول : يكون مكلفا باستقبالهن وقيادتهن الى الفندق.حيث يقضين عدة ساعات أو أيام قبل أن يأتي حسين لينقلهن الى باب العزيزية. وغالبا حوالي الساعة الــواحدة صبــاحا. وكان يبقى في السيارة في المرآب حتى الخامسة صباحا. ليعيد الفتاة الى الفندق. بينما سيارة تابعة للحرس تسير خلف سيارته.

يشرح في هذا الخصوص : «بعضهن كانت تخرج من باب العزيزية سعيدات، البعض الآخر منهن يخرجن حزينات، بعضهن كن يغادرن في اليوم التالي. وبعضهن يعدن إليه عدة ليال على التوالي».

جميعهن يصلن الى طرابلس مع حقائب صغيرة.وغالبيتهن يغادرن مع عدة حقائب كبيرة. وكان حسين عبر مرآة السيارة الداخلية يكتشف رزم الدولارات. «أقسم لك على رأس ابني أن إحداهن أخرجت من حقيبة سامسونايت ممتلئة بأوراق مائة الدولار. ورقة مائة دولار لفتها كخرطوم وتنشقت الكوكايين. مائة دولار أكثر من راتبي الشهري». ويقول : «رافقت مرة مطربة لبنانية مشهورة. أمضت الليلة لدى القذافي. في اليوم التالي تسلمت الأمر بأن أسحب لها مليون يورو من المصرف، في أوراق نقدية من فئة الخمسمائة

يورو. في هذا اليوم في الواقع قررت ترك وظيفتي، وقد أصابني الغثيان من ذالك الدور الذي جعلوني ألعبه. وكنت قبل ذلك أعتقد انها وظيفة محترمة».

سائق آخر زميل لحسين : كان مكلفا بالاهتمام بالبنات اللاتي ينزلن في فندق كورانتيا. أكد لي أن الممرضة الأوكرانية كانت تأخذ عينة من دمه في الفندق أمام الجميع، لكي توهم الفتيات اللاتي تم اختبارهن لزيارة باب العزيزية : أن هذا التدبير الغريب ينطبق على الجميع من دون استثناء.

هوس القذافي بالجنس كان يثير في بعض الأحيان غضب رجال الأمن الأجانب. فقد روى أحد وزراء خارجية السنغال كيف أنه رفض بشدة بقاء المرأة الوحيدة التي كانت ضمن وفد رسمي زار ليبيا، في طرابلس : تلبية لطلب القائد بعد سفر بقية أعضاء الوفد. وزير آخر طلب تفسيرا، حول الأسباب التي تدفع بالسلطات الليبية لإخضاع الفتيات الماليات المدعوات الى ليبيا لفحوص طبية ضد الإيدز. وزير آخر قال إنه رصد مجموعة من الصور كان مبعوثو القذافي يعرضونها على الناس بحثاً عن فتيات لفتن نظر العقيد خلال زيارته للنيجر. ووزير آخر فتح تحقيقا، سرعان ما أغلقه، بعد أن عرف أن فتيات مدعوات من قبل القذافي قد صودرت جوازات سفرهن واحتجزن في فندق المهاري.

على إن تفاني المسماري في توفير أجمل الفتيات للقائد أدى ذات يوم الى فضيحة، وإلى أزمة دبلوماسية كبيرة بين ليبيا والسنغال. حيث كانت المئات من عارضات الأزياء الأفريقيات مدعوات للمشاركة في الاحتفال بالذكرى الثانية

والثلاثين لوصول العقيد القذافي الى السلطة، في الفاتح من سبتمبر عام 2001.

وكان مطلوب من السفارات الليبية في الخارج أن تساهم في التحضير لهذه التظاهرة. والتي خصصت لها إمكانات طائلة. وأن تنشط في وسط بنات الموضة أو فتيات المرافقة أي (عاهرات) اللوكس، لاختيار أجمل الجميلات.

في السينغال فضلت السفارة تكليف شقيقتين توأمين هما نانسي وليلى كومباك ؛ ابنتا ممثل سنغالي. سبق وإن اشتغلن مع أجهزة القذافي لهذه المهمة. هكذا انتهى بهما الجهد إلى تحديد يوم 28 أغسطس لقرابة مائة فتاة سنغالية للقاء في المطار. وذلك لتمضية أسبوع في طرابلس. في اليوم المحدد عند الساعة السابعة صباحاً كن جميعهن في المطار. طويلات نحيفات رائعات الجمال ملؤهن الأمل. كان القائم بالأعمال في السفارة الليبية في استقبالهن ورهن خدمتهن، وحتى صعودهن على متن طائرة بوينغ 727 استأجرتها الدولة الليبية من مالطا لهذه الرحلة. ولكن، وقبل أن يتم السماح للطائرة بالإقلاع. فضلت شرطة المطار ورجال الأمن إبلاغ الحكومة السنغالية بالأمر. وقد ارتابوا في طبيعة الرحلة. حيث لم يكن هناك بطاقات صعود ولا تأشيرات سفر. ولا حتى جوازات سفر للبعض من الراكبات، بل إن بعضهن كان دون سن الرشد. وقد أصدرت الحكومة السنغالية على الفور أمرا بحجز الطائرة على الأرض، وقامت بالتنديد بمحاولات تهريب الفتيات. ووصف وزير خارجية السنغال هذه القضية المتورط فيها دبلوماسيون ليبيون، بأنها غير مقبولة وغير ودية. وقال إن السنغال

ليست «دولة تهريب». وأعلن وزير الداخلية الجنرال مامادو نيانغ أن محاولات تهريب الفتيات من السنغال كانت على علاقة بشبكة دولية للدعارة، وأنه سيطلب من الانتربول (الشرطة الدولية) التحقيق في الموضوع. وبطبيعة الحال أثارت القضية ضجة إعلامية كبيرة في البلد، وخرجت الصحف السينغالية في اليوم التالي بعناوين رنانة تتهم ليبيا بتهريب السينغاليات، والاتجار بالرقيق وسوق النخاسة.

كما استدعت السنغال سفيرها في طرابلس للتشاور، الأمر الذي سارعت تجاهه طرابلس بإرسال وفد رسمي الى داكار للقاء وزيري الخارجية والثقافة لشرح الموقف الليبي. غير إن الرئيس عبد الله واد، لم يتأن في أن يعلن رسميا إنه «مجروح» من هذه الفعلة. واتصل بالقذافي، وهو في حالة غضب شديد ليندد بالأمر. وقد اقتضى الأمر جهودا دبلوماسية جبارة، قام بها أحد مستشاريه، هو الذي يروى لي الحادثة، لتجنب قطع العلاقات الدبلوماسية مع ليبيا.

في واقع الأمر،تشكل عارضات الأزياء بكل تأكيد، ركنا هاما من «فنتازيا» العقيد. حيث ما أنفك، في بلد ترتدي فيه أكثر من 95 في المائة من النساء الحجاب، ينظم مهرجانات خرافية لعروض الأزياء. مصمم الأزياء النيجيري الفادي، والملقب بساحر الصحراء، والذي فرض نفسه كحامل راية الموضة الافريقية، لا ينسى ان الفضل لنجاحاته العالمية إنما يعود للعقيد القذافي، وهو يشرح:

«آه نعم، أستطيع أن أقول إن القذافي دعمني، وأعطاني الكثير من المال، وكان يرسل لي بطائرات خاصة، لقد كان

يمول كافة عروض الأزياء التي كنت أنظمها». ويواصل: «كان يؤمن بأفريقيا. وكان يناضل من أجل الرفع من شأن الثقافة الأفريقية، وخاصة الموضة الأفريقية». وعندما سألته في عجب، إن كان جادا فيما يقول ؟ أجابني :

«نعم، أقول هذا من كل قلبي. يجب أن ترى كم كانت مساعدته لي لبعث «الفيما FIMA» : أول مهرجان عالمي للموضة الأفريقية. والذي صار الآن أشهر من نار على علم في العالم كله. حيث كان يبعث إلي بالوزراء وبعارضات الازياء من بلاده.....كنت استطيع ان أطلب منه أي شيء».

أي شيء ؟.. أتصور هذا. فإن المتعة التي كان يحصدها القذافي من معاشرة عارضات الازياء : تساوي مال العالم كله بالنسبة له، وبالتالي فقد كان من الممكن أن يصرف بلا حدود، ويعطي الامتيازات لهذا المصمم النيجيري بلا حدود أيضا. وذلك من أجل أن يأتيه بالعارضات الفاتنات. وسألته: «ولكن يا سيد الفادي، ألم تكن تعلم أن القذافي كان يتصيد العارضات؟». هنا صمت لبرهة. ولاحظت شيئا من التردد يجتاحه. قبل أن يقول : «كانت هناك بعض الشائعات حول هذا الموضوع. سواء فيما يتعلق به أو بمحيطه.

في الواقع إن الليبيين من أكثر الرجال تغزلا في النساء، وكنت على وعي بأن ثمة بعض الخطر في هذا الخصوص، ولكن ذلك ما لا أرضى أن يحدث خلال عروضي... في سرت مثلا، وقبل أي عرض كنت أجمع العارضات، وأقول لهن: عليكن توخي الحذر. يجب أن تتحركن بشكل جماعي،

وكل مرة يجب أن تعدن بعضكن حتى لا تغفلن لو اختفت واحدة. ولا تخرجن بشكل منفرد.... والحمد لله كنت أعود بهن دائما دون نقصان».

ولكن لا شيء. لا الأصول ولا الأعراف ولا القوانين كانت من الممكن أن تحجم شبق الديكتاتور الجامح. في نوفمبر عام 2009 . خطرت فكرة في ذهن نوري المسماري، رئيس برتكول العقيد، والذي كان يملك في جعبته دائما ألف خطة جديدة، تتيح للقائد فرصة اللقاء بأجمل جميلات أيطاليا. حيث اتصل، عن طريق شقيقته، بأحد وكالات توظيف العارضات، وموظفات الاستقبال، وأسمها «هوستسوب» من أجل أن يضمن لقائده جمهور على حسب ذوقه وهواه، في إطار لقاء «فكري»؛ على هامش مؤتمر الفاو FAO المنعقد بروما، والذي دار محوره ذاك العام حول «المجاعة في العالم».

و كانت رغبة القذافي مرة أخرى هنا أن يلتقي بجمهور نسائي، وباعتبار أن هذا الطلب قد وصل متأخرا للوكالة، قامت بتمرير الإعلان عن طريق رسالة نصية أرسلت عن طريق الهواتف الجوالة، مفادها : «نبحث عن شابات بطول متر وسبعين صم على الأقل، جميلة الوجه، وأنيقة، وترتدي كعبا عاليا...»، هكذا استجابت للإعلان حوالي 200 شابة، أعطي لهن موعد بأحد فنادق العاصمة الإيطالية الفاخرة. كان تصورهن عن المهمة، هي حضور أحد اللقاءات الدولية ثم المشاركة في الكوكتيل الذي يليه، لأن الراتب كان 60 يورو لا غير عن السهرة، ولم تتوقع أي منهن أن حافلة كبيرة ستكون في انتظارهن لتنقلهن إلى مقر

السفارة الليبية في روما، حيث سيلحق بهن القذافي، أمام مفاجأتهن الكبيرة، على متن سيارة ليموزين بيضاء فاخرة، ويلقي عليهن محاضرة طويلة، عن الإسلام.....هذا الدين الذي ليس على الإطلاق «ضد المرأة». كان خطابا مجنونا، حاول فيه إقناع الفتيات بالدخول إلى الإسلام. وقال لهن: «هل تعتقدن أن المسيح قد صلب؟ على الإطلاق بل هو رفع للسماء...». وقد خرجت الفتيات من المحاضرة محتضنات القرآن الكريم، والكتاب الأخضر.

لقد كانت تلك المرة الألف التي يجتهد فيها القذافي لإثارة الغرب، أو لفت أنظار الإعلام، وعلى كل حال لقد أقلق هذه المرة بالفعل فضول رجال الإعلام ورجال السياسية في البلد : الذين أخذوا يتساءلون عن الأسباب التي كانت وراء هذا اللقاء ؟

ولكن مدير الوكالة الكسندرو الونديرو، أصـــر على إن الباعث الجنسي لم يكن واردا في هذا المسعى، وقال : «يمكن أن أؤكد لكم إن ولا واحدة من البنات، قد قضت الليل في مقر إقــامة العقيد بالسفــارة الليبية في روما». وواصل : «لقد قمت بنفسي بعدهن أكثر من مرة، لقد كانت مجرد سهرة ثقافية رائعة، تبادلت فيها الفتيات النقاش مع القذافي حول الثقافة الإسلامية والثقافة الليبية».

نــقـــاش ؟

«طبعا»، أصر الكسندروا في حـــديثنا التليفوني، عندما اتصلت به من بـــاريس، وقـــال : «لقد كان العقيد يشعر بضرورة توضيح بعض النقاط للغرب، لأنه كان يرى أن

هناك الكثير من سوء الفهم قد شاع عن بلاده، وعن ثقافة بلاده. بينما كان من طرفه لا يريد شيئا آخر غير تقارب الثقافات، ومد جسور الحوار بين الشباب الليبي والشباب الأوربي. وكان يسمع أسئلة الجمهور، ويجاوبهم بكثير من الصبر والمنهجية. أما بالنسبة لهذه الفتيات : فأستطيع أن أؤكد لكم أنهن عشن عبر هذا اللقاء : تجربة فريدة من نوعها».

الحديث عن الأسلام. كان خيارا لئيما من طرف القذافي، لأنه كان يعرف أن ما سيقوله لتلك الفاتنات الإيطاليات لن يؤدي إلى تسارعهن لدخول الإسلام، ولم يكن هذا غرضه. بل الإعلام هو قصده بكل ذلك، لأنه كان يعرف أنه وظف موضوع الإسلام للحديث مع جميلات البلد، ولبلورة مادة مثيرة للصحافة. لذلك نجده قد كرر التجربة لأربع سهرات متتالية: بحيث أن القذافي قد التقى وفق هذه الوثيرة بأكثر من ألف فتاة إيطالية فاتنة الجمال. مدير الوكالة حرص على أن يشير إلى أن بعض الشباب قد حضروا بدورهم هذه اللقاءات، وبعض الفتيات العاديات، بحسب تعبيره. البعض القلة منهن قلن بأنهن على استعداد لاعتناق الإسلام، وتركوا أرقام هواتفهم.

على أن العقيد القذافي لم يقف عند هذا الحد، بل هو وظف العلاقة مع هذه الوكالة لتنظيم العديد من الرحلات «الاستطلاعية» : تحملت ليبيا كافة مصاريفها لعدد من الجميلات، «من أجل التعرف على الثقافة الليبية، وطبيعة الحياة في البلد».

«كانت رحلة رائعة»، تحكي أحد الفتيات، وهي ممثلة إيطالية -إنجليزية، والتي كانت جد فخورة بأنها قد تناولت الإفطار مع القذافي : «تمر، وحليب النوق». وكانت جد مقتنعة «بأن المعاملة التي تحظى بها النساء في ليبيا؛ هي أفضل منها في أي مكان من العالم». بعض من هؤلاء وصلت بهن قناعتهن بخطابات العقيد، إلى الخروج في روما؛ للتظاهر ضد ضربات النيتو على ليبيا، بل إن مجموعة منهن قد رافقت مدير الوكالة لزيارة ليبيا في أغسطس 2011، لكي يؤكدوا تضامنهم مع العقيد في تلك اللحظات العصيبة، متحدين القنابل، والضربات، وهي الرحلة التي سيعود منها الكسندرو مكسور الخاطر، حاملا في حقائبه رسالة أعطاه إياها عبد الله منصور، تضم نداء استغاثة كتبها القذافي يوم 5 اغسطس لبرلسكوني، أي قبل أن يغادر باب العزيزية بأيام، وهو ما يجعل من مدير «وكالة لعارضات أزياء» : آخر مبعوث للدكتاتور قبل فراره...لا شك في ذلك : إنها سخرية القدر.

8

مبـــروكـــة

منذ لقائي الأول مع ثريا، في خريف 2011، ظل اسم مبروكة يؤرقني. لم تكن رنة اسمها مألوفة لدي رغم علمي أنه مشتق في اللغة العربية من البركة، وإن كلمة «مبروك» تستخدم كثيرا عند الاحتفال بحدث ما أو لتقديم «التهاني الحارة» أو «أجمل الأماني». لكن لم يكن في «مبروكة» ثريا أي شيء من الفرح. كان صوتها الرصين ينطق هذا الإسم بقسوة، وكانت عيناها لا تزال مهووسة بذكريات استحال البوح بها ؛ لدرجة أنني استحضرت فيها الألوان الأكثر قتامة، بل وحتى الشر المتجسد أيضا.

ترى من تكون هذه المرأة المستعدة لارتكاب كل الجرائم لتنيل رضى سيدها المجنون ؟ أي نوع من الطاعة هذا؟ أم هو إعجاب ؟ أو انبهار ؟ هل كان الطموح والجشع حافزها الأساسي أو وجب تلمّح جوانب أكثر تعقيدا وسوادا في موهبتها على استباق رغبات الديكتاتور وشهواته؟

هل كانت تخفي رواسب مذلة شخصية أو جرما سريا؟ هل كانت تفكر في الانتقام ؟ كيف كانت حياتها في باب العزيزية؟

لم تكن ثريا تعلم شيئا، أو أنها كانت لا تعلم إلا القليل لتوجيهي إلى أول الطريق. كانت مبروكة خاطفتها، سجانها وجلادها. حطمت عمدا وللأبد حياتها، وطوال سنوات خمس لم تبد قط أي شكل من الإنسانية أو الرحمة. ليس بإمكانها إنكار الاغتصابات، إذ كانت هي من يسهل لها. كانت على علم بالشتائم، والجرائم، والوحشية: كانت شاهدة على ذلك وشريكة فيه أيضا. أخبرني أحد معاوني القذافي أنها كانت «الأم القحبة في عز فظاعتها». ولم يكن أحد يشك أنها كانت أحيانا تضاجع العقيد. كان يجب العيش قريبا من القذافي للجزم بذلك، لأن خارج أسوار باب العزيزية، كانت مبروكة تبدو في مظهر السيدة المتكبرة، وتقدم نفسها على أنها من بين المستشارين المقربين جدا للأخ القائد. كانت كثيرا ما تستغل الدبلوماسيين أيضا.

استغرقني العثور على بعض صورها مدة من الزمن. كانت تسير في ظل العقيد حين كان يدوس البساط الأحمر عند نزوله من الطائرة في الأراضي الأجنبية. كانت تترك الأماكن الشرفية للعسكريات الفاتنات، لتتنحى جانبا تراقب المشهد بعين كاسرة، تحت حجاب أسود رهيب. كان شعرها بنيا وممشطا إلى الخلف. وكانت قسمات وجهها عادية، لا أثر لمساحيق التجميل، فمها قاس، وكانت تبدو لي باهتة بدون أي طعم. لكن احد السفراء الأوروبيين أخبرني أنها لم تكن كذلك. صحيح أنها كانت سيئة اللباس

و«رثة الهندام»، وبلا ميزة ظاهرة لفتنة أو فخامة، وأنها «لم تكن تدخل في علاقات إغراء». لكن على الأرجح أنها كانت جميلة؛ وبقيت تحتفظ ببعض من ذلك الجمال، وهو يقدّر أنها تبلغ الخمسين من العمر.

الكثير من رؤساء الدول والوزراء والدبلوماسيين قابلوها يوما ما أثناء تنقل رسمي أو قمة افريقية، أو خلال بعض المنتديات الدولية. أوروبيون وفرنسيون، وعلى رأسهم سيسيليا ساركوزي، كانوا قد احتكوا بها أثناء المفاوضات الطويلة بخصوص إطلاق سراح الممرضات البلغاريات المتهمات زورا من الطرف الليبي بلقاح فيروس السيدا إلى الأطفال.

كانت مبروكة تقدَّم على أنها مسؤولة البروتوكول، ولكن الكل كان يعلم قربها من القذافي، وأنها بكل تأكيد موطن ثقته؛ فكانت تُستخدم لتمرير الرسائل، وكانت من طرفها تبذل قصارى جهدها حتى تثبت أن نفوذها يتجاوز حدود المراسم: وأنها بالأحرى هي «السيدة الأمينة للعقيد» التي بإمكانها أن تتدخل في تسميات السفراء أو غيرهم، والتي ما انفك دورها يصبح سياسيا يوما بعد يوم. وقد سبق لها أن اتصلت بقصر الإيليزيه لتطلب توضيحا حول السياسة الفرنسية في مالي أو النيجر. ويُنسب لها أيضا تأثيرها في ملف التوارق، من خلال معرفتها بقيادييهم في ليبيا، وفي بعض دول الجوار مثل الجزائر، ومالي، والنيجر، وموريتانيا. وليس من الضروري إذا التأكيد على أنها كانت تُعامَل بكل احترام، حتى وإن كانت مذكرة من المخابرات الفرنسية، التي كانت تتبعها في تنقلاتها الباريسية، تقدمها على أنها

«صيّادة». ورغم إن السفير أخبرني ذات مرة بكل برود: «كانت تأتي للتسوق».

للتســـوق ؟ «لقد كانت تختـــار الفتيـــات لإرسالهن للعقيد». أجل، هو كذلك. فقد كانت تنزل في فنادق فخمة بمنطقة «الشانزيليزيه» -في جناح بالفوكانس، وتقوم بتفعيل علاقاتها بثقة جنونية في النفس. هل التفت يوما كارولين ساركـــوزي، الأخت غير الشقيقة للرئيس، أثناء إحدى الحفلات ؟ ومن المؤكد أنها أسرعت إلى الالتقاء بها إحدى المرات، دون موعد سابق، رفقة المترجم وسائق السفارة الليبية. لتطلب منها أن توقع نسخة من كتابها حول الديكور، مع إهداء إلى سيدها : «إلى الأخ القائد، أتمنى أن تستمتع بهذا الكتاب حول المنازل الجميلة بباريس». سيجد الثوار هذا الكتاب في أغسطس 2011، عند اقتحامهم لطرابلس، في الفيلا الفخمة لعائشة، البنت الكبرى للقذافي. طبعا كان لدى مبروكة نية جلب هذه السيدة الجميلة : كارولين ساركوزي، للعاصمة الليبية.

وهي ما إن تعلم بوجود أميرة عربية في باريس -من العربية السعودية، أو من الكويت......- حتى تسارع بزيارتها حيث تقيـــم : في فندق ريتز أو فور سيزن، أو.... هل قابلت مرة وزيرة العدل، رشيدة داتي، ذات الأصول المغاربية؟ ولم كانت تطلب مقابلتها ثانية في الفوكانس. لقد جهزت قائمة بأسماء وزيرات ونساء ذوات نفوذ. وفي مقدمّتهن ذوات الأصول العربية أو الإسلامية، فكانت تتنقل من موعد إلى آخر. كانت تتصل بسالمة ميلاد، الجندية التي بقيت إلى جانب القذافي بطرابلس : «اطلبي من الأخ القائد

أن يصرف الأموال للأميرة فلانة». أو «أرسلي قلائد إلى زوجات السفراء».

كانت تقوم بجولة صغيرة في متاجر سيفورا لاقتناء العطور النسائية. وتعيد الاتصال بسالمة لتسأل إن كان ينقص العقيد أي شيء : بودرة. مساحيق للوجه...؟ وكانت تتحدث إلى البائع بتدقيق : «هذه المساحيق لرجل متقدم نوعا ما في السن. رجل له نفس لون بشرتك تقريبا». كان الشاب بعيدا جدا على أن يتخيل أن المنتفع بهذه المساحيق هو القذافي بعينه. وكان ذلك يضحك المترجمة.

كانت مبروكة تتجول أيضا بين المتاجر الفخمة. والمطاعم أو المقاهي الفاخرة للبحث عن فتيات جميلات ومحادثتهن. كانت تفضل المغاربيات. أو الخليجيات لتحادثهم بالعربية. أما بالنسبة لبقية الفتيات. فكانت تستعين بمترجم متعود على طريقة عملها. حيث تبدأ بالسؤال : «هل تعرفين ليبيا ؟ أوه ! هو بلد يتطلب جدا أن يُكتشف ! هل ترغبين في زيارته ؟ أستطيع استضافتك إلى هناك ! بل استطيع أيضا أن أجعلك تقابلين قائدنا !».

وكانت تلتقط لنفسها صورا مع فريساتها المحتملات. وتدوّن عناوينهن. كانت تصطاد باستمرار. وبإمكانيات غير محدودة. في هذا الإطار. أخبروني عن حكاية شابة مغربية حادثتها بأحد الفنادق. وتوسلت إليها أن تقبل دعوتها إلى ليبيا. فاشترطت أن يصطحبها ابن عمها. وعادت إلى فرنسا ومعها 50 ألف دولار.

ذات مساء في طرابلس، وافق رجل من التوارق ممن عرفها في صغرها أن يشرح لي ببعض المؤشرات الأساسية حول شخصية مبروكة. كنا في مطعم في محيط المدينة العتيقة، وكنت أتأهب للاستمتاع بطبق كسكسي مع لحم الجمل. ولكن قبل حتى أن أخرج دفتر ملاحظاتي، بادرني بالقول، في صوت هادئ ورصين : «إنها الشيطان بعينه.» ثم صمت للحظات قبل أن يتابع : «يسكنها شر مطلق، ولديها مهارة جهنمية. إنها لا تتوانى عن فعل أي شيء من أجل بلوغ هدفها : من كذب، واحتيال، وخيانة، ورشوة، وسحر وشعوذة. إنها تمتلك كل الجرأة، وتناور مثل الأفعى، تستطيع بيع الريح لمن لا يريد أن يشتري شئيا».

كان والدها – وهو من سلالة الشرفاء – من نبلاء التوارق. قام بزواج غير موفق حين وقع في حب امرأة ذات مستوى اجتماعي أقل. تقطن مدينة غات، بالجنوب الليبي، على الحدود الجزائرية، غير بعيد عن النيجر. أنجب الزوجان بنتين، مبروكة وأختها البكر. قدماها إلى بعض العبيد للعناية بهنّ. وقد فسر لي أن تلك عادة قديمة لمنع الأذى و«مكافحة الأرواح الشريرة»، عندما يكون الوالدان قد فقدا من قبل بعض الأبناء. وقد تمت خطوبة مبروكة في سن مبكرة لأحد التوارق النبلاء، قبل أن يتزوجها فجأة مسعود عبد الحفيظ، رجل من قبيلة القذافي، ومتزوج من ابنة عم العقيد. كان قائدا للوحدة العسكرية بسبها. وتمكنت مبروكة، لفترة قصيرة، من الاستفادة من الامتيازات الممنوحة إلى أقارب القذافي، واستمتعت بالسفر في ظروف الرفاهية. لكن هذا العسكري الكبير سرعان

ما طلّقها. فعادت لتعيش في مسقط رأسها بغات. وعلى خلاف العديد من نساء التوارق، لم تكن مبروكة تلبس الزي التقليدي، بل كانت ترتدي ثيابا على الطريقة الغربية، «دون أدنى ذوق». ويبدو أنها عاشت في غات بعد طلاقها قصة حب غير موفقة مع رئيس بنك، واختفت بعدها من المدينة «وذهبت إلى طرابلس». لقد كان مخاطبي يجهل حيثيات هذا الهروب الكبير.

ستقدم لي تلك التفاصيل مسؤولة بالمراسم، حيث انتدبت مبروكة سنة 1999، بمناسبة قمة رؤساء الدول الإفريقية الذي أراد القذافي أن يعطيه مدى وإشعاعا تاريخيا، يومها، في 9 سبتمبر1999 (9.9. 99)، حيث تم التوقيع على «اتفاقية سرت» الشهيرة، والمحددة لأهداف الاتحاد الإفريقي. فقد شارك في هذا اللقاء ثلاثون رئيس دولة، مما كان يعني تقريبا ثلاثون زوجة توجّب استقبالهن في المطار، ومرافقتهن في تنقلاتهن (تجميل، تسوق، محاضرات)، ووجب خاصة تسخير مترجمات من أجلهن.

أمام حجم المهمة، وجدت إدارة المراسم نفسها مجبرة على انتداب نساء يتكلمن كل أنواع اللغات واللهجات الإفريقية. من هذا الباب الصغير، دلفت مبروكة إلى دائرة السلطة، إذ كانت تتقن لغة التوارق والهوسة (لغة النيجر ونيجيريا خاصة). حدثتني السيدة التي انتدبتها : «لم تكن تبعث على الثقة. كانت تبدو كالريفية المتخلفة، دون أي أدنى أناقة أو جمالية في هندامها. كانت تبدو فقيرة جدا، ذلك ما ظننته على أي حال، ولكن نظرتها كانت تعكس إرادة قوية!». وفي اليوم الأول من أعمال القمة، دخلت مبروكة

إلى باب العزيزية مرافقة البعثة الغينية لتحية القذافي. كان ذلك كافيا. ففي نفس المساء، أخبَرَتْ المراسم بأن عليهم أن يجدوا مرافقة أخرى بدلها، إلى جانب سيدة غينيا الأولى: «فمنذ اليوم، سأعمل مباشرة مع الأخ القائد». لقد نجحت في الوصول لما نريد.

تحدثت العائلة التي استقبلتها حين قدومها إلى طرابلس عن شدة غضبها حين كانت بصدد البحث عن عمل، وخاصة عن تعنتها في السعي لمقابلة القذافي. «مرّة واحدة تكفي، فقط مرّة واحدة ! وسينتدبني لخدمته!» : كان الكل يفسر نجاحها بممارستها المكثفة للسحر والشعوذة وليس بفضل جمالها. وكانت طوال هذه السنوات في خدمة القذافي، قد قابلت أكبر سحرة أفريقيا، سواء في بلدانهم أو حتى في طرابلس.

وتدريجيا، أصبحت هي المتحكمة في الحريم المتواجد بالطابق السفلي لإقامة العقيد، حيث تأتي الفتيات الشابات كسجينات، وتبقى هناك لسنوات، عالقات وغير قادرات على الاندماج من جديد في المجتمع الليبي.

كانت أيضا المزودة الرسمية للفرائس الجنسية (رُويَتْ لي طريقتها في التعبير عن إعجابها بعضلات الشبان الأفارقة، قبل أن تسوقهم إلى القذافي). أخيرا، كانت المديرة لما يسمى «بالخدمات الخاصة»، أولئك الفتيات والشبان الذين نراهم أحيانا بالزي العسكري مع الحرس الشخصي للدكتاتور. والويل لمن يلفت نظرها أو يذكر عرضا ابنة أخت، أو ابنة عمّ، أو جارة. الويل لمن يأتي إلى باب العزيزية

يطلب خدمة (سكن، شغل، عناية صحية)، حيث لم تكن تنتظر إلا فرصا كهذه لتلقي بشباكها.

«هذه المرأة عار على التوارق. كنا نعلم جميعا معنى «خدمات خاصة». هل استغلت وضعها لتستهدف نساء من شعبنا ؟ كانت قادرة على فعل كل شيء، ولكن المرأة التارقية تفضّل الانتحار على الاعتراف بأنه وقع غصبها على شيء من ذاك القبيل».

حاولتُ طبعا أن أعرف مكان مبروكة. في مستهل شتاء 2011، قيل إنها فرت، مثل معظم المقربين من القذافي، وأنها متواجدة حينها في الجزائر. أحدهم ادعى أنه رآها في تونس، ثم أبرقت لي وكالة الأنباء أنها جنّدت العديد من الشخصيات، خاصة من بين التوارق، في محاولة لإقناع السلطات الجزائرية لمنحها اللجوء السياسي، ولكن الجزائر قابلت طلبها بالرفض. في مستهل مارس 2012، علمت أنها «تفاوضت» بشأن عودتها إلى التراب الليبي، وأنها صارت تحت الإقامة الجبرية في غات، رفقة والدتها.

ورغم إصراري الشديد، باتت مقابلتها مستحيلة، ولكن لدهشتي الشديدة، بدأ عثمان مليقطة، من ثوار الزنتان، الذي قام بالتحقيق معها طوال أيام ثلاثة، مائلا إلى الرأفة بها : «لقد عبرت عن أسف شديد، بل وطلبت العفو، لقد أكدت أنها لم تكن تتصرف بملء إرادتها، وإن أحدا لم يكن في تلك الفترة حرا !». قال أيضا : «لاحظتُ تمسكها الشديد بوالدتها؛ وشعرت كأنها مثل الشخص الطيب الذي نحاول تحميله ذنبا أكبر ممّا اقترفه».

شخص طيب ...! لم أصدّق أذنيّ. ترى هل كان بإمكانها تطويـــع سجانها ؟ هل يجب أن أطلعهم على شهادة ثـــريا.

9

سلاح حــرب

في كثير من الأحيان، قد نكتب مقالات لا يقرأها أحد. فإن دور الصحفي، بالنهاية، هو الاهتمام بالمواضيع التي تحرج، ونشر المعلومات التي تزعج، والكشف عن الحقائق التي تغضب. يقول ألبير لوندر، عميد كبار المراسلين الناطقين بالفرنسية : «لا يطمح الصحفي إلى إمتاع القارئ ولا إلى إيذائه، دوره أن يضع قلمه على الداء». رغم ذلك، لم أكن أفكر في أن أكتب كتابا لا يريده الليبيون.

خلال تحقيقاتي،تلقى كل أصدقائي الليبيين الذين ساندوا المشروع، وهم قلة، الكثير من الضغوطات، والتهديدات للتخلي عن المشروع. وفي أعلى هرم السلطة، تحدث البعض عن ما قد يسببه الخوض في هذه التفاصيل من «إساءة» للمجتمع الليبي. إن اغتصاب فتاة يجلب العار للعائلة برمتها، وخصوصا للرجال، أما اغتصاب الآلاف من النساء من قبل الزعيم السابق للبلاد فيجلب العار

للأمة بأكملها. فكرة مؤلمة جدا. وفرضية لا يمكن تحمّلها. هل سبق لبلد أن أهين رجاله لأنهم لم يقدروا على حماية نسائهم وبناتهم وأخواتهم من مستبد مفترس ؟ أليس من الأفضل إخفاء كل شيء تحت السجادة، وتحت ضمادة «المحرّم» باسم المحافظة على الحياة الخاصة للضحايا. ولما لا نذهب حتى للإنكار ؟ الكلام عن «لا -موضوع». الاهتمام بمواضيع أخرى. ذاك أسهل الحلول. فالأغلبية الساحقة من ضحايا «القائد» لن تفصح عن نفسها. يا له من سبب وجيه ! أما «بنات القذافي»، وحرسه الشخصي من الفتيات، و«فريق الخدمات الخاصة»، والحرملك الذي هربت أغلب جميلاته، فيكفي نعتهن بنساء الحياة البائسة، «قحاب» تملّقن الترف، والسفر، والرفاهية التي منحهن الديكتاتور، واللاتي تبرأت منهــن عــائلاتهــن. وهل يمكن أن نجعل منهن شركاء القائد لا ضحاياه. بل ربما يكنّ متواطئات، متجردات من كل قيمة... بلى. يبدو أن الإنكار هو ما يغري أسياد ليبيا اليوم. إضافة إلى فائدة حماية الأسرار الصغيرة المؤذية، والتي تسبب في خوف حفنة من الرجال. كانوا خدما للدكتاتور منافقين له، وأصبحوا اليوم ثوريين متحمسين يساندون النظام الجديد. هؤلاء يحلمون بالصمت عن تلك الجرائم. الصمت عن الاغتصاب. ونسيان النساء : ثريا وليبيا وخديجة وليلى وهدى والأخريات...اللاتي يعرفن الكثير عن تلك الجرائم. كثير من ضحايا الحروب «البواسل»، «الأبطال»، «المثاليات» ينتظرن من الدولة الليبية الجديدة إعادة الاعتبار والسلوان. إنهــنّ ضحايا حقيقيات. وغني عن القول أنهنّ «أرجل من الرجال».

ولكن لنكن منصفين. هنـــاك بعض الاستثناءات مثل محمد العلاقي. والذي منحني اللقاء معه شحنة من الطاقة دفعتني إلى الأمام. كان اللقاء مساء يوم الأحد من شهر مارس في مقهى وسط مدينة طرابلس. أوصلتني سيارة أجرة بعد جولة رائقة صحبة سائق يعلق ساخرا على لوحات كاريكاتورية للقذافي رسمت هنا وهناك على جدران المدينة. ظهر فيها القذافي مثيرا للسخرية، تارة خليعا وتارة أخرى دمويا. غزير الشعر. وفي أغلب الأحيان في صورة امرأة. «هل تدرين لماذا؟» سألني الشاب، وكان من الثوار الذين شاركوا في تحرير البلد من قبضة القذافي، بينما كنت أبتسم أمام صورة للديكتاتور في ثياب داخلية نسائية خضراء، وقد تزين بعقد من اللؤلؤ في عنقه، ورموش طويلة، وشفاه قرمزية. «كان لوطيا. كان يطلب من الحراس الشبان الرقص أمامه في ثياب نسائية». هذه الجرأة في التعبير أذهلتني أكثر من المعلومة نفسها التي كنت استقيتها من ثريا وحارس سابق في باب العزيزية أخبرني أن له زميلا شابا كان يحس بالعار حين يدعى للقيام بهذا الدور.

كـــان محمد العلاقي ينتظـــرني أمـــام كأس من الشاي بالنعناع صحبة صديق محام. وزير عدل سابق بالنيابة، ويشغل حاليا منصب رئيس المجلس الأعلى للحريات العـــامة وحقـــوق الإنســـان في ليبيا. ترأس طويلا عمادة المحامين في طرابلس، وكان محل احترام زملائه، ومراقبي المنظمـــات غير الحكـــومية الأجنبية التي حافظ على التواصل معها. كان قصير القامة، يرتدي قبعة النبلاء، وله

وجه مدور وناعم، وشارب صغير، وعيون حادّة مشرقة. هو على الأقل لا يستعمل لغة فارغة، خلافا لشخصيات أخرى. قال لي : «نعم لقد مارس القذافي الاغتصاب بنفسه، وعلى نطاق واسع، وأمر باغتصاب رجال ونساء. لقد كان وحشا جنسيا ومنحرفا وساديا جدا. استمعت مبكرا إلى شهادات لمحاميات تم اغتصابن، كشفن لي عن سرهن كصديق وكرجل قانون. شاركتهن آلامهن ومعاناتهن لكن لم أكن أقدر على فعل شيء. لم يكنّ يتجرأن على الاتصال بالوكيل العام. كان تقديم شكوى يعرضهن للموت. هل شاهدت عبر الأنترنت الفيديوهات التي تصور إعدام الضباط الذين تجرؤوا وثاروا عندما قام القائد باغتصاب نسائهم ؟ كان هذا الرجل متوحشا!». كان يهز رأسه ورقبته غارقة بين كتفيه، يحيط بيديه كأس الشاي الساخن. «في آخر أيام حياته، كان مطاردا، بائسا، أعزل. لم يعد قادرا على أن يتمالك نفسه. لكنه استمر في الاعتداء جنسيا على فتيان في السابعة عشرة من العمر أمام حراسه الوفيين، في كل مكان، بعنف مثل الثعلب. لدينا شهادات متوافقة ومتناسقة، وأنا أرفض ما يقوله البعض بإن كل هذا يدخل في إطار حياته الشخصية. لم يكن يمارس الجنس، كان يرتكب جريمة. والاغتصاب بالنسبة إلي هو أخطر الجرائم».

حدثته عن ثريا، عن الدهليز، عن معاناتها السابقة، عن توترها الحالي. وقد أسعدني أن يَلقى كلامي أذنا صاغية ومتفهمة. كنت أفكر فيها طيلة البحث. كان محمد العلاقي ينصت إلي وهو يومئ برأسه. لم يشك لحظة واحدة في صحة ما كنت أرويه. كان يُثمّن قدرتها على

الإدلاء بهذه الشهادة القيمة. كان يقول لي : «آمل أن ننصف كل ضحايا القذافي. هذا أبسط ما يمكننا فعله. يجب أن يكون هذا من أهداف النظام الجديد. أريد أبحاثا، تحقيقات، جلسات استماع عمومية، إدانات وتعويضات. لكي نتقدم. لنتمكن من لم شمل مجتمعنا، ومن بناء الدولة. لا بد للشعب الليبي من أن يعرف كل ما كان يحدث طيلة أثنتين وأربعين سنة. من مشانق، وتعذيب، واحتجاز، وتصفية جماعية، وجرائم جنسية شتى. لا يمكن لأحد أن يتصور ما عانيناه. ليست مسألة انتقام أو حتى عقاب، هي مسألة تطهير للنفس». سيكون هذا معقدا طبعا، نحن لا ننكر هذا. تنقصنا الإمكانيات والهياكل والتنسيق. الحكومة كانت تجهل عدد أماكن التوقيف. وأكثر السجون كانت بين أيدي الميليشيات المسلحة، والجهاز العدلي أو القضائي لم يكن مستقرا بالمرة. لكن يجب فرض الشفافية. لا يجب أن تنأى أي جريمة عن دائرة الضوء.

أصبح الوقت متأخرا جدا. وكان عليه الذهاب.

نطقت بكلمة «جارية» عند الحديث عن ثريا، فاستشاط غضبا. لكن القذافي كان يعتبرنا كلنا عبيدا له. لقد تقيأ على شعبه كل معاناته السابقة، محطما ثقافتنا، مهملا تاريخنا، فارضا على طرابلس عَدَم الصحراء ! كان بعض الغربيين ينتشون أمام ثقافته المزعومة في حين أنه كان يمقت العلم والمعرفة. كان يجب أن يكون هو وحده محور العالم ! أجل، لقد أفسد المجتمع الليبي، جاعلا من شعبه في الوقت ذاته ضحية وشريكا، ومحوّلا وزراءه إلى دمى وأشباح. أجل، لقد كان الجنس في ليبيا أداة للسلطة : «إما أن تنسحق أمامي،

وتطيعني أو أغتصبك أنت، زوجتك، أو أطفالك». كان يقوم بذلك ويحكم على الجميع بالصمت. كان الاغتصاب سلاحا سياسيا قبل أن يصبح سلاحا حربيا.

كم كان صريحا مقارنة برجال السياسة الذين أتيحت لي مقابلتهم ! هو على الأقل، لم يكن يخشى أن أكتب أسمه؛ وأذكر أنه مصدر هذه التصريحات، على عكس الكثير من الذين صرحوا لي ببعض المعلومات المهمة. تطرقنا إذا إلى الموضوع الشائك المتعلق بالاغتصاب الذي مارسته كتائب القذافي أثناء الثورة. كانت حوادث الاغتصاب تقع بالآلاف، في كل المدن المحتلة من قبل ميليشيات الدكتاتور ومرتزقته. وكـــذا في السجـــون. اغتصـــاب جماعي، ارتكبه رجال مخمورون، عادة ما يكونون تحت تأثير مواد مخدرة، تصورهم هواتف جوالة. كانت محكمة الجنايات الدولية، التي أصدرت في يونيو 2011 أمر إيقاف ضد الطاغية، قد نددت بوجود سياسة الاغتصاب الممنهجة تلك. لكنه كان من الصعب الحصول على قرائن وأدلة. أما الضحايا، فقد تواروا عن الأنظار.

كانت النساء ترفض الخوض في الموضوع، وكل من أراد مساعدتهن من أطباء، وأخصائيين نفسانيين، ومحامين ومنظمات نسائية، كانوا يجدون صعوبة بالغة في الوصول إليهن. كن يختفين، ينزوين، على عارهن وألمهن. بعضهن أخترن الهرب من تلقاء أنفسهن، فيما أخريات طردتهن عائلاتهن. هناك من تزوجن من الثوار الذين تطوعوا لصون شرفهن، شرف «ضحايا الحرب». وفي بعض الحالات النادرة، قُتلت بعض هذه النساء على يد إخوة ذكور غسلا للعار..

مؤخرا، خلال فصل الشتاء، هناك من وضعن حملهن في كنف السرية التامة، إنها محنة كبرى.

لقد تمكنت شخصيا من ملاقاة بعض أولئك النسوة المصدومات بشكل عميق، بفضل شبكة فعالة من المناضلات المخلصات المتكتمات، كما تسنى لي حضور عمليات تبني لرضّع وُلدوا نتيجة عمليات الاغتصاب. أوقات لا تنسى، بضع ثوان، يمر فيها الطفل من يد لأخرى، من قدر لآخر. وتمضي الأم – وهي غالبا من المراهقات – متخففة من وزرها، ولكنها تبقى معذبة إلى الأبد.

حـــاورت أيضا بعـــض من قاموا بعمليات الاغتصاب: في سجن بمصراتة : رجلين بانسين، عمر أحدهما اثنان وعشرون سنة، والثاني تسعة وعشرون، كانا منخرطين في كتائب القذافي. كانا يرتعشان، نظراتهما مراوغة، متهربة. كانا يرويان جرائمهما بالتفاصيل : تلك هي الأوامر، هكذا يرددان. كانوا يقدمون لهم «حبوب الهلوسة»، ومعها خمر وبعض الحشيش المخدر. كان قادتهم يهددونهم باستعمال الأسلحة.

«أحيانا كنا نغتصب كل أفراد العائلة. بنات ذوات ثماني أو تسع سنوات، فتيات في العشرين، أمهاتهن، وعلى مرأى من الجد في بعض الأحيان. كن يصرخن، وكنا نزيد من العنف. لازلت أسمع صراخهن. لا يمكنني أن أحدثك عن معاناتهن ! لكن رئيس الفرقة كان يصر : اغتصبوا، اضربوا وصوّروا ! سوف نرسل كل هذا إلى رجالهن. نحن نعرف كيف نهين هؤلاء الأوغاد!».

كان الأول يلعن القذافي ويتوسل كي لا نخبر والدته بالتهم الموجهة إليه. بينما قال الثاني، وهو دامع، إنه نادم وإنه لا يجد إلى الراحة سبيلا. كان يقرأ القرآن ويصلي ليلا نهارا. لقد كشف هوية رؤسائه مؤكدا استعداده لتلقي أي عقاب بما في ذلك الموت.

أكد لي محمد العلاقي : كانت الأوامر تأتي من قمة الهرم. ونحن نملك في هذا الصدد شهادات من المقربين من القذافي. لقد سمعت بنفسي وزيره السابق للشؤون الخارجية موسى كوسة يجزم أنه رآه يأمر قادة الكتائب: «أولا الاغتصاب، ثم القتل». كان ذلك منسجما مع عادته «في الحكم والقهر عبر الجنس».

هل من حاجة إلى أدلة أخرى على وجود إستراتيجية؟ على سبق الإصرار والترصد ؟ إنها موجودة. لقد عُثر على المئات من علب الفياغرا في بنغازي، ومصراتة، وزوارة، وحتى في الجبل. «يوجد منها في كل مكان توقفت فيه كتائب القذافي. كما اكتشفنا عقود طلب مسددة الثمن وممضاة من الدولة الليبية... قلت لك أنه سلاح حرب!».

كان يخيل لمعمر القذافي أنه كاتب، وقام خلال 1993 و1994 بنشر ست عشرة قصة، مليئة بالمقاطع العاطفية، وبالصور الأدبية التافهة،والكليشيهات القاتلة. والأفكار المحمومة : «كانت تعكس معاناته»، ردّد محمد العلاقي متذكّرا خوف الكاتب من الحشود في مجموعته القصصية فرار إلى جهنم، والنذير الشديد الذي تفزع إليه صفحاته.

وكـأنه هنا قد تنبـأ بما سيحصـل له مع الجموع وهو يكتب :

«هذه الجموع التي لاترحـم حتى منقذيها، أحس أنهـا تلاحقني..»

كم هي عطوفة في لحظة السرور، فتحمل أبناءها على أعناقها..!! فقد حملت (هانيبال) و(باركليز).. و(سافونارولا) و(داونتون).. و(روبسبير).. و(موسيليني) و(نيكسون). وكم هي قاسية في لحظة الغضب!! فتآمرت على (هانيبال) وجـرعته السم. وأحـرقت (سـافونارولا) على السفود.. وقدمـت بطلها (داونـتون) للمقصـلة.. وحطمت فكي (روبسبير) خطيبها المحبوب.. وجرجرت جثة(موسيليني) في الشوارع.. وبصقت على وجه(نيكسون) وهو يغادر البيت الأبيض بعد أن أدخلته فيه وهي تصفق!!

كم أحب حرية الجموع، وانطلاقها بلا سيد وقد كسرت أصفادها،وزغردت وغنت بعد التأوه والعناء. ولكني كم أخشاها وأتوجس منها !! أنا أحب الجموع كما أحب أبي، وأخشاها كما أخشاه، من يستطيع في مجتمع بدوي بلا حكومة أن يمنع انتقام أب من أحد أبنائه؟.. نعم كم يحبونه..!! وكم يخشونه في ذات الوقت..!! هكذا أحب الجموع وأخشاها كما أحب أبي وأخشاه...

لقد انتقمت الـحشود بالفعل، عـديد المـرات. عند إقامتي بطرابلس، فاجأت ليبيين بصـدد مشاهدة الصور المريعة لاحتضار الـقذافي وسط صرخـات النصر التي أطلقها المحاربون. كانوا يشاهـدون هذه الصور بمزيج

من الرعب والانبهار. وعند تركيب المشاهد المصورة بالهواتف المحمولة، أضيفت أغان ثورية لتمجيد الملحمة. لكن، كان هناك فيلم لم يتجرأ الثوار على تسريبه ضمن هذه الأفلام، أرتني إياه امرأتان، والأصبع على الفم كمن يريد أن لا يخرج السر لمسافة أبعد، على هاتف نقال بعد مرور بضعة أيام على موت العقيد. حدقت مليا وجحظت عيناي، كانت الشاشة ضيقة والصورة غير واضحة تماما. ولم أستطع تصديق ما أرى. لقد فزعت لدرجة أني ظننت نفسي مخطئة. ولكن لا، هذا ما وقع بالفعل. قبل مقتله، وقبل الضرب، وزخّات الرصاص، والتدافع؛ قام أحد الثوار بإدخال قضيب خشبي أو معدني في مؤخرة الدكتاتور الراحل. وسالت دماؤه فورا. قالت إحدى النساء دون أي شعور بالأسف : «لقد اغتُصب!».

بهذا الصدد قال لي محام من مصراتة : «الكثير من الليبيين شعروا بأنهم ثأروا لأنفسهم منه بهذه الحركة الرمزية ! قبل لقائه الموت، اغتُصب المغتصب».

الخـــاتـــمـــة

سرعان ما عاد الصيف إلى طرابلس البيضاء، في حين أن الشتاء في باريس، امتد إلى ربيع مثلج. كان هذا على الأقل ما بدا لي. كانت السماء رمادية ومنخفضة، وكان المطر حزينا، والأفق مظلما. كان يعتريني الندم للحظات قليلة لعدم اختياري كتابة قصة ثريا وسر القذافي- اللذين لم يتكلم عنهما أحد بعد- في المكان نفسه، في الضوء الساطع، وأمام المتوسط. في الحقيقة لقد هربت من كثرة الضغط والتوتر، من الصمت الخانق والأسرار المسمومة. كان علي حتما أن أضع مسافة وأعيد قراءة دفاتري بعيدا عن ليبيا، وعن هذا الأرق الذي لا يزال يعذب محاوراتي. ولكن المسافة كانت جد نسبية. كنت أكتب في باريس، ولكن فكري في طرابلس، وكنت أترصد مشغولة البال أخبارا من ثريا. كانت مترددة، متعثرة، مكتئبة، ثم يعاودها الأمل، صبيانية، مجـــردة من أي انضباط. لا تـــدري ماذا

تفعل بماضي جد مؤرق وسر جد مكبل. لم يكن لكلمة مستقبل أي معنى لديها. وكان هاجسها اليومي سجائرها وعلب «السليمس» الثلاثة التي لا يمكنها العيش بدونهما. كنت أستحضر بغضب مشهد الدكتاتور حين أجبرها على تدخين أول سيجارة : «استنشقي، ابتلعي الدخان، ابتلعي».

كنت ألاحظ يوميا على الانترنت نفاذ صبر الليبيين المتصاعد من المجلس الانتقالي. كان البترول يُضخ بنسق طبيعي وبلغ إنتاجه تقريبا المستوى الذي كان عليه قبل الثورة. لكن الشعب لم يستفد منه حتى الآن. لقد استمر البلد معلقا : لا وجود لحكومة شرعية، ولا نواب، ولا ولاة، ولا جيش وطني، ولا شرطة، ولا نقابات : لا وجود لدولة. الإدارات العامة كانت متروكة، والمستشفيات غير مزودة، والشكوك حول الفساد قائمة. وبعيدا عن مسألة التفرق أو الوحدة الوطنية، كانت المليشيات المتكونة من ثوار سابقين تعزز سلطاتها، فارضة قانونها الخاص، وحارسة بيقظة سجنائها في أماكن متعددة ومنتشرة من البلاد. كانت اشتباكات بين أعضاء تلك المليشيات تندلع من حين لآخر، إضافة إلى ظهور نوع جديد من النزاعات حول الملكية. آه ! تركة جميلة من القذافي الذي أمم في أواخر السبعينات العديد من الأراضي، والمباني، والمصانع، والفيلات. وهاهم المالكون القدامى يظهرون مصحوبين بحججهم التي تعود إلى زمن الاحتلال الإيطالي، أو العهد العثماني : راغبين في استرجاع أملاكهم فورا حتى ولو أدى ذلك إلى استعمال السلاح.

النساء؟ ربما كنّ بريق الأمل الوحيد. فقد رفعن رؤوسهن، وصعّدن لهجتهن، مطالبات باستحقاقهن لضمان مكانة تليق بهنّ. كن يحسسن بالحرية ويتمتعن بجرأة كبيرة. لقد ساعدت مشاركتهن المكثفة في الثورة في إعطائها شرعية وأساسا جيدا لقطف الثمار حريةً، وتعبيرًا، وتمثيليةً. كان يتبادر لأذهانهن أنه لم يعد بالإمكان إقصاءهن. «تماما مثلما حدث بعد الحروب العالمية»، كما عبرت طالبة لامعة في الطب نشأت في كندا مع والدين منشقين عن القذافي، وعادت إلى ليبيا منذ سبع سنوات. واجه النساء الخوف والمخاطر والمسؤوليات. في غياب الرجال، كن مجبرات على ترك منازلهن التي كنّ في كثير من الأحيان منعزلات فيها، وعشن حلاوة الشعور بأنهن عضوات فاعلات في المجتمع. انتهت إذا معاملتنا على أننا مواطنات من الدرجة الثانية. لدينا حقوق وسيكون صوتنا مسموعا.

فتح لهن عهد القذافي بالتأكيد أبواب الجامعة، والتدريب العسكري المنتظم في المعاهد الثانوية من قبل مدربين ذكور كسروا حاجز المحرم، وأقنعوا أهاليهم بأنهن قادرات على الاختلاط مع الرجال دون مخاطر مفرطة. اجتاحت الفتيات إذا بنجاح ميادين الطب والحقوق وتحصلن على أحسن الأعداد. كان الإحباط من عدم التمكن من بناء مسيرة مهنية متميزة كبيرا. الويل لأولئك اللاتي كن يردن البروز والتطلع إلى مكانة مرموقة أيا كانت الطريقة : كان القذافي وفريقه (قادة، وحكام، ووزراء...) بالمرصاد. كانوا إذا لفتت امرأة أنظارهم يستغلونها بكل وقاحة: اغتصاب، اختطاف، وزواج تحت الإكراه... أخبرتني القاضية هناء

القلال من بنغازي : «لا يمكن تخيل الخوف الذي يعتري الفتيات من أن يظهرن مشرقات، أو ذكيات، أو موهوبات، أو جميلات. كن يمنعن أنفسهن من أخذ الكلمة علنا، يتنازلن عن المناصب المرموقة ويحددن من طموحهن. لقد تنازلن حتى عن الأناقة، وعن الجماليات. كما تخلين عن «التنانير» القصيرة والبلوزات التي كن يرتدينها في الستينات، ووضعن الحجاب واللباس الفضفاض لتغطية أجسامهن. كانت سياسة الابتعاد عن الأضواء هي القاعدة الذهبية. تماما مثل طاقية الإخفاء، حتى صارت النساء في ليبيا مثل الأشباح».

هذه المرحلة قد ولت بكل تأكيد، بلا رجعة، أو بالأحرى كانت هاته النساء يتمنينها قد ولت. فقد تصالحت النساء في ليبيا ما بعد القذافي، مع الطموح -المهني، والاقتصادي، والسياسي- وهن واعيات رغم كل شيء بأن العقليات لن تتغير بين عشية وضحاها. والدليل ؟ الخطاب الشهير الذي ألقاه رئيس المجلس الوطني الانتقالي، مصطفى عبد الجليل : يوم 23 أكتوبر2011، يوم الإعلان الرسمي عن تحرير : وقد تقاطر عشرات الملايين من المواطنين لحضور هذه الاحتفالية، وتسمرت الملايين من العائلات الليبية المفعمة بالمشاعر أمام شاشات التلفزيون عبر مختلف المدن الليبية لمتابعة هذا الحدث التاريخي. لقد كان قلب ليبيا بكاملها يخفق في تلك اللحظة في مدينة بنغازي، وقد حبس الكل أنفاسه. النساء من طرفهن كانت تنتظر في هذه اللحظة، دون أن تعلن صراحة عن ذلك، إشارة بذاتها عن جرائم الماضي، أو لفتة تجاه دورها. بل

أبعد من ذلك أن يتم تكريمها لخصوصية هذا الدور. ولكن خاب ظنهن!.

حيث لم تتم إي إشارة لمساهمتهن في الثور، ولم يتم حتى مجرد تلميح للدور الذي من شأنهن أن يلعبنه في ليبيا الحديثة. آه : نعم، تمت الإشارة إلى أمهات وأخوات، وبنات «الشهداء الرائعين». هؤلاء الذين لن تنسى لهم ليبيا ما قدموه للوطن. بعد ذلك تم الانتقال، للإعلان عن إن تعدد الزوجات لن يكون مشروطا بموافقة الزوجة الأولى كما كانت تنص عليه القوانين في عهد القذافي، وأنه يجوز للرجل منذ الآن ؛ ووفق أحكام الشريعة الإسلامية؛ التي ستكون مصدرا للتشريع في ليبيا، أن يتزوج بواحدة أو أربع... إذا ما شاء ذلك.

لقد وقع الأمر كالصفعة على وجوه نساء ليبيا اللاتي كن يصغين بكل حواسهن لهذا الخطاب، واللاتي فشلن، ومنذ بداية الاحتفالية، في رؤية ولو طيف امرأة واحدة تجلس بين الحضور في منصة الاحتفال التي اكتظت بالرجال، يصولون ويجولون في بدلاتهم الرسمية، وكلهم فخر بكونهم من يجسد هذه المرحلة الجديدة.

وتشرح لي نعيمة جبريل القاضية بالمحكمة العليا ببنغازي، التي التقيت بها فيما بعد : «لقد صُعقت... واشتعلت غضبا... وانتابتني ثورة عارمة ضد هذا الخطاب الكارثي». وتضيف : «أؤكد لكم بأنني بكيت....»

كل هذا الكفاح من أجل هذه النتيجة ؟. يقول حال القاضية نعيمة وحال غيرها من نساء ليبيا.

«كل ذلك النضال الذي خاضته أمهاتنا وجداتنا للفوز بالحق في التعليم، وفي العمل، والاحترام. كل الجهود التي بذلناها في الدراسة حتى لا يكون هناك من مجال للتمييز بين الإناث والذكور، وأن يكون لنا مطلق الحرية في اختيار المهنة التي نريد. كذلك كل ذلك الانخراط «الثائر» في الثورة، ومنذ البداية....بل منذ اليوم الأول، حينما كان أغلب الرجال لا يملكون الجرأة على الخروج.... كل ذلك يتم اليوم مسحه بجرة قلم...ويحدث هذا يوم التحرير ...ياللعار!!».

ياللعار : نعم، كان هذا هو الشعور الذي اعترى نساء ليبيا بشأن هذا الحدث.

وتشدد هذه السيدة : التي كانت قد عُينت كأول قاضية، على رأس هذا السلك عام 1975 بمدينة بنغازي : «هل تتذكرين ذلك السيل الجارف من صور أعضاء المجلس الوطني الانتقالي، لمختلف زياراتهم للعواصم الأوربية، والتي لا تظهر في أفقها امرأة واحدة ؟ أو كيف أنه أثناء زيارة كاترين أشتون : رئيسة المفوضية الأوربية إلى بنغازي في مايو الماضي، لم تكن هناك امرأة واحدة لاستقبالها. أو أثناء زيارة وزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كلينتون لمدينة طرابلس عشية القبض على العقيد القذافي. لم تكن هناك ليبية واحدة في استقبالها؟».

من جهتها شرحت لي الأكـــايمية أمل الجراري بشأن ما جاء في خطاب المستشار عبد الجليل : «كم كان الأمر مهينا»، وواصلت : «وما أبشع هذه الصورة التي تم رسمها

عن بلادنا، رغم كل ما تملكه المرأة هنا من عنفوان، وعلم وثقافة، وتاريخ من النضال. ولكن للنظر للأمور بلا مواربة: من المؤكد أننا لن نجد رجلا واحدا سيعمل على وضعنا في الصورة، أو أن يتقهقر ليسمح لنا بأخذ ولو مساحة صغيرة على المنصة. وأنه علينا بأنفسنا أن نفرض وجودنا بالقوة، وأن ننهض للتذكير بكل التضحيات التي قدمناها من أجل هذه الثورة».

في هذا السياق نشأت العديد من التنظيمات النسائيّة في كلّ مكان، في شكل نوادي، وجمعيّات أو مؤسّسات غير حكوميّة، والتي نُظمت في شكل شبكات مهنيّة، أو تعاونية، أو شبكات جهويّة. أما الخلايا السّرّيّة الصّغيرة التي تكوّنت أثناء الثّورة، فقد تحوّلت إلى منظّمات في خدمة النّساء، والأطفال،والجرحى،والمصالحة، وقد عوّضت هذه المنظّمات دور العديد من المصالح المتقاعسة، والنّقص الفادح في المبادرات من طرف الحكومة. كما نظمت الكثير من الدورات التدريبة واللقاءات المهنية لإعداد كوادر حراك المجتمع المدني، وتوضيح حقوق كلّ واحدة ومسؤولياتها في نظام ديموقراطي. «فألانتخاب امتياز، يجب اغتنامه! إنّه فرصة المرأة الليبية». هذه التي تتقد طموحا لتحويل هذا الحضور الميداني إلى قوّة سياسيّة ضاغطة لأنّ الليبية قد أدركت اليوم أنّ تحرّرها يبدأ من هنا.

ويكفي في هذا الصدد القيام بجولة سريعة على صفحات الفايسبوك لنلاحظ كثرة ٱلمجموعات ٱلنّسائيّة، وحيويّة نقاشاتهنّ حول مستقبل اللّيبيّات، ورغبتهنّ في تتبّع الأخبار عن وضعيّة ٱلنّساء في بلدان ٱلثّورات ٱلعربيّة

الأخرى، وسعيهنّ للتّنسيق معهنّ بأسرع ما يمكن. أجل، إنّهنّ مليئات بالأمل. فهاهنّ يعلّقن على القانون الانتخابي، ويناقشن نسب الحصص، ويطالبن بنساء وزيرات، وسفيرات، ومديرات بنوك أو مؤسّسات عموميّة وإداريّة. وهنّ يؤكّدن أنّ «النّساء لم يكنّ متورّطات في نظام القذّافي»... وإن قراءة ما يكتبن أمر محفّز، ومنعش إلى حدّ بعيد. كنت أضحك لرؤيتهنّ ينشرن صورهنّ وهنّ يلوّحن بفخر ببطاقة النّاخب الجديدة!. آه، هنّ ينوين استعمالها إذا!.

وهنّ يظهرن استبشارهن. ولكنّهنّ يحكين أيضا آلامهنّ. يوم 18 مايو، نشرت امرأة شابّة، أعرفها بكثرة نشاطها، رسالة على الفايسبوك، تقول فيها : «إنّه يوم الجمعة. الطّقس رائع ولكن بما أنّني امرأة في ليبيا، فإنّي أجد نفسي مسجونة في المنزل ومكتئبة لأنّه لا يحقّ لي الذّهاب إلى الشّاطئ. لماذا لا توجد شواطئ للنّساء ؟ ألا توجد لدينا سواحل كافية ؟ كم منكنّ يا فتيات تشعرن بنفس الشّيء؟» كم ؟ لنر إذن ! «آلاف؟»، أجابت إحداهنّ في الحين. «إنّه لظلم!» وكتبت أخرى :

– «كنت أسكن في شارع يطلّ مباشرة على الشّاطئ ولم يكن لديّ الحقّ في أن أطأه.

– أجابت مستعملات الانترنت : إنّه أمر مرفوض تماما!

– إنّه حتى ليس أمرا متعلّقا بالقانون. إنّها إحدى مآسي هذه البلاد !

– ثريّا لا تذهب إلى الشّاطئ، ولا تتصفّح الانترنت، وليس لديها حتى حساب بالفايسبوك. ليس لديها حتّى

صديقات تشاطرنها غضبها أو تصحبنها للتّسجيل على قائمة ٱلانتخابات. لكنّها تأمل دائما ألّا تُنسى جرائم ٱلقذّافي ٱلجنسيّة : «لم أكن أحلم يا آنيك. أنت تصدّقينني أليس كذلك ؟ ٱلأسماء. ٱلتّواريخ. ٱلأماكن. رويت لك كل شيء. لكنّي كنت أريد أن أشهد أمام ٱلمحكمة. لماذا عليّ أن أخجل ؟ لماذا يجب أن أدفع ثمن الجرائم التي ارتكبها بحقي؟».

«ثــورتهـــا هي ثــورتي. كنت أودّ أن أتقاسمها مع ليبيّات أخريات : قاضيات، محاميات، قريبات من المجلس الوطني الانتقالي، مدافعات عن ٱلحقوق ٱلشّخصيّة. للأسف، لا توجد أيّ منهنّ لتجعل من هذه ٱلقضيّة قضيّتها. أمر غاية في ٱلحساسيّة. محرّم. لا جدوى منه، قد يخسرنا كلّ شيء. في بلد كلّ شيء فيه بيد ٱلرّجال، لا يمكن مناقشة ولا مقاضاة ٱلجرائم ٱلجنسيّة. المعنيات بهذه القضية سيُنْعَتْنَ بٱلكاذبات أوغير اللائقات. أمّا ٱلضّحايا، فلكي يعشن، يجب أن يبقين مختبئات».

قالت لي الحقوقية سلوى الدغيلي المرأة الوحيدة بالمجلس الوطني الانتقالي، وقد أنصتت لي مطولا وأنا أحدثها عن ثريا. وهي تومئ برأسها: «كم هي شجاعة هذه الصغيرة ! يجب أن يعرف التاريخ، أن هذا الأمر مصيري. هذا هو الوجه الحقيقي لهذا الذي حكم ليبيا لمدة اثنتين وأربعين سنة. هكذا حكم ومقت وأخضع شعبه. يجب أن تكون هناك نساء رائدات يجرؤن على الحديث عن مأساة النساء، وما عاشه البلد بالفعل. لكنها إن تكلمت ستعرض نفسها لمخاطر كبرى».

كانت تدون بعض الملاحظات، ووجهها متألم تحت المنديل الوردي، وجهاز الآي فون يرتعش في حقيبتها الباريسية. «أظن أنهم أخبروك أن الموضوع محرم. كل رجائي وأملي أن تتم حماية الضحايا. فليست ثريا وحدها الضحية. هناك مثلها الكثيرات. لكن لا يمكنني التعهد بإخراج ملف كهذا!..؟».

لن يفعل ذلك أحد، وفي العالم بأسره، ستواصل النساء اختيار الصمت. ضحايا يخشين من جريمة جعلت من بطونهن أمرا من أمور السلطة، أو غنيمة حرب. لقد وقع استهدافهن من قبل هؤلاء المتوحشين، لكن مجتمعاتنا، البربرية مثل المتطورة منها، تواصل تعاملها معهم بتساهل مقرف.

*

قبل أن أغادر طرابلس في نهاية شهر مارس، أردت أن أقوم بجولة أخيرة في موقع باب العزيزية. لم يبق شيء يذكر مما كان يرمز طيلة عقود إلى جبروت سيد ليبيا. فقد قامت عربات البلدوزر بتفتيت الحيطان، وسحق أغلب المباني، محولة الموقع السابق للقيادة إلى ركام بائس من حجارة، وإسمنت، وصفائح معدنية.

بعد المعركة الأخيرة، قامت حشود من الناس بنهب المكان. لم يبق شيء. لا شيء على الإطلاق يُذكر بوجود إنساني. كان الدخان يتصاعد من أكداس القمامة التي أضحى الشعب يلقي بها هناك لغياب خدمات رفع الفضلات المنظمة. وكان هناك مسبح مملوء بالماء العكر،

حذوه بعض النخيل المتيبس، بينما كانت السماء متجهمة والغربان الرابضة على بقايا الحيطان تحرس المكان. كنت أمشي بلا هدف في مكان الكارثة. لقد هُدمت المعالم التي حدثني عنها أحد حراس القذافي. كنت تائهة. ليس هذا مهما. كنت أتقدم وأنا أحاول العثور في هذا الديكور المعدني، عن إشارة ما تذكرني بثريا.

اعترضني أحد الثوار، كان يتمشى في المكان نفسه، ربما كانت بحوزته هذه الإشارة. قادني إلى مدخل الدهليز حيث كانت ثريا، حيث قابلتنا، بضع درجات من الإسمنت، وباب ضخم مصفح كأبواب الخزائن، ونفق بلا نهاية قادني فيه الرجل أكثر من مائة متر على ضوء مصباح كان يحمله. عند تسلقي لإحدى أكداس الإسمنت المسلح، في مخرج النفق، لاحظت وجود شريط أغاني محتجز بين حجارتين، أسفل كلاشنيكوف محترق. كان ذلك غريبا وسخيفا. كان العنوان المكتوب بالعربية غير مكتمل، وحين مددت الشريط لمرافقي، أخبرني بكل بساطة : «أغاني ليبية!». ترى هل كانت إحدى الأغنيات القميئة التي كان القذافي يجبر ثريا لترقص عليها ؟ وضعت الشريط في جيبي وواصلت التسلق، والتقدم. بعد بضعة أمتار، جذب انتباهي تصدع صغير في الأرض. لماذا توقفت عنده ؟ لا أدري؟، وقد اعترضت أمثالها الكثير، التصدعات التي كانت تُذكر بكل المعارك التي دارت في شهر أغسطس، أو التي تدل على وجود دهليز. انحنيت فوق الشق، فلاح لي في القاع شيء أحمر اللون شد انتباهي. لم أتبينه، فأمسكت بغصن شجرة، وتمددت على الأرض لأتمكن من جذبه. كان الأمر

سهلا. إنه مصنوع من القماش. ومن أحشاء باب العزيزية برزت صدرية نسائية صغيرة (من الدانتيل الأحمر) كتلك التي كانت ثريا مجبرة على ارتدائها.

لأول مرة منذ بداية هذه الرحلة، اجتاحتني رغبة حارقة في البكاء.

شكـــر وتـــقديـــر

يدين تحقيق هذا البحث بالفضل إلى جهود ثائرة ليبية؛ شجاعة، مستقلة ومعنية حتى النخاع بهذا الموضوع. والتي انخرطت بكل قواها في الثورة : روحا وجسد، ومنذ اليوم الأول من انطلاقتهـــا. وجهدت في هذا السياق، رغم حجم المخاطر والصعوبات، لان تمد يد العون، في كامل السرية، وفي الغاء تام للذات، للمعنفات من النساء، اللاتي كن قد انسحقن تحت وجع المصيبة وعصف المعاناة. ضحايا ذلك العدوان الغاشم الذي شنه القذافي وكتائبه ضد الشعب الليبي، والذي وظف فيه الـــجنس ســـلاحا في معاركـــه القذرة، هذه الجرائم التي يصعب على ليبيا تصديق وقوعها حتى الآن.

مناضلة، لا زالت تكافح في هذه الجبهة رغم الضغوطات والتهديدات. وقد اختارت الانحياز لقضية المرأة باطلاق..... إليها ارفع كل ايات الشكر والاكبار.

كمـــا ارفع الي زملائي المســـؤولين في جريدة اللوموند، هذه الصحيفة التي كان لي الحظ أن اشتغل بين صفوفها منذ ثلاثين عاما، والتي تربطني بها عرى وثيقة من التكامل، اسمى آيات الامتنان لمـــا منحوه لي من وقت، ومن ثـــقة لإنجاز هذا المشروع.

الفهرس

الطرائد

جرائم القذافي الجنسية

نحن هنا أمام نموذج استثنائي من البحوث الميدانية؛ الذي جهدت خلاله الكاتبة الفرنسية الكبيرة انيك كوجان لرفع الستار عن ابشع الجرائم الجنسية التي ارتكبها طاغية عبر القرون. استغرق منها عدة اشهر من التنقيب في ليبيا ما بعد الحرب ؛ حول الجرائم الجنسية للمقبور القذافي. اليد في اليد مع ثائرة ليبية. في تحدي كبير لكافة الصعوبات التي كانت تقف أمام الخوض في موضوع يحمل في طياته أكثر من تهديد. حيث تنقل الكاتبة في هذا الكتاب. شهادات على درجة من الاهمية لعدد من الضحايا. اختارت أن تضع إحداها كوثيقة أساسية، ترفدها بقية الشهادات.

صفحات من «حياة متجبر مهووس بالجنس» نعرضها دون مواربة ؛ رغم ارتعاد قرائض الحروف ؛ لنقدم للعالم كشفا بجرائم الطغاة، وليعرفوا ان التاريخ يترصدهم، وان كل من يحاول أن يتمادى سيكون التاريخ له بالمرصاد...

وحتى لا يتكرر ذلك أبدا !

ISBN 978 9938 864 02 1



